

الميزان
نفسية القرائن

للعامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد السادس عشر

منشورات
مؤسسة الأهل والحبوات
بيروت - لبنان

الميزان
في
تفسير القرآن
١٦



الميزان

في

تفسير القرآن

كتاب علمي • فني • فلسفي • أدبي •
قاري • روائي • اجتماعي • حديثي
بفـسر القرآن بالقرآن

تأليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد السادس عشر

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للنشر
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

تتاز هذه للطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة القصص مكية ، وهي ثمان وثمانون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طَسَمَ - ١ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
الْمُبِينِ - ٢ . تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ - ٣ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا
يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذَّبِحُ أَوْلَادَهُمْ وَبَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ - ٤ . وَزُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ - ٥ . وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَزُرِيَ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ - ٦ . وَأَوْحَيْنَا
إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ - ٧ . فَالْتَقَطَهُ
آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
كَانُوا خَاطِئِينَ - ٨ . وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ لَا
تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ - ٩ . وَأَصْبَحَ

فَوَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَانَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِنَا
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - ١٠ . وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِّبِهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ
يُحِبِّ وَهُمْ لَا يَشْفُرُونَ - ١١ . وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ - ١٢ .
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ - ١٣ . وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ - ١٤ .

(بيان)

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شذمة قلوبون
يستضعفهم فراعة قريش وطغاتها واليوم يوم شدة وعسرة وقتة بأن الله سينزل عليهم
ويعلمهم أئمة ويمعلمهم الوارثين ويمكّن لهم ويرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون
يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في
أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فرباه في حجر
عدو ، حتى إذا استوى وبلغ أشده نجّاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثم رده إليهم
رسولاً منه سلطان مبین حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل
م الوارثين وأزل للتوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين .

وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعد لهم بالملك والعهدة والسلطان
ووعد لئني ~~يخلفهم~~ برده إلى معاد .

وانتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزل كتاباً من عنده
للدعوة الحقة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم : لولا أوتي مثل ما أوتي موسى

والجواب عنه ، وتعلمهم عن الإيمان بقولهم : إن نتبّع الهدى مملك نتخطف من أرضنا
والجواب عنه وفيه التمثيل بقصة قارون وخسفه .

والسورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها ، وما أوردناه من الآيات فصل من
قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده .

قوله تعالى : « طسم تلك آيات الكتاب المبين » تقدم الكلام فيه في نظائره .

قوله تعالى : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » من «
للتبويض و « بالحق » متعلق بقوله : « نتلو » أي نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا
وروحى منا من غير أن يداخل في إلفانه الشياطين ، ويمكن أن يكون متعلقاً بنبأ أي
حال كون النبأ الذي نتلوه عليك متلبساً بالحق لا مرية فيه .

وقوله : « لقوم يؤمنون » اللام فيه لتعليل وهو متعلق بقوله : « نتلو » أي نتلو
عليك من نبأها لأجل قوم يؤمنون بآياتنا .

ومحصل المعنى : نتلو عليك بمض نبأ موسى وفرعون تلاوة بالحق لأجل أن
يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك وهم طائفة أذلاء مستضعفون في
أيدي فراغة قريش وطفاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به وبرسوله وحملوا
كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى ~~عليه السلام~~ لإحياء الحق وإنجاء بني إسرائيل
وإعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة بذبح أبناءهم ويستحبي نساءهم وقد علا فرعون
وأنشأ فيهم مغالب قهره وأحاط بهم بجوره .

أنشأ والجو ذلك الجو المظلم الذي لا مطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجه
من مصر ثم أعاده إليهم بسلطان فأجابه بني إسرائيل وأقنى بيده فرعون وجنوده
وجعلهم أحاديث وأحلاماً .

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم ويرمزه لهم بقوله : « لقوم يؤمنون »
أنه سيفعل بهمؤلاء مثل ما فعل بارئك وبين على هؤلاء المستضعفين ويحملهم أئمة ويحملهم
الوارثين حدو ما صنع بني إسرائيل .

قوله تعالى : « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستخف طائفة
منهم » الخ ، اللطو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار ، والشيع جمع شيعه وهي

الفرقة ، قال في المجمع : الشيع : الفرق وكل فرقة شعبة وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضاً . انتهى . وكانت المراد يحمل أهل الأرض - وكانهم أهل مصر واللام للمهد - فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لثلاث يتفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة وتقوية السلطة ، واستحياء النساء إبقاء حياتهن . وعصل المني : أن فرعون علا في الأرض وتفوق فيها ببسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعاً وفرقا مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء . وبذلك ضمت عامة قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته .

وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباه وإخوته وأشخصهم هناك فسكنوها وتناسلوا بها حتى بلغوا الالف .

وكان فرعون هذا وهو ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام يعاملهم معاملة الاسراء الأرقاء ويزيد في تضعيفهم حتى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم واستبقاء نساءهم وكان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور وفيه فناء القوم .

والسبب في ذلك أنه كان من المفسدين في الأرض فإن الحلقة العامة التي وجدت الإنسان لم يفرق في بسط الوجود بين شعب وشعب من الشعوب الإنسانية ثم جهز الكل بما يهديهم إلى حياة اجتماعية بالتمتع من أمتعة الحياة الأرضية ولكل ما يعادل قيمته في المجتمع وما يساوي زنته في التعاون .

هذا هو الإصلاح الذي يهدف به الصنع والإيجاد ، والتعمدي عن ذلك بتحرير قوم وتمييد آخرين وتبيح شعب بما لا يستحقونه وتحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الذي يسوق الإنسانية إلى البيد والهلاك .

وفي الآية تصوير الظرف الذي ولد فيه موسى عليه السلام وقد أهدقت الأسباب المبيدة لبني إسرائيل على إفنائهم .

قوله تعالى : « ويزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض إلى قوله - ما كانوا يحذرون » الأصل في معنى المن - على ما يستفاد من كلام الراغب - الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منا ، والمنة النعمة الثقيلة ومن عليه من أي أنقله بالنعمة . قال : ويقال

ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله : « وزيد أنت نمن على الذين استضعفوا » أي نعطيهم من النعمة ما يتقبلهم والثاني بالقول كقوله : « يمنون عليك أن أسلموا » وهو مستقبح إلا عند كفران النعمة . انتهى ملخصاً .

وتمكنهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرون فيه ، وعن الخليل أن المكان مفعل من الكون ولكثرته في الكلام أجري مجرى فعال . فقيل : تمكن وتمسكن نحو تنزل انتهى .

وقوله : « وزيد أن نمن » الخ الأنسب أن يكون حالاً من « طائفة » والتقدير يستضعف طائفة منهم ونحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا الخ وقيل : معطوف على قوله : « إن فرعون علا في الأرض » والأول أظهر ، و « زيد » على أي حال الحكاية الحال الماضية .

وقوله : « ونجعلهم أئمة » عطف تفسير على قوله : « نمن » وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة .

والمعنى : أن الظرف كان ظرف علو فرعون ، وتفريقه بين الناس واستضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم والحال أننا نريد أن ننعيم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين ، ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم وتمكن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرون فيه ويملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبيدهم فيه ويقرهم عليه ، ونزي فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره وحنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحنزون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم ومالهم وسنتهم كما قالوا في موسى وأخيه هارون : « يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بضريقتك المثل » طه : ٦٣ .

والآية تصور ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضى على بني إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفس ولا يبقى منهم : ففتح نار وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملاً أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتى يتضي عليهم . باييد هذا ظاهر الأمر وفي باطنه الإرادة الإلهية تعلقت بأن تنجيهم منهم وتحويل ثقل النعمة من آل فرعون

الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وتبدل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم والله يحكم لا معقب لحكمه .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقه في اليم » إلى آخر الآية ، الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بمض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله : « بأن ربك أوحى لها » الزلزال : ٥ ، وقوله : « وأوحى ربك إلى النحل » النحل : ٦٨ ، وقوله في أم موسى : « وأوحينا إلى أم موسى » الآية أو بنحو آخر كما في الأنبياء والرسول ، وفي غيره تعالى كما في قوله : « إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الأنعام : ١٢١ ، والإلقاء الطرح ، واليم البحر والنهر الكبير .

وقوله : « وأوحينا إلى أم موسى » في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير وحبلت أم موسى به - والحال هذه الحال من الشدة والحدة - ووضعته وأوحينا إليها الخ .

والمعنى - وقلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته : أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه - أن يطئع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه - فألقه في البحر وهو النيل على ما وردت به الرواية ولا تخافي عليه القتل ولا تحزني لفقدته ومفارقته إياك إنا رادوه إليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون وبني إسرائيل .

فقوله : « إنا رادوه إليك » تمليل للنهي في قوله : « ولا تحزني » كما يشهد به أيضاً قوله بعد : « فردناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن » والفرق بين الخوف والحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع والحزن في مكروه قطعي الوقوف .

قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » الالتقاط إصابة الشيء وأخذه من غير طلب ، ومنه اللقطة واللام في قوله : « ليكون لهم عدواً وحزناً » للعاقبة - على ما قيل - والحزن بفتح الحين والحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالتسقم والسقم ، والمراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببته لحزنهم .

والخاطئين اسم فاعل من خطى، يخطأ خطأ كعلم يعلم علماً كما أن المخطيء اسم فاعل من أخطأ يخطيء إخطاءً، والفرق بين الخطيء والمخطيء على ما ذكره الراغب أن الخطيء يطلق على من أراد فعلاً لا يحسنه ففعله قال تعالى: «إن قتلهم كان خطأ كبيراً»، وقال: «وإن كنا لخاطئين»، والمخطيء يستعمل فيمن أراد فعلاً يحسنه فوقع منه غيره واسم مصدره الخطأ بفتح الحاء، قال تعالى: «ومن قتل مؤمناً خطأ» النساء: ٩٢، والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة. انتهى ملخصاً.

فقوله: «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل وموسى تحذراً من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك وتركوا موسى حيث التقطوه وربورهم في حبورهم وكان هو الذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم.

والمعنى: فأصابه آل فرعون وأخذوه من الميم وكان غاية ذلك أن يكون لهم عدواً وسبب حزن إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء وتحرك موسى: أرادوا أن يقضوا على من سيقتضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه ويحذون في تربيته.

وبذلك يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله إن ربي عدوهم على أيديهم ليس بسديد.

قوله تعالى: «وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون» شفاعة من امرأة فرعون وقد كانت عنده حينها جاؤا إليه بموسى - وهو طفل ملقظ من الميم - تخاطب فرعون بقوله: «قرّة عين لي ولك» أي هو قرّة عين لنا «لا تقتلوه» وإنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب ومباشر وأمر ومأمور.

وإنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تلك نفسها دون أن تدفع عنه القتل وتضمه إليها، قال تعالى فيما بين به على موسى: «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني» طه. ٣٩.

وقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » قالته لما رأت في وجهه من آثار الجلال وسياء الجذبة الإلهية ، وفي قولها : « أو نتخذه ولداً » دلالة على أنها كانت فاقدين للإبن .

وقوله : « وهم لا يشعرون » جملة حالية أي قالت ما قالت وشغفت له وصرفت عنه القتل والقوم لا يشعرون ماذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته ؟

قوله تعالى : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » الإبداء بالشيء إظهاره ، والربط على الشيء شدة وهو كناية عن التثبيت .

والمراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه وخلوه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة وأوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها .

وذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها وسبب فراغ قلبها الربط على قلبها وسبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها : « لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك » الخ .

وقوله : « إن كادت لتبدي به لولا » الخ ، « إن » مخففة من الثقيلة أي إنها قربت من أن تظهر الأمر وتفتشي السر لولا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه ، وقوله : « لتكون من المؤمنين » أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره .

والجموع أعني قوله : « إن كادت لتبدي به » إلى آخر الآية في مقام البيان لقوله : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » ومحصل معنى الآية وصار قلب أم موسى بسبب وحينا خالياً من الخوف والحزن المؤدبين إلى إظهار الأمر ، لولا أن ثبتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه .

وبما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جل الآية كقول بعضهم في « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً » أي صفرأ من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع الطافل في يد فرعون ، وقول آخرين : أي فارغاً من الوحي الذي أوحى إليها

بالنسيان ، وما قيل : أي فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغاً له . فإنها جميعاً وجوه لا يحتمل شيئاً منها السياق .

ونظير ذلك في الضعف قولهم : إن جواب لولا محذوف والتقدير لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته وأظهرته ، والوجه في تقديرهم ذلك ما قيل : إن لولا شبيهة بأدوات الشرط فلها الصدر ولا يتقدم جوابها عليها . وقد تقدمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى : « ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » يوسف : ٢٤ .

قوله تعالى : « وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » قال في الجمع : القص اتباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنه يتبع فيه الثاني الأول . وقال : ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنبه أي عن بعد . انتهى .

والمعنى : وقالت أم موسى لاخته اتبعي أثر موسى حتى ترين إلى م يؤل أمره فرأته عن بعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لا يشعرون بأنها تقصه وتراقبه .

قوله تعالى : « وحرمتنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » التحريم في الآية تكويني لا تشريعي ومعناه جمعه بحيث لا يقبل ثدي مرضع ويمتنع من ارتضاعها .

وقوله : « من قبل » أي من قبل حضورها هناك ومجيئها اليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل .

وقوله : « فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون » تفريع على ما تقدمه غير أن السياق يدل على أن هناك حذفاً كأنه قيل : وحرمتنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجيء اخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت اخته ورأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعمكم وهم له ناصحون ؟

قوله تعالى : « فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يطولون » تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق ، والمحصل أنها قالت : هل أدلكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلتم على أمه فسلموه إليها فرددناه إلى أمه بنظم هذه الأسباب .

وقوله: «كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم الخ، تعليل للرد والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق وكانت مؤمنة وإنما أريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق .

والمراد بوعد الله مطلق الوعد الالهي بدليل قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولا تطمئن اليها نفوسهم، وعصمه أن توقع بمشاهدة حقيقة هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق .

وربما يقال : إن المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقة : « إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » ولا يلائمه قوله بعد : « ولكن الخ على ما تقدم .

قوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشدد عند ذلك قواء ويكون في الغالب في الثمان عشرة ، والاستواء الاعتدال والاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الانسان في أمر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد ، وقد تقدم الكلام في معنى الحكم والعلم وإبتائها ومعنى الاحسان في مواضع من الكتاب .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض » قال : يوسف وولده .

أقول : لعل المراد بنو إسرائيل ، وإلا فظهور الآية في خلافه غير خفي .

وفي معاني الأخبار بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال : أنتم المستضعفون بعدي. قال المفضل : فقلت له : ما معنى ذلك ؟ قال: معناه أنكم الأئمة بعدي إن الله عز وجل يقول : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة .

أقول : والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة وبهذه الرواية يظهر أنها جميعاً من قبيل الجري والانطباق .
وفي نهج البلاغة : لتعطفن الدنيا عليا بعد شماسها عطف الضروس على ولدعها وتلاعقيب ذلك « وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى » إلى آخر الآية حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزبن عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنه لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظنهن وذلك أنه كان لما بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون : إنه يولد فينا رجل يقال له : موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك : لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في الهابس .

فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت اليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت : يذبح الساعة عطف الله عز وجل قلب الموكلة بها عليه فقالت لام موسى : ما لك قد اصفر لونك ؟ فقالت أخاف أن يذبح ولدي فقالت : لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه وهو قول الله : « وألقيت عليك حبة مني » .

فأحبته القبطية الموكلة بها وأنزل الله على أم موسى التابوت ، ونوديت ضعيه في التابوت فألقيه في اليم وهو البحر « ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فوضعت في التابوت وأطبقته عليه وألقته في النيل .

وكان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره - ومعه آسية امرأته - إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع اليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال : هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون حبة شديدة وكذلك في قلب آسية .

وأراد فرعون أن يقتله فقالت آسية : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً وهم لا يشعرون أنه موسى .

وفي الجمع في قوله تعالى: «قرءة عين لي ولك لا تقتلوه» الخ، عن النبي ﷺ: والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرءة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنه أبى للشقاء الذي كسبه الله عليه.

وفي المعاني بإسناده عن محمد بن نعمان الأحول عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: «فما بلغ أشده واستوى» قال: أشده ثمان عشرة سنة «واستوى» التحي.

* * *

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَضَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ — ١٥ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ — ١٦ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ — ١٧ . فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ — ١٨ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ — ١٩ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ — ٢٠ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - ٢١ .

(بيان)

فصل ثان من قصة موسى عليه السلام فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده فأدى إلى خروجه من مصر وقصده مدين .

قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » التعليل ، لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر ، وأنه كان يعيش عند فرعون ، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة وأنه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ويؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله : « وجاء من أقصى المدينة رجل يسمى » على ما ترجمي ، من الاستظهار .

« حين الغفلة من أهل للمدينة هو : حين يدخل الناس بيوتهم فتتمطل الأسواق وتخلو الشوارع والأزقة من المارة بالظهيرة وأواسط الليل .

وقوله : « فوجد فيها رجلين يقتتلان » أي يتنازعان ويتضاربان ، وقوله : « هذا من شعته وهذا من عدوه » حكاية حال تمثل به الواقعة ، ومعناه : أن أحدهما كان إسرائيلياً من متبعيه في دينه - فإن بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آباؤهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلا الاسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون - والآخر قبطياً عدواً له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ، ومن الشاهد أيضاً على كون هذا الرجل قبطياً قوله في موضع آخر مخاطب ربه : « وهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ .

وقوله : « فاستغاثه الذي من شعته على الذي من عدوه » الإستغاث : الاستنصار من الغوث بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي .

وقوله : « فوكره موسى ففضى عليه » ضميراً وكرهه ، و « عليه » للذي من عدوه والوكره - على ما ذكره الطراغيب وغيره - سألطن والدفع والضرب يجمع الكف ،

والقضاء هو الحكم والقضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته ، والمعنى : فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات ، وكان قتل خطأ ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبر بالقتل .

وقوله : « قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » الإشارة بهذا إلى ما وقع بينها من الاقتتال حتى أدى إلى موت القبطي وقد نسبة نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال : « هذا من عمل الشيطان » و « من » ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية ، والمعنى : هذا الذي وقع من المادة والاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى للشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذي أوقع العداوة والبغضاء بينها وأغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك إلى مداخلة موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم وقد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفية مكتومة وأن القبط سيثورون عليه وأشرفهم وملاؤم وعلى رأسهم فرعون سينتقمون منه ومن كل من تسبب إلى ذلك أشد الانتقام .

فعند ذلك تنبه ~~بأنه~~ أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطأ إلى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلا إلى الحق والصواب فقضى أن ذلك منسوب إلى الشيطان .

وفعله ذلك وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائيليين دفاعاً لكافر ظالم ، لكن الشيطان كما يوقع بوسوته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل للشجرة المنهية فأدى ذلك إلى خربوبتهما من الجنة .

ف قوله : « هذا من عمل الشيطان » تزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدي إلى قتل القبطي ووموعه في عظيم الخطر وتندم منه على ذلك ، وقوله : « إنه عدو مضل مبين » إشارة منه إلى أن فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان وإن لم يكن من المعصية التي فيها إثم ومواخذة بل خطأ محضاً لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين ، فكان ذلك منه سؤاً ~~الذي~~ من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة ولذا لما اعترض عليه فرعون بقوله : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت

من الكافرين « أجابه بقوله : « فعلتها إذا وأنا من الضالين » الشعراء : ٢٠ .

قوله تعالى : « قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم » اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة ، ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولة في قوله : « فاغفر لي » هو إلغاء تبعه فعله وإنجازه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملاه ، كما يظهر من قوله تعالى : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم » طه : ٤٠ .

وهذا الاعتراف بالظلم وسؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم وزوجه المحكي في قوله تعالى : « قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، الأعراف : ٢٣ .

قوله تعالى : « قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : الباء في قوله : « بما أنعمت » للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت علي ، لك علي أن لا أكون مميئاً للمجرمين فيكون عهداً منه لله تعالى وقيل : الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى : أقسم بما أنعمت علي لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، وقيل : القسم استعطائي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني ، والمعنى أقسمك أن تعطف علي وتمصني فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

والوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله : « بما أنعمت علي » - علي ما ذكره - إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون وردّه إلى أمه ، وإما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي وغفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوها وكيف كان فهو أقسام بغيره تعالى ، والمعنى أقسم بحفظك إياي أو أقسم بغيرتك لي ، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو .

وقوله : « فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : المراد بالجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدت إيعانته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأوقعت إيعانته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب الموقعت في الجرم مجرماً .

وقيل : المراد بالجرمين فرعون وقومه والمعنى : أقسم بإنعامك علي لأتوبن فلن

أكون مميئاً لفرعون وقومه بصحبتهم وملازمتهم وتكثير سوادهم كما كنت أفضله إلى هذا اليوم .

ورد هذا الوجه الثاني بأنه لا يناسب المقام .

والحق أن قوله : « رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين » عهد من موسى عليه السلام أن لا يعين مجرماً على إجرامه شكر الله تعالى على ما أنعم عليه ، والمراد بالنعمة وقد أطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى : « فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » النساء : ٦٩ .

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى : « هدانا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » الفاتحة : ٧ ، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سيرة عليه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيليين الذي أعاناه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكرز القبطي جرماً حتى يتوب عليه السلام منه كيف ؟ وهو عليه السلام من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمصيته ، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان اليهم بالإغواء حيث قال : « إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً » مريم : ٥١ .

وقد نص تعالى أيضاً آتفاً بأنه آفاه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه .

وقد كرر « قال » ثلاثاً حيث قيل : « قال هذا من عمل الشيطان » « قال رب إني ظلمت نفسي » « قال رب بما أنعمت علي » وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجمل الأولى قضاء منه وحكم ، والجمل الثانية استغفار ودعاء ، والجمل الثالثة عهد والتزام .

قوله تعالى : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين » تقييد « أصبح » بقوله : « في المدينة » دليل على أنه بقي في المدينة ولم يرجع إلى قصر فرعون ، والاستصراخ الاستفانة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح ، والغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد .

والمعنى : فأصبح موسى في المدينة - ولم يرجع إلى بلاط فرعون - والحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلي الذي استنصره على القبطي بالأمس يستفيث به رافعاً صوته على قبطي آخر قال موسى للإسرائيلي توبيحاً وتأنياً : إنك لغوي مبین لا تسلك سبيل الرشد والصواب لأنه كان يخاصم ويقتتل قوماً ليس في خاصتهم والمقاومة عليهم إلا الشر كل الشر .

قوله تعالى : « فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لها قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » إلى آخر الآية ، ذكر جل المفسرين أن ضمير « قال » للإسرائيلي الذي كان يستصرخه وذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يماثبه قبل بقوله : « إنك لغوي مبین » فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال : « يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس » الخ ، فعمل للقبطي عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسى وعزموا على قتله .

وما ذكروه في محله لشهادة السياق بذلك فلا يمبأ بما قيل : إن القائل هو القبطي دون الإسرائيلي ، هذا ومعنى باقي الآية ظاهر . وفي قوله : « أن يبطش بالذي هو عدو لها » تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعاً إسرائيليين ، وفيه أيضاً تأييد أن القائل : « يا موسى أتريد » الخ ، الإسرائيلي دون القبطي لأن سياقه سياق اللوم والشكوى .

قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائمة أتتوك بك ليقتلوك » الخ ، الاثتار المشاورة ، والنصيحة خلاف الخيانة .

والظاهر كون قوله : « من أقصى المدينة » قيداً لقوله : « جاء » فسياق القصة يعطي أن الاثتار كان عند فرعون وبأمر منه ، وأن هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصر فرعون في أقصى المدينة وخارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من المدينة .

وهذا الاستثناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين » فيه تأكيد أنه ما كان يرى قننه القبطي خطأ جرماً لنفسه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي قال : فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى عليه السلام من التوحيد حتى تم به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى والآخر يقول بقول فرعون فاستفائه الذي من شيعته فجاء موسى فوكر صاحب فرعون ففضى عليه وتوارى في المدينة .

فلما كان القد جاء آخر فتشبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستفأت بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ فخلص عن صاحبه وهرب .

وفي الميرون بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى . قال : فأخبرني عن قول الله : « فوكره موسى ففضى عليه قال هذا من عمل الشيطان » قال الرضا عليه السلام : إن موسى عليه السلام دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ففضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكره له مات ، قال : هذا من عمل الشيطان يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله « إنه » يعني الشيطان « عدو مصل مبین » .

قال المأمون : فما معنى قول موسى . « رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي » ؟ قال : يقول : وظلمت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فاغفر لي أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلونني فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال موسى : رب بما أنعمت علي من القوة حتى قتلت رجلاً بوكرة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل اجاهدهم بهذه القوة حتى ترهس .

فأصبح موسى ~~نبي~~ في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قال له موسى إنك لقويّ مبين فانتك رجلاً بالأمس وتقاتل هذا اليوم لاؤدّينك وأراد أن يبطش به فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لها وهو من شيعته قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. قال المأمون: جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن.

* * *

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ - ٢٢.
 وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ - ٢٣. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ - ٢٤. فَجَاءَهُهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ - ٢٥. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ - ٢٦. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجِرَنِي فَمَا نِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ - ٢٧.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا أَعْدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ
عَلِيٌّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ — ٢٨ .

(بيان)

فصل ثالث من قصته عليه السلام يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله
القبطي خوفاً من فرعون وتزوجه هناك بابنة شيخ كبير لم يسم في القرآن لكن تذكر
روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي
المبعوث إلى مدين .

قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أهديني سواء السبيل »
قال في الجمع : تلقاء الشيء حذاؤه ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء
داعي نفسه . وقال : سواء السبيل وسط الطريق انتهى .

ومدين — على ما في مراصد الاطلاع — مدينة قوم شعيب وهي تجاه تكووك على
بحر القازم بينها ست مراحل وهي أكبر من تكووك وبها البئر التي استقى منها موسى
لغتم شعيب عليها السلام انتهى ، ويقال : إنه كان بينها وبين مصر مسيرة ثمان ليال وكانت
خارجة من سلطان فرعون ولذا توجه إليها .

والمعنى : ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال : أرجو من
ربي أن يهديني وسط الطريق فلا أضل بالمدول عنه والخروج منه إلى غيره .

والسياق — كما ترى — يعطي أنه عليه السلام كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق
الموصلة إليها فترجى أن يهديه ربه .

قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » الخ الذود
الحبس والمنع ، والمراد بقوله : « تذودان » أنها يجبان أغنامها من أن ترد الماء أو
تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله : « يسقون » سقيهم أغنامهم ومواشيهم ،
والرعاة جمع الراعي وهو الذي يرعى الغنم .

والمعنى : ولما ورد موسى ماء 'مدين وجد على المساء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحمصان أغناتهما وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسراً عنها - حيث وجدها تزدودان الغنم وليس على غنمها رجل - : ما شأنكما؟ قالتا لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم وأبونا شيخ كبير - لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي ولذا تصدينا الأمر .

قوله تعالى : « فسقى لها ثم تولى إلى الظل وقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » فهم ~~عبيد~~ من كلامها أن تأخرهما في السقي نوع تعفف وتعجب منها وتمتد من الناس عليها فبادر إلى ذلك وسقى لها .

وقوله : « ثم تولى إلى الظل وقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » أي انصرف إلى الظل ليستريح فيه والحر شديد وقال ما قال ، وقد حمل الأكترون قوله : « رب إني لما أنزلت » الخ على سؤال طعام يسد به الجوع ، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله « ما أنزلت إلي » القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيليين والهرب من فرعون بقصد مدين وسقى غنم شعيب واللام في « لما أنزلت » بمعنى إلى وإظهار الفقر إلى هذه القوة التي أنزلها الله إليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة .

ويظهر منه أنه ~~عبيد~~ كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ولا يريد إن كان مما يقتضيه طبعه البشري إلا ابتغاء مرضاة ربه وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة فهو القائل لما وكز القبطي : رب بما أنعمت علي فلن اكون ظهيراً للمجرمين ثم القائل لما خرج من مصر خائفاً يتربص : « رب نجني من القوم الظالمين » ثم القائل لما أخذ في السلوك : « عسى ربي أن يهديني سواء السبيل » ثم القائل لما سقى وتولى إلى الظل : « رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير » ثم القائل لما آجر نفسه شعبياً وعقد على بنته : « والله على ما نقول وكيل » .

وما نقل عن بعضهم ان اللام في « لما أنزلت » للتعليل ، وكذا قول بعضهم إن المراد بالخير خير الدين وهو النجاة من الظالمين بعيد ما يطميه السياق .

قوله تعالى : « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء » الى آخر الآية . ضمير إحداهما للرأتين ، وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكون مشيها على استحياء ظهور المتعفف من مشيتها ، وقوله : « ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا ، وقوله : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف » الخ يلوّح الى ان شعيباً استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين .

وعند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجئ أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فوررد مدين ، وسأله الرزق فدعاه شعيباً ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى فكفاه رزق عشر سنين ووهب له زوجاً يسكن إليها .

قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم .

وقوله : « إن خير من استأجرت » الخ ، في مقام التعليل لقوله : « استأجره » وهو من وضع السبب موضع المسبب والتقدير استأجره لأنه قوي أمين وخير من استأجرت هو القوي الأمين .

وفي حكها بأنه قوي أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته وكذا من ظهور عفته في تكليمها وسقي أغنامها ثم في صحبته لها عندما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أماته .

ومن هنا يظهر أن هذه القائلة : « يا أبت استأجره » الخ ، هي التي جاءته وأخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وذهب اليه جمع من المفسرين .

قوله تعالى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج » الخ ، عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثماني سنين أو عشرأ

قبال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بمقد قاطع ومن الدليل عدم تعيين المقودة في كلامه عليه السلام .

فقوله : « إحدى ابنتي هاتين » دليل على حضورهما إذ ذاك ، وقوله : « على أن تأجرني ثماني حجج » أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيراً لي ثماني حجج ، والحجج جمع حجة والمراد بها السنة بضاية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام ، وبه يظهر أن حج البيت - وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام - كان معمولاً به عندهم .

وقوله : « لئن أتممت عشراً فمن عندك » أي لئن أتممت عشر سنين فهو من عندك وباختيار منك من غير أن تكون ملزماً من عندي .

وقوله : « وما أريد أن أشق عليك » إخبار عن نحو ما يريد منه من الخدمة وأنه عمل غير موصوف بالمشقة وأنه مخدوم صالح .

وقوله : « ستجدني إن شاء الله من الصالحين » أي إنني من الصالحين وستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجودان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم .
قوله تعالى : « قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل » الضمير لموسى عليه السلام .

وقوله : « ذلك بيني وبينك » أي ذلك الذي ذكرته وقررت من المشاركة والمعاهدة وعرضته عليّ ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن تخالف ما شرطناه ، وقوله : « أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ » بيان للأجل المردد المضروب في كلام شبيب عليه السلام وهو قوله : « ثماني حجج وإن أتممت عشراً فمن عندك » أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو عليّ وتزمني بالزيادة وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشراً فليس لك أن تعدو عليّ بالمنع من الزيادة .

وقوله : « والله على ما نقول وكيل » تركيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهادة تعالى على مطبقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينها إليه لو اختلفا ، ولذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة والقضاء كليهما إليه تعالى ، وهذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموتى من بنيه أن يردوا إليه ابنه فيما يحكيه الله : « فلما آتوه موتهم قال الله على ما نقول وكيل » يوسف : ٦٦ .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: وجاء من أقصى المدينة رجل يسمى قال يا موسى إن الملائكة يأتونوك فأخرج إليّ لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب من مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم تخفضه أرض وترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين .

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بشر وإذا عندها أمة من الناس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معها غنيمة لها قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمها فأخذ دلوها فقال لها : قدما غنمكما فسقى لها ثم رجعتا بكررة قبل الناس .

ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال : « ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ، فروي أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شق تمره فلما رجعتا إلى أبيها قال : ما أعجلكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا . فقال لإحداها اذهبي فادعيه لي فجاهته إحداها تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فروي أن موسى عليه السلام قال لها : وجهني إلى الطريق وامشي خلفي فإنني بمقبوب لا أنظر في أعجاز النساء ، فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانين حججاً فإن أتممت عشرآ فمن عندك فروي أنه قضى أنهما لأن الأنبياء عليهم السلام لا تأخذ إلا بالفضل والتام .

أقول : وروى ما في معناه القمي في تفسيره .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام : « ربّ إني لما أنزلت إليّ من فقير ، قال : سأل الطعام .

أقول : وروى المياثبي عن حنبل عن عليه السلام مثله ، ولفظه إنما عنى الطعام

وأيضاً عن لث. عن أبي جعفر عليه السلام مثله ، وفي نهج البلاغة مثله ولفظه والله ما سأله إلا خبزاً يأكله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لما سقى موسى للعبارتين ثم قولى إلى الظل فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير قال : إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر .

وفي تفسير القمي قال : قالت إحدى بنات شعيب : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ، فقال لها شعيب : أما قوته فقد عرفته أنه يستقي الدلو وحده فم عرفت أمانته ؟ فقالت : إنه لما قال لي : تأخري عني ودليني على الطريق فأنا من قوم لا ينظرون في أديار النساء عرفت أنه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته .

أقول : وروى مثله في المجمع عن علي بن الحسين .

وفي المجمع وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : رسائل أيتها التي قالت : إن أبي يدعوك ؟ قال : التي تزوج بها . قيل : فأبي الأجلين قضى ؟ قال : أو فاهما وأبدهما عشر سنين . قيل : فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه ؟ قال : قبل أن ينقضيه . قيل له : فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجازة شهرين أيجوز ذلك ؟ قال : إن موسى علم أنه سيتم له شرطه . قيل : كيف ؟ قال : علم أنه سيبقى حتى يفي .

أقول : وروى قضاء عشر سنين في الدر المنثور عن النبي ﷺ بعدة طرق .

وفي تفسير المياشي وقال الحلبي : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت أكان يبيع قبل أن يبعث النبي ﷺ ؟ قال : نعم وتصدقته في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليها السلام حيث تزوج : وعلى أن تأجرني ثمانين صاعاً ، ولم يقل ثمانين سنين .

* * *

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ

نَارًا قَالِ لِأَهْلِيهِ أَمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
 جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ - ٢٩ . فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِهِ
 الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ - ٣٠ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ
 وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
 الْأَمِينِينَ - ٣١ . أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
 وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
 فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ إِثْمُهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ - ٣٢ . قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ
 مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ - ٣٣ . وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
 لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ - ٣٤ .
 قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
 بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ - ٣٥ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا
 بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا
 الْأُولِينَ - ٣٦ . وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ
 وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ - ٣٧ . وَقَالَ
 فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا
 هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَانْجِعْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي

لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ - ٣٨ . وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ - ٣٩ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ
 فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ - ٤٠ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ
 إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ - ٤١ . وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ - ٤٢ .

(بيان)

فصل آخر من قصة موسى عليه السلام وقد أودع فيه إجمال قصته من حين سار
 بأهله من مدين قاصداً لمصر وبعثته بالرسالة إلى فرعون وملئه لإلجاء بني إسرائيل
 وتكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليم وتنتهي القصة إلى إيتائه الكتاب وكأنه هو
 الممدد في سرد القصة .

قوله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا »
 الخ ، المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب عليه السلام والمروي أنه قضى أطول
 الأجلين ، والإناس الإبصار والرؤية ، والجذوة من النار القطعة منها ، والاصطلاء
 الاستدفاء .

والسياق يشهد أن الأمر كان بالليل وكانت لجة شديدة البرد وقد ضلوا الطريق
 فرأى من جانب الطور وقد أشرقوا عليه نارا فأمر أهله أن يمشوا ليذهب إلى ما
 آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها ، وقد وقع
 في القصة من سورة طه موضع قوله : « لعلي آتاكم منها بخبر » الخ قوله : « لعلي آتاكم
 منها بقبس أو أجد على النار هدى » طه : ١٠ ، وهو أدل على كونهم ضلوا الطريق .
 وكذا في قوله خطاباً لأهله : « امشوا » الخ ، شهادة على أنه كان معها من يصح

معه خطاب^(١) الجمع .

قوله تعالى : « فلما أتاه نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » الخ قال في المفردات : شاطئ الوادي جانبه ، وقال : أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمي المتفرج بين الجبلين وادياً وجمعه أودية انتهى والبقعة المقطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها .

والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابا الأيسر وهو صفة الشاطيء ولا يعبأ بما قاله بعضهم : إن الأيمن من اليمين مقابل الأشام من للشؤم .

والبقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطيء الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها ، ومباركتها لشرفها بالتقريب والتكليم الإلهي وقد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى في القصة من سورة طه : « فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » طه : ١٢ .

ولا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدئة للنداء والتكليم بوجه غير أن الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائماً بها كقيام الكلام بالتكلم منا فلم تكن إلا حجاباً احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب وهو على كل شيء محيط ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » الشورى : ٥١ .

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل : إن الشجرة كانت محل الكلام لأن للكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به .

وكذا ما قيل : إن هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء عليهم السلام أن يسموا كلام الله سبحانه من غير واسطة ومبلغ . وذلك أنه كان كلاماً من وراء حجاب والحجاب واسطة وظاهر آية الشورى المذكورة آنفاً أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ .

(١) وفي التوراة الحاضرة أنه حمل معه إلى مصر امرأته وبنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابع

وقوله : « أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » أن فيه تفسيرية ، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحداية الربوبية للنافية لطلق الشرك إذ كونه رباً للعالمين جميعاً - والرب هو المالك المدبر للملكة الذي يستحق العبادة من مملوكيه - لا بدع شيئاً من العالمين يكون مربوباً لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه .

ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الاصول الثلاثة أعني التوحيد والنسوة والمعاد إذ قال : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية » الآيات طه : ١٤ - ١٦ .

قوله تعالى : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » تقدم تفسيره في سورة النمل .

قوله تعالى : « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » بتقدير القول أي قيل له : أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، وفي هذا الخطاب تأمين له ، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سررة النمل : « يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي » المرسلون » النمل : ١٠ وأنه تأمين معناه إنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء .

قوله تعالى : « اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه ، والمراد بالسوء - على ما قيل - البرص .

والظاهر أن في هذا التقييد تَمْريضاً لما في التوراة الحاضرة في هذا ^(١) الموضع من القصة : ثم قال له الرب أيضاً : ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج .

قوله تعالى : « واطم اليك جناحك من الهم » إلى آخر الآية ، الهم بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضم فالسكون الخوف ، والجناح قيل : المراد به اليد وقيل : العضد .

(١) سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٦ .

قيل : المراد بضم الجناح اليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الحوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف .

وقيل : إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي ومما جناحاه فقيل له : اضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها .

والوجهان - كما ترى - مبنيان على كون الجملة أعني قوله : « واضمم » الخ ، من تمتة قوله : « أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » وهذا لا يلائم تخلل قوله : « اسلك يدك في جيبك » الخ ، بين الجملتين بالفصل من غير عطف .

وقيل : الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه منه والحث على الجِدِّ في أمر الرسالة لئلا ينعمه ما يفشاء من الخوف في بعض الأحوال .

ولا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ نفسه سبأ الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرّج بين عضديه وجنبه كالتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي ﷺ من التواضع للمؤمنين بقوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ على بعض المعاني .

قوله تعالى : « قال رب إنني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » إشارة إلى قتله القبطي بالوكر وكان يخاف أن يقتلوه قصاصاً .

قوله تعالى : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إنني أخاف أن يكذبون » قال في المجمع : يقال : فلان رده لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره . انتهى .

وقوله : « إنني أخاف أن يكذبون » تعليل لسؤاله إرسال هارون معه ، والسياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب ولا يستطيع بيان حجته للكفة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه ومن الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله : « قال رب إنني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون » الشعراء : ١٣ .

فحصل المعنى : أن أخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي لئلا يبيّن

صدقي في دعواي إذا خاصموني إني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواي .
 قوله تعالى ، « قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما
 بآياتنا أنتا ومن اتبعكما الغالبون » شدُّ عضده بأخيه كناية عن تقويته به ، وعدم
 الوصول اليها كناية عن عدم التسلط عليها بالفعل ونحوه . كأن الطائفتين يتسابقان
 وإحداها متقدمة دائماً والآخرى لا تدر كهم بالوصول اليهم فضلاً أن يسبقوا .

والمعنى : قال سنقويك ونمنيك بأخيك هارون ونجعل لكما سلطة وغلبة
 عليهم فلا يسلطون عليكما بسبب آياتنا التي نظر كما بها . ثم قال : « أنتا ومن اتبعكما
 الغالبون » وهو بيان لقوله : « ونجعل لكما سلطاناً » الخ ، يوضح أن هذا السلطان
 يشملها ومن اتبعها من الناس .

وقد ظهر بذلك أن السلطان بمعنى القهر والغلبة وقيل : هو بمعنى الحجة والأولى
 حينئذ أن يكون قوله : « بآياتنا » متملقاً بقوله : « الغالبون » لا بقوله : « فلا يصلون
 اليكما » وقد ذكروا في الآية وجوهاً آخر لا جدوى في التعرض لها .

قوله تعالى : « فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى » الخ ،
 أي سحر موصوف بأنه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر ميمي
 وصف به السحر مبالغة .

والإشارة في قوله : « ما هذا إلا سحر مفترى » إني ما جاء به من الآيات أي
 ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحراً مختلفاً افتعله ففسده إلى الله كذباً .

والإشارة في قوله : « وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين » إلى ما جاء به من الدعوة
 وأقام عليها حجة الآيات ، وأما احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائم تكرار
 إسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في
 قوله : « فلنأتينك بسحر مثله » طه : ٥٨ ، على أن عدم معهودية السحر وعدم
 مسبقيته بالمثل لا ينفعهم شيئاً حتى يدعوه .

فالمعنى : أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم يتقل عن آياتنا الأولين أنهم اتخذوه
 في وقت من الأوقات ، ويناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى : « ربي أعلم بمن
 جاء بالهدى » الخ .

قوله تعالى : « وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار » الخ ، مقتضى السياق كونه جواباً من موسى عن قولهم : « وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى » في رد دعوى موسى ، وهو جواب مبني على التحدي كأنه يقول : إن ربي - وهو رب العالمين له الخلق والأمر - هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار وهو الذي أرسلني رسولاً جائئاً بالهدى - وهو دين التوحيد - ووعدي أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار ، والحجبة على ذلك الآيات البينات التي آتيتها من عنده .

فقوله : « ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده » يريد به نفسه والمراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها .

وقوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم : « وأورثنا الأرض نورا » من الجنة حيث نشاء ، الزمر : ٧٤ ، وإما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله : « قال موسى لقومه استمعوا لله وأصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » الأعراف : ١٢٨ ، وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة ، والثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تمليله بقوله : « إنه لا يفلح الظالمون » .

وفي قوله : « إنه لا يفلح الظالمون » ترميض لفرعون وقومه وفيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني .

قال بعض المفسرين : والوجه في عطف قوله : « وقال موسى ربي أعلم » الخ ، على قولهم : « ما هذا إلا سحر مفترى » الخ حكاية القولين ليوازن السامع بينها ليميز صحيحها من الفاسد . انتهى . وما قدمناه من كون قول موسى بغيره مسوقاً لرد قولهم أوفق للسياق .

قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » إلى آخر الآية ، فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحققة المؤيدة بالآيات المعجزة يريد أنه لم يتبين له حقيقة ما يدعوا إليه موسى ولا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من

عند الله وأنه ما علم لهم من إله غيره .

فقوله : « ما علمت لكم من إله غيري » سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله الحكيم في موضع آخر : « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » المؤمن : ٢٩ .

فمحصل المعنى : أنه ظهر للملأ أنه لم يتضح له من دعوة موسى وآياته أن هناك إلهاً هو رب العالمين ولا حصل له علم بأن هناك إلهاً غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يطلع إلى إله موسى .

وبذلك يظهر أن قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل قصر القلب فقد كان موسى ~~يتبين~~ يثبت الألوهية لله سبحانه وينفيها عن غيره وهو ينفيها عنه تعالى وينبئها لنفسه ، وأما سائر الآلهة التي كان يعبدونها هو وقومه فلا تعرض لها .

وقوله : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعة الآجر المستعمل في الأبنية ، والصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتخاذ الآجر وبناء قصر عال منه .

وقوله : « لعلي أطلع إلى إله موسى » نسب الإله إلى موسى بمعنى أنه هو الذي يدعو إليه ، والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمة والتقدير : اجعل لي صرحاً أعمد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلي أطلع إلى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع إليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس وإضلالهم .

ويمكن أن يكون المراد أن يبني له رصداً يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول أو حقيقة ما يصفه موسى ~~بأنه~~ ، ويؤيد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر : « يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً » المؤمن : ٣٧ .

وقوله : « وإني لأظنه من الكاذبين » ترق منه من الجهل الذي يدل عليه قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » إلى الظن بعدم الوجود وقد كان كاذباً في قوله هذا ولا يقوله إلا تمهياً وتعمية على الناس وقد خاطبه موسى بقوله : « لقد علمت ما أتزل

هؤلاء، إلا رب السماوات والأرض، أسرى : ١٠٢ .

وذكر بعضهم أن قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله : « قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات والأرض » يونس : ١٨ ، وأنت خير بأنه لا يلائم ذيل الآية .

قوله تعالى : « واستكبر هو وجنوده في الأرض وظنوا أنهم الينا لا يرجعون » أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع وذلك أنهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

قوله تعالى : « فأخذناه وجنوده » الخ النبذ الضرح ، واليم البحر والباقي ظاهر . وفي الآية من الاستهانة بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون » الدعوة إلى النار هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي لكونها هي التي تتصور لهم يوم القيامة ناراً يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازاً من باب إطلاق المسبب وإرادة سببه .

ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار ، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الإضلال الابتدائي في شيء .

وقيل : المراد يجعلهم أئمة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حد قوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » الزخرف : ١٩ .

وفيه أن الآية التالية على ما سيجيء من معناها لا تلائم . على أن كون العمل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلم .

وقوله : « ويوم القيامة لا ينصرون » أي لا تتألم شفاعة من ناصر .

قوله تعالى : « وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » بيان للازم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر والمعاصي لا يزال يتبعهم ضلال الكفر والمعاصي من مقتديهم ومتبعيهم وعليهم من الأوزار مثل ما للفتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم .

فآية في معنى قوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، العنكبوت : ١٣ » وقوله : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » يس : ١٢ ، وتكثير اللعنة للدلالة على تفخيمها واستمرارها .

وكذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر ويشمئز عنهم النفوس ويفر منهم الناس ولا يدنو منهم أحد وهو معنى القبح وقد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئاً كثيراً في كلامه .

(بحث روائي)

في الجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أرفأهما وأبطأهما .

أقول : وروى ما في معناه بالإسناد عن أبي ذر عنه ﷺ .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن مكرم قال : لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنها فقالت له : أي الأجلين قضى موسى ؟ الأول أو الآخر ؟ قال : الآخر .

وفي الجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرأى ناراً ، قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً .

وعن كتاب طب الأئمة بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في حديث قال : وقال الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام : « وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » يعني من غير برص .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله ممي رداً بصدقني » قال الراوي : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فكم مكث موسى عليه السلام غائباً عن أمه حتى رده الله عز وجل عليها ؟ قال : ثلاثة أيام .

قال : فقلت : فكان هارون أخا موسى عليها السلام لأبيه وأمه ؟ قال : نعم أما تسمع الله عز وجل يقول : « يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ؟ فقلت :

فأيهما كان أكثر سناً؟ قال : هارون . قلت : فكان الوحي ينزل عليها جميعاً؟ قال : كان الوحي ينزل على موسى وموسى يوحيه إلى هارون .

فقلت له : أخبرني عن الأحكام والقضاء والأمر والنهي كان ذلك اليها؟ قال : كان موسى الذي يناجي ربه ويكتب العلم ويقضي بين بني إسرائيل وهارون يختلفه إذا غاب من قومه للمناجاة . قلت : فأيهما مات قبل صاحبه؟ قال : مات هارون قبل موسى وماتا جميعاً في التيه . قلت : فكان لموسى ولد؟ قال : لا كان الولد هارون والذرية له

أقول : وآخر الرواية لا يوافق روايات آخر تدن على أنه كان له ولد ، وفي التوراة الحاضرة أيضاً دلالة على ذلك .

في جوامع الجامع في قوله تعالى : « واستكبر هو وجنوده » قال : جعلناهم فيها حكام عن ربه عز وجل : للكبرياء وداني والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في النار .

وفي الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال : إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان قال الله تبارك وتعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم . قال : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل .

(كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام)

في فصول

١ - منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي : كان عليه السلام أحد الخمسة أولي العزم الذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله : « وإد أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » الأحزاب : ٧ ، وقال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً الذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ .

ولقد امتنَّ الله سبحانه عليه وعلى أخيه في قوله : « ولقد مننَّا على موسى وهارون ، الصافات : ١١٤ وسلم عليها في قوله : « سلام على موسى وهارون ، الصافات : ١٢٠ .

وأنتى على موسى ﷺ بأجل الثناء في قوله : « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً واديناها من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ، مريم : ٥٢ ، وقال : « وكان عند الله وجيباً ، الأحزاب : ٦٩ ، وقال : « وكلّم الله موسى تكليماً ، النساء : ١٦٤ .

وذكره في جملة من ذكروهم من الأنبياء في سورة الأنعام الآية ٨٤ - ٨٨ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين وأنه فضلهم على العالمين واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم . وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم .

فاجتمع بذلك له ﷺ معنى الإخلاص والتقريب والوجاهة والإحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والإنعام وقد مرّ البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب وكذا البحث عن معنى النبوة والرسالة والتكليم .

وذكر الكتاب النازل عليه وهو التوراة فوصفها بأنها إمام ورحمة (سورة الأحقاف : ١٢) وبأنها فرغان وضياء وذكر (الأنبياء : ٤٨) وبأن فيها هدى ونور (المائدة : ٤٤) وقال : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، الأعراف : ١٤٥ .

غير أنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرّفوها واختلّفوا فيها . وقصة بختنصر وفتح فلسطين ثانياً وهدمه الهيكل وإحراقه التوراة وحشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة وثمان وثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة وثمان وثلثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانياً وكتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ وقد تقدمت الإشارة إليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح ﷺ .

٢ - قصص موسى عليه السلام في القرآن ، هو ﷺ أكثر الأنبياء ذكراً في

القرآن الكريم فقد ذكر اسمه - على ما عدوه - في مائة وستة وستين موضعاً من كلامه تعالى، وأشير إلى قصته إجمالاً أو تفصيلاً في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات، وقد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيورة عصاه نعباناً، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وإنزال المن والسلوى، وانجاس الصيون من الحجر بضرب العصا، وإحياء الموتى، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك.

وقد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه تفصيلاً من دون استيفائها في كل ما دق وجل بل بالاختصار على فصول منهاهم ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء وأهمهم.

وهذه الفصول التي فيها كليات قصصه هي: أنه تولد بمصر في بيت إسرائيلي حينما كانوا يذبجون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون وجعلت أمه إياه في تابوت وألقته في البحر وأخذ فرعون إياه ثم رده إلى أمه للإرضاع والتربية ونشأ في بيت فرعون.

ثم بلغ أشده وقتل القبطي وهرب من مصر إلى مدين خوفاً من فرعون وملته أن يقتلوه قصاصاً.

ثم مكث في مدين عند شيب النبي عليه السلام وتزوج إحدى بنتيه.

ثم لما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ثاراً وقد ضلوا الطريق في ليلة شامية فأوقفهم مكانهم وذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يمد على النار هدى فلما أتاهم ناداه الله من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلمه واجتنبه وآتاه معجزة العصا واليد البيضاء في نسج آيات واختاره للرسالة إلى فرعون وملته وإنجاه بني إسرائيل وأمره بالذهاب إليه.

فأتى فرعون ودعاه إلى كلمة الحق وأن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم وأراه آية العصا واليد البيضاء فأبى وعارضه بسحر السحرة وقد جاؤا بسحر عظيم من ثعابين وحيات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فآلفي السحرة ساجدين قالوا آمنا رب العالمين رب موسى وهارون وأصر فرعون على جهوده وهدد السحرة ولم يؤمن.

فلم يزل موسى ~~يخاطبهم~~ يدعوهم وملأه ويرهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وهم يصرّون على استكبارهم ، وكلما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالفوه إذا هم ينكثون .

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلاً فصاروا حتى بلغوا ساحل البحر فعقبهم فرعون يجنوده فلما تراهى الفريقان قال أصحاب موسى أنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فامرير بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر وأتبعهم فرعون وجنوده حتى إذا ادركوا فيها جميعاً أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم من آخريهم .

ولما أنجاهم الله من فرعون وجنوده وأخرجهم إلى البر ولا ماء فيه ولا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المن والسلوى وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبعثت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أئس مشربها فشرّبوا منها وأكلوا منها وظللهم الغمام .

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة يجبل الطور فاختر قومهم سبعين رجلاً ليسمعوا تكليمه تعالى إياه فسمعوا ثم قالوا : لئن تؤمن لك حق نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى ، ولما تمّ الميقات أنزل الله عليه التوراة وأخبره أن للسامري قد أضلّ قومه بعمده فعبدوا المعجل .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً فأحرق المعجل ونسفه في اليم وطرده السامري وقال له : اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وأما القوم فامروا أن يتوبوا ويقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم .

ثم إنهم ملئوا المن والسلوى وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وقومها وعدسها وبصلها فامروا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فحرّمها الله عليهم وابتلام بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة .

ومن قصص موسى ~~تاريخه~~ ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع ففاه إلى

جمع البحرين لقاء المبد الصالح وصحبته حتى فارقه .

٣ - منزلة هارون عليه السلام عند الله وموقفه العبودي : أشركه الله تعالى مع موسى عليها السلام في سورة الصافات في المن وإيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم وفي التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده المؤمنين (الصافات : ١١٤ - ١٢٢) وعده مرسلًا (طه : ٤٧) ونبيًا (مريم : ٥٣) وأنه من أنعم عليهم (مريم : ٥٨) وأشركه مع من عددهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان والصلاح والفضل والاجتهاد والهداية (الأنعام : ٨٤ - ٨٨) .

وفي دعاء موسى ليلة الطور : واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . طه : ٣٥ .

وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده .

ولم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للبيقات وقال لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً وقد عبدوا العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

٤ - قصة موسى عليه السلام في التوراة المحاضرة : قصته عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهي : سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصته عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته وما أوحى إليه من الشرائع والأحكام .

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة .

ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين

قبل أن يسير بأهله وذلك حين كان يرعى غنم يثرون^(١) حمية كاهن مديان فشق النغم إلى وراه للبرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط 'عليقة فناداه الله وكلمه بما كلمه وأرسله إلى فرعون لانجاء بني اسرائيل^(٢) .

ومنها ما ذكرت أن فرعون الذي أرسل اليه موسى غير فرعون الذي أخذ موسى ورباه ثم هرب منه موسى لما قتل للقبطي خوفاً من القصاص^(٣) .

ومنها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتي الدم والضفادع فأثروا بسحرهم مثل ما أتى به موسى ~~تلقفتها~~ معجزة^(٤) .

ومنها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبده هو هارون النبي أخو موسى عليها السلام وذلك أنه لما رأى للشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقتلوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا (موسى) الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لانم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقرط الشعب التي في آذان نسائكم وبنسك وبناتكم وأثوني بها .

فزع كل الشعب أقرط الذهب التي في آذانهم وأثوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل فصبغه عجلاً... كما فذلوا أهذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر^(٥) .

وفي الآيات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه ~~تلقفتها~~ غير خفية على المتدبر فيها .

وهناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصة قتل القبطي أن

(١) تسمى التوراة أبا زوجة موسى يثرون كاهن مديان .

(٢) الاصحاح الثالثة من سفر الخروج .

(٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثاني . الآية ٢٣ .

(٤) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج .

(٥) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

المتضاربين ثانياً كانا جميعاً إسرائيليين (١)

وأيضاً وقع فيها أن الذي ألقى العصا فتلقت حيات الصحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى (٢).

وأيضاً لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلاً للبيقات ونزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده .

وأيضاً فيها أن الألواح التي كانت مع موسى لما نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما لوحا الشهادة (٣) . إلى غير ذلك من الاختلافات .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ - ٤٣ . وَمَا كُنْتَ
بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ - ٤٤ .
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ - ٤٥ . وَمَا كُنْتَ
بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ - ٤٦ . وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

(١) الاصحاح الثاني من سفر الخروج .

(٢) الاصحاح السابع من سفر الخروج .

(٣) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - ٤٧ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ - ٤٨ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٤٩ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ - ٥٠ . وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ - ٥١ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ - ٥٢ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ - ٥٣ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَإِنَّمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ - ٥٤ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ - ٥٥ . إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ - ٥٦ .

(بيان)

سياق الآيات يشهد أن المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره ﷺ وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو

مصدق للتوراة فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة وأنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » .

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا : إن القرآن سحر والتوراة سحر مثله « سحران تظاهرا » « وإنا بكل كافرين » فأعرض الكتابيون عنهم وقالوا : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .

هذا ما يلوح إليه الآيات الكريمة بسياقها ، وهو سبحانه لما ساق قصة موسى عليه السلام وأنبأ أنه كيف أظهر قوماً مستضعفين معذبين يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم رباه في حجر عدوه الذي يذبح بأمره الألواف من أبناءهم ثم أخرجه لما نشأ من بينهم ثم بعثه وردّه اليهم وأظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين وأنجا شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين .

عطف القول على الكتاب السماوي الذي هو المتضمن للدعوة وبه تم الحجة وهو الحامل للتذكرة فذكر أنه أنزل التوراة على موسى عليه السلام بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم .

وكذا أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن وقص عليه قصص موسى عليه السلام ولم يكن هو شاهداً لنزول التوراة عليه ولا حاضراً في الطور لما ناداه وحكاه ، وقص عليه ما جرى بين موسى وشيب عليها السلام ولم يكن هو ثانياً في مسدين يتلو عليهم آياته ولكن أنزله وقص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قوماً ما أتاهم من نذير من قبله لأنهم بسبب كفرهم فسوقهم في معرض نزول العذاب وإصابة المصيبة فلم ينزل الكتاب ولم يبلغ الدعوة لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك وكانت الحجة لهم على الله سبحانه .

فلما جاءهم الحق من عنده ببينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن قالوا : لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدهوه فقال المشركون : سحران تظاهرا يعنون التوراة والقرآن ، وقالوا إنا بكل كافرين .

ثم لئن سبحانه نبيه ﷺ الحجة عليهم بقوله : « قل فأترا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين » أي إن من الله اجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحق وتم به الحجة على الناس وهم يعرفون فإن لم تكن التوراة والقرآن كتابي هدى وكافيين هداية الناس فهناك كتاب هو أهدى منها وليس كذلك إذ مسا في الكتابين من المعارف الحقة مؤيدة بالإعجاز وبدلالة البراهين العقلية . على أنه ليس هناك كتاب سماوي هو أهدى منها فالكتابان كتابا هدى والقوم في الإعراض عنها متبعون لهوى ضالون عن الصراط المستقيم وهو قوله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » الخ .

ثم مدح سبحانه قوماً من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبي ﷺ والقرآن فأظهروا لهم الإيمان والتصديق وأعرضوا عن لغو القول الذي جهههم به .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس » الخ ، اللام للقسمة أي أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بروحيه اليه .

وقوله : « من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كهقوم نوح ومن بعدهم من الأمم المهلكة ولعل منهم قوم فرعون ، وفي هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندرا من معالم الدين الإلهي بمضي الماضي ولبشار في الكتاب الإلهي إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لإيات الله ليحتمر به المضربون ويذكروا به المتذكرون .

وقوله : « بصائر للناس » جمع بصيرة بمعنى ما يبصر به وكان المراد بها الحجج البينة التي يبصر بها الحق ويميز بها بينه وبين الباطل ، وهي حال من الكتاب وقيل : مفعول له .

وقوله : « وهدى » بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله : « ورحمة » بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر ، وقيل : كل منها مفعول له .

والعنى : وأقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا

الأجبال الأولى فانتصت الحكمة لجديده الدهوة والإنذار حال كون الكتاب صحيحاً بئسما
 يعصرها الناس المعارف الخفة وهدى يتدرون به إليها ورخصة برعون بسبب العمل
 بشرائمه وأحكامه لهمم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت
 من الشاهدين » الخطاب للنبي ﷺ ، والغربي صفة محذوفة الموصوف والمراد جانب
 الوادي الغربي أو جانب الجبل الغربي .

وقوله : « إذ قضينا إلى موسى الأمر » كأن القضاء مضمّن معنى العهد ، والمراد
 بعهد الأمر إليه - على ما قيل - إحكام أمر نبوته بإزالة التوراة إليه وأما العهد إليه
 بأصل الرسالة فيدلّ عليه قوله بعد : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وقوله :
 « وما كنت من الشاهدين » تأكيد لسابقه .

والمعنى : وما كنت حاضراً وشاهداً حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب
 الغربي من الوادي أو الجبل .

قوله تعالى : « ولكننا أنشأنا قروناً فنطاول عليهم العمر » تطاول العمر تمادي
 الأمد والجملة استدراك عن النفي في قوله : « وما كنت بجانب الغربي » ، والمعنى :
 ما كنت حاضراً هناك شاهداً لما جرى فيه ولكننا أوجدنا أجيالاً بعده فتمادى بهم الأمد
 ثم أنزلنا عليك قصته وخبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيحاس بالحذف لدلالة
 المقام عليه .

قوله تعالى : « ومما كلفنا لأوليا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا
 مرسلين » الشاوي المقيم يقال : نوى في المكان إذا أقام فيه ، والضمير في « عليهم »
 لشركي مكة الذين كان النبي ﷺ يتلو عليهم آيات الله التي نقص ما جرى على موسى
 ﷺ في مدين زمن كونه فيه .

وقوله : « ولكننا كنا مرسلين » استدراك من النفي في صدر الآية .

والمعنى : وما كنت مقيماً في أهل مدين - وهم شيب وقومه - مشاهداً لما
 جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبيره هناك ولكننا كنا مرسلين
 لك إلى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم .

قوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك » إلى آخر الآية ، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا ، الخ » ، أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آانس فيها من جانب الطور ناراً .
 وقوله : « ولكن رحمة من ربك » الخ ، استدراك عن النفي السابق ، والظاهر أن « رحمة » مفعول له ، والاتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « من ربك » للدلالة على كمال عنايته تعالى به ﷺ .

وقوله : « لتندر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم ومن يقارنهم من آباؤهم فإن العرب خلت فيهم رحل منهم كهود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام .
 والمعنى : وما كنت حاضراً في جانب الطور إذ نادينا موسى وكلثمناه واخترتناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد ولكن لرحمة منا أخبرناك بها لتندر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون .

قوله تعالى : « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا ، الخ » المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية ، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة ، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الأعراف : ٩٦ وغيره .

وقوله : « فيقولوا ربنا لولا أرسلت ، متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول وجواب لولا محذوف لظهوره والتقدير : لما أرسلنا رسولا .

ومحصل المعنى : أنه لولا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنهم يقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبج آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين .

قوله تعالى : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ،

الخب ، أي فإرسلنا إليهم الرسول بالحق وأنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا والظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول وهو القرآن النازل على النبي ﷺ .

والمراد بقولهم : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » أي لولا أوتي النبي ﷺ مثل التوراة التي أوتيتها موسى عليه السلام ، وكأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » الفرقان : ٣٢ .

وقد أجاب الله عن قولهم بقوله : « أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » يعنون القرآن والتوراة « وقالوا إنا بكل كافرين » . والفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين والثاني كفر بأصل النبوة ولعله الوجه لتكرار « قالوا » في الكلام .

قوله تعالى : « قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين » تفريع على كون القرآن والتوراة سحرين تظاهرا ، ولا يصح هذا التفريع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم ويجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما ، وهو كذلك على ما تبين بقوله : « ولولا أن تصيبهم مصيبة » الخ ، أن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب ويرسل إليهم الرسول ، ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منها ليتبعه .

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلين لا هدى فيها حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتيون به أهدى منها - لاستزام صيغة التفضيل اشتراك المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف - لكن المقام لما كان مقام الحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليات بكتاب يزيد عليها في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منها .

والقرآن الكريم وإن كان يصرح بتسرب التحريف والخلل في التوراة الحاضرة وذلك لا يلائم عدتها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى عليه السلام وهي التي يصدقها القرآن .

على أن موضوع الكلام هما معاً والقرآن يقوم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فيها معاً هدى لا كتاب أهدى منها .

وقوله : « إن كنتم صادقين » أي في دعوى أنها سحران تظاهرا .

قوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » إلى آخر الآية ، الاستجابة والإجابة بمعنى واحد ، قال في الكشاف : هذا الفعل يتمدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ، ويحذف الدعاء إذا عدّي إلى الداعي في الغالب فيقال : استجاب الله دعاءه أو استجاب له ، ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه . انتهى .

فقوله : « فإن لم يستجيبوا لك » تفريع على قوله : « قل فأتوا بكتاب هو أهدى منها أتبعه » أي فإن قلت لهم كذا وكنتمهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة وتعيّن أن لا هدى أتمّ وأكمل من هداهم وهم مع ذلك يرمونها بالسحر ويعرضون عنها فاعلم انهم ليسوا في طلب الحق ولا بصدد اتباع ما هو صريح حجة العقل وإنما يتبعون أهواءهم ويدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل : « سحران تظاهرا ، « إنا بكل كافرين » .

ويمكن أن يكون المراد بقوله : « إنما يتبعون أهواءهم » انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منها وهم غير مؤمنين بها فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء ولا يمتقدون بأصل النبوة وأن هـ ديناً سماوياً نازلاً عليهم من طريق الوحي وخليهم ان يتبعوه ويسلكوا مسلك الحياة يهدى ربهم ، وربما أيد هذا المعنى قوله بعد : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » الخ .

وقوله : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » استفهام إنكاري والمراد به استنتاج انهم ضالون ، وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق وانحراف عن صراط الرشد وذلك ظلم والله لا يهدي القوم الظالمين وغير المهتدي هو الضال .

ومحصل الحجة انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منها وليسوا مؤمنين بها فهم متبعون للهوى ، ومتبع الهوى ظالم والظالم غير مهتد وغير المهتدي ضال فهم ضالون .

قوله تعالى : « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » التوصليل تفصيل من

الوجهي يفيد التكبير كالتقطيع والتططيع والقتل والتقتيل ، والضمير لمشركي مكة والمعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولاً ببعضه ببعض : الآية بعد الآية ، والسورة إثر السورة من وعد ووعيد ومعارف وأحكام وقصص وعبر وحكم ومواعظ لعلمهم بتذكرون .

قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » الضميران للقرآن وقيل : للنبي ﷺ . والأول أوفق للسياق ، وفي الآية وما بعدها مدح طائفة من مؤمني أهل الكتاب بعد ما تقدم في الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة .

وسياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء المدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعجب بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم .

قوله تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا » الخ ، ضمائر الأفراد للقرآن ، واللام في « الحق » للعهد والمعنى وإذا يقرأ القرآن عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق الذي نعهد من ربنا فإنه عرفناه من قبل .

وقوله : « إنا كنا من قبله مسلمين » تعليل لكونه حقاً معهوداً عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو إليه ويسميه إسلاماً .

وقيل : الضميران للنبي ﷺ وما تقدم أوفق للسياق ، وكيف كان فهم يعنون بذلك ما قرؤوه في كتبهم من أوصاف النبي ﷺ والكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجسدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » الأعراف : ١٥٧ ، وقوله : « أولم يكن لهم آية أن يعطه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ .

قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة » الخ في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا ومدح لهم على حسن سلوكهم ومداراتهم مع جملة المشركين ولذا كانت الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابتهم وأجر الإيمان بالقرآن وصبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيها من كلفة مخالفة الهوى .

وقيل : المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفار ومحمل المشاق وقد عرفت ما يؤديه السياق .

وقوله **وَرَوَّيْتُمُوهَا بِالْحِسْنَةِ السَّيِّئَةِ** ، الخ البرء الدفع ، والمراد بالحسنة والسَّيِّئَةِ قبل : الكلام الحسن والكلام القبيح ، وقيل : العمل الحسن والسيء وهما المعروف والمنكر ، وقيل : الخلق الحسن والسيء وهما الحلم والجهل ، وسياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمدارة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ، المراد باللفو لفظ الكلام بدليل تعلقه بالسمع ، والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سبّ وكل ما فيه خشونة ، ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهو متاركة ، وقوله : **وَإِذَا سَمِعُوا** أي أمان منكم ، وهو أيضاً متاركة وتوديع تكرر ما كما قال تعالى : **وَإِذَا خَاطَبْتُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** .

وقوله : **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** ، أي لا نبتغي الجاهلين ، أي لا نطلبهم بمعاشرته ومجالسته ، وفيه تأكيد لما تقدمه ، وهو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيء بالسيء .

قوله تعالى : **وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ، المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب ومرجه إلى إفاضة الإيمان على القلب ومعلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد ، وليس المراد به إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنتفيعه عنه ، والمراد بالاهتداء قبول الهداية .

لما بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين وهم قوم النبي ﷺ من نعمة الهداية وضلالهم باتباع الهوى واستكبارهم عن الحق للنزائل عليهم وإيمان أهل الكتاب به واعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء وهم من غير قومك الذين تدعوم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الذين تحب اهتداهم وهو أعلم بالمتدين .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي

صبيد الخديري قسائل : قال رسول الله ﷺ : ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعدنا من السماء منذ أنزل للتوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قرده . ألم ترَ إلى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » ؟

أقول : وفي دلالة الآية على الإهلاك بخصوص المذاب الساوي ثم انقطاعه بزول التوراة خفاء .

وفيه في قوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » الآية ، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجياً قال : أي رب هل أحد أكرم عليك مني ؟ قربتني نجياً وكلمتني تكليماً . قال : نعم ، محمد أكرم عليّ منك . قال : فإن كان محمد أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل ؟ فقلت لهم البحر وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطمعتهم المن والسوى . قال : نعم ، أمة محمد أكرم عليّ من بني إسرائيل . قال : إلهي أرينيهم . قال : إنك لن تراهم وإن شئت أسمعك صوتهم . قال : نعم إلهي .

فنادى ربنا أمة محمد : أجيوا ربكم ، فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام امهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبئسك أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً . قال : صدقتم وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً قد ظفرت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة .

قال ابن عباس : فما بعث الله محمداً ﷺ أراد أن يمنّ عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته فقال : يا محمد « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » .

أقول : ورواه فيه أيضاً بطرق أخرى عن غيره ، وروى هذا المعنى أيضاً للصدوق في العيون عن الرضا عليه السلام لكن حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق وفساد ارتباط الجمل المتقدمة والمتأخرة بعضها ببعض .

وفي البصائر بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل : « ومن أضلّ ممن اتّبع هواه بغير هدى من الله » ، يعني من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى .

أقول : وروى مثله بإسناده عن الملقى عن أبي عبد الله عليه السلام وهو من الجري أو من البطن .

وفي الجمع في قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب » الآيات ، نزل قوله : « الذين آتيناهم الكتاب » وما بعده في عبدا لله بن سلام وقيم الداري والجارود والمبدي و سلمان الفارسي فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات . عن قتادة .

وقيل : نزلت في أربعين رجلا من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي عليه السلام قبل مبثته إثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام منهم بجيرا وأبرهة والأشرف وأمين وإدريس ونافع وقيم .

أقول : وروى غير ذلك .

وفيه في معنى قوله تعالى : « ويدرون بالحسنة السيئة » وقيل : يدفعون بالحلم جهل الجاهل . عن يحيى بن سلام ، ومعناه يدفعون بالمدارة مع الناس أذاهم عن أنفسهم ، وروى مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا عماء قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن يعيرني قريش يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليك فأنزل الله عليه : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » .

أقول : وروى ما في معناه عن ابن عمر وابن المسيب وغيرها ، وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضة على إيمانه والمنقول من اشعار مشعون بالإقرار على صدق النبي صلى الله عليه وآله وحقية دينه ، وهو الذي آوى النبي صلى الله عليه وآله صغيراً وحماه بعمد البعثة وقبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين والأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة .

* * *

وَقَالُوا إِن نَّبَّعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُنَخَّطَفُ مِنَّا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ

لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ - ٥٧ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ - ٥٨ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ - ٥٩ . وَمَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَتَنَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ - ٦٠ . أَفَنَزَّ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ - ٦١ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ - ٦٢ . قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ - ٦٣ . وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ - ٦٤ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ - ٦٥ . فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ - ٦٦ . فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ - ٦٧ . وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ - ٦٨ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ - ٦٩ .

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ٧٠ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ - ٧١ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ - ٧٢ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - ٧٣ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ - ٧٤ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ - ٧٥ .

(بيان)

تذكر الآيات عذراً آخر ما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرم السابق : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ، وردته وهو قومه : إن آمننا بما جاء به كتابك من الهدى وهو دين التوحيد مُحطَفْنَا مشركو العرب من أرضنا بالقتل والسبي والنهب وسلب الأمن والسلام .

فرده تعالى بأننا جعلنا لهم حرماً آمناً يحترمه العرب ويحبي إليه ثمرات كل شيء فلا موجب لحوقهم من تحطفتهم .

على أن تتممهم بالأموال والأولاد وبطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجحوه على اتباع الهدى فكمن قرية بطرت معيشتها أهلكتها الله واستأصلها وورثها فنلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا .

على أن الذي يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة ولا يختاره كعاقل على الحياة الآخرة الخالدة التي عند الله سبحانه .

على أن الخلق والأمر له فإذا اختار شيئاً وأمر به فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهيه لنفسه فيختار ما يميل إليه طبعه ثم استشهد تعالى بقصة قارون وخسفه به وبداره الأرض .

قوله تعالى : « وقالوا إن نتبّع الهدى معك نتخطف من أرضنا » إلى آخر الآية . التخطف الاختلاس بسرعة ، وقيل الخطف والتخطف الاستلاب من كل وجه ، وكان نخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل والسبي ونهب الأموال كأنهم وما يتعلق بهم من أهل ومال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم ، والمراد بالأرض أرض مكة والحرم بدليل قوله بعد : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً » والقائل بعض مشركي مكة .

والجملّة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا نخطفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقيقة أصل الدعوة وأن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله والإيمان به ، ولهذا عبر بقوله : « إن نتبّع الهدى معك » ولم يقل : إن نتبّع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك .

وقوله : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً » قيل : التمكين مضمّن معنى الجعل والمعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم ، وقيل : حرماً منصوباً على الظرفية والمعنى : أو لم نمكّن لهم في حرم ، و « آمناً » صفة « حرماً » أي حرماً ذا أمن ، وعدّ الحرم ذا أمن - والمتلبّس بالأمن أهله - من المجاز في النسبة ، والجملّة معطوفة على محذوف والتقدير أو لم نمصمهم ونجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم .

وهذا جواب أول منه تعالى لقولهم : « إن نتبّع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومحصله : أنا ممكّناهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لحوقهم أن يتخطفوا منها إن آمنوا .

وقوله : « يجبي إليه ثمرات كل شيء » الجباية الجمع ، والكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعاً ، والمعنى : يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء ، والجملّة

صفة لحرماً جسيماً بها لما عسى أن يتوهم انهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة .

وقوله : « رزقاً من لدنا » مفعول مطلق أو حال من ثمرات ، وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » استدراك عن جميع ما تقدم أي إننا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام .

قوله تعالى : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » إلى آخر الآية البطر الطغيان عند الذممة ، و « معيشتها » منصوب بنزع الخافض أي وكم أهلكنا من قرية ظفت في معيشتها .

وقوله : « فتلك مساكنهم لم تكن من بعدهم إلا قليلاً » أي إن مساكنهم الحزبية الحاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر ولم تكن بعد هلاكهم إلا قليلاً منها .

وبذلك يظهر أن الأنسب كون « إلا قليلاً » استثناء من « مساكنهم » لا من قوله : « من بعدهم » بأن يكون المعنى لم تكن من بعدهم إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا الماوية يوماً أو بعض يوم في الأسفار .

وقوله : « وكننا نحن الوارثين » حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن وورثناهم مساكنهم ، وفي الجملة أعني قوله : « كنا نحن الوارثين » عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكاً حقيقياً مطلقاً فهو المالك لمساكنهم وقد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثاً لهم بعناية أنه الباقي بعدهم وهو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتباري انتقل إليه ولا انتقال هناك بالحقيقة وإنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري .

والآية جواب ثان منه تعالى لقولهم : « إن نبيع الهدى معك نتخطف من أرضنا » وحصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء ولا يحفظ لكم أرضكم والتنعم فيها كما تشاؤون فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشرف واطر أهلكت أهلها وبقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله .

قوله تعالى : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا » أم القرى هي أصلها وكبيرتها التي ترجع إليها وفي الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال وهو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجّة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله ، وإلا بعد كون المذبذبين ظالمين بالكفر بآيات الله وتكذيب رسوله .

وفي تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنته تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء إلى أنهم لو أصروا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم وهي مكة رسولا يتلو عليهم آياته وهم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسوله .

وبذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « وما كان ربك مهلك القرى » فإن في الإيماء إلى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذبوا النبي ﷺ تقوية لنفسه وتأكيذاً لحجته ، وأما العدول بعده إلى سياق التكلم بالغير في قوله : « وما كنا مهلكي القرى » فهو رجوع إلى السياق السابق بعد قضاء الوطر .

قوله تعالى : « زما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخ الإيتاء : الإعطاء و « من شيء » بيان لما لافادة العموم أي كل شيء أوتيتموه ، والمتاع ما يتمتع به والزينة ما ينضم إلى الشيء ليفيده جمالاً وحسناً ، والحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحياتين منا وتقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة ، والمراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله وجواره ولذا عدّ خيراً وأبقى .

والعنى : أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع وزينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحياتين منكم وهي بائدة فانية وما عند الله من ثوابه في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى والإيمان بآيات الله خير وأبقى فينبغي أن تؤثره على متاع الدنيا وزينتها أفلا تعلقون .

والآية جواب ثالث عن قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا وزينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع

الهدى وسعادة الحياة الآخرة وهي خير وأبقى .

قوله تعالى : « أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » الآية إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة - وهو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه والتمتع بمتاع الحياة الدنيا - بيان آخر فيه مقايضة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله ، من حال من لم يتبعه واقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة الإحضرار وتبيري آلهته منه وعدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب والسؤال عن إجابتهم الرسل .

فقوله : « أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه » الاستفهام إنكاري ، والوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » المائدة : ٩ ، ولا يكذب وعده تعالى قال : « ألا إن وعد الله حق » يونس : ٥٥ .

وقوله : « كمن متناه متاع الحياة الدنيا » أي وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها ، والدليل على هذا التقييد الهائلة بين الوعد والتمتع .

وقوله : « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » أي للعذاب ، أو للسؤال والمؤاخذه وه ثم " للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله : « فهو لآقيه » للدلالة على التحقق .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا وكونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شؤونه تعالى كالعبادة والتدبير ، وفي قوله : « يناديهم » إشارة إلى بعدهم وخذلانهم يومئذ .

قوله تعالى : « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا » آلهتهم الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كاللائكة المقربين وعيسى بن مريم عليه السلام ، وصنف منهم كعتاة الجن ومدعي الألوهية من الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما وقد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع في باطل

كإبليس وقرناء الشياطين وأئمة الضلال كما قال: ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان - الى أن قال - ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ، يس : ٦٢ ، وقال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، الجاثية : ٢٣ ، وقال : « اتخذوا أعبادهم وربانهم أرباباً من دون الله ، التوبة : ٣١ .

والذين يشير اليهم قوله : « قال الذين حق عليهم القول ، هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم وتبرجهم من عبادتهم وهؤلاء المشركون وإن كانوا أنفسهم أيضاً ممن حق عليهم القول كما يشير اليه قوله : « حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ألم السجدة : ١٣ ، ولكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبعون منهم الذين ينتهي اليهم الشرك والضلال .

وإيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسؤولين أشاروا اليهم لعله للإشارة الى انهم ضلوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى : « ويوم يناديهم أين شركائهم قالوا آذناك ما منا من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، حم السجدة : ٤٨ .

وقوله : « ربنا هؤلاء الذين غويونا ، اي هؤلاء - يشيرون الى المشركين - هم الذين أغوياناهم والجملة توطئة للجملة التالية .

وقوله : « أغوياناهم كما غوينا ، اي كلنت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلهاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير إلهاء ، والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ اذ قال : « وما كان لي عليكم من سلطان . إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، إبراهيم : ٢٢ ، وقال حاكياً لتساؤل الظالمين وقرنائهم : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين فعق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين ، الصافات : ٣٣ ، أي ما كان ليصل اليكم منا ونحن غاوين غير الغواية .

ومن هنا يظهر أن لغوهم : « أغوياناهم كما غوينا ، معنى آخر ، وهو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذي كان فينا غير أننا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلهاء .

وقوله : « تبرأنا اليك » تبرأ منهم مطلقاً حيث لم يكن لهم أن يلجؤم ويسلبوا منهم الاختيار ، وقوله : « ما كانوا إيانا يعبدون » أي بإلجاء مناسا ، أو لتبرئتنا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب اليه ، وإلى هذا المعنى يقول قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا الموقف : « وصل عنهم ما كانوا يفترون » ، الأتعام : ٢٤ ، « وصل عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة : ٤٨ ، « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيتنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون » يونس : ٢٨ ، إلى غير ذلك من الآيات فافهم .

وقيل : المعنى تبرأنا اليك من أعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين ، ولا يخلو من سخافة .
ولكون كل من قوله : « تبرأنا اليك » ما كانوا إيانا يعبدون ، في معنى قوله : « أغويانهم كما غوينا » جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : « وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون » المراد بشركائهم الآلهة التي كانوا شركاء لله بزعمهم ولذا أضافهم اليهم . والمراد بهم دعوتهم إياهم لينصروهم ويدفعوا عنهم العذاب ولذا قال : « ورأوا العذاب » بعد قوله : « فلم يستجيبوا لهم » .

وقوله : « لو أنهم كانوا يهتدون » قيل : جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق ، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » مطوف على قوله السابق : « ويوم يناديهم » الخ ، سئلوا أولاً : عن شركائهم وأمرؤا أن يستنصروهم ، وثانياً : عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند الله .

والمعنى : ماذا قلتم في جواب من أرسل اليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ؟

قوله تعالى : « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » العمى استعارة عن

جعل الإنسان بحيث لا يهتدي إلى خبر ، وكان مقنضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا إلى الأنبياء لكن عكس الأمر فقبل : « فعميت عليهم الأنبياء » للدلالة على أخذهم من كل جانب وسد جميع الطرق ونقطع الأسباب بهم كما قال : « وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ ، فليسقط الأسباب عن التأثير يومئذ لا يهتدي اليهم الأخبار ولا يجدون شيئاً يعتدرون به للتخلص من العذاب .

وقوله : « فهم لا ينشأون » تفرّج على عمى الأنبياء من قبيل تفرّج بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضاً ليمدوا به عنراً يعتدرون به عن تكذيبهم الرسل وردّهم الدعوة .

وقد فسر صدر الآية وذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى في التعرض لها فرأينا الصفح عنها أولى .

قوله تعالى : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فمسي أن يكون من المفلحين » أي هذه حال من كفر ولم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع وآمن وعمل صالحاً فن المرجو أن يكون من المفلحين ، وعسى - كما قيل - للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب ، والمعنى : فليتوقع الفلاح .

قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير .
والآية جواب رابع عن قولهم : « إن ذئب الهدى مملك تنخطف من أرضنا » والذي يتضمنه حجة قاطعة .

بيان ذلك : أن الخلق وهو الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى كما قال : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك بلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشيء المفروض إما مخلوق له منته في وجوده إليه فوجوده وآثار وجوده ينتهي إليه تعالى ولا معنى لتأثير الشيء ولا لتأثير أثره في نفسه وإما غير مخلوق له ولا منته في وجوده إليه يؤثر فيه بالإلجاء والقهر ولا مؤثر في الوجود غيره ولا أن هناك شيئاً لا ينتهي في وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أترا ولا يمنعه شيء من أثر كما قال : « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وقال :
والله غالب على أمره ، يوسف : ٢١ .

وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبناه فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها وترك أمور هي المحرمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب إليه وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه .

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء ، وهذا معنى قوله : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » وقد أطلق إطلاقاً .

والظاهر أن قوله : « يخلق ما يشاء » إشارة إلى اختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عما يشاءه وبعبارة أخرى لا يمنع عن مشيئته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه ، وقوله : « ويختار » إشارة إلى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله : « يخلق ما يشاء » من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعاً على التكوين والحقيقة .

ويمكن حمل قوله : « يخلق ما يشاء » على الاختيار التكويني وقوله : « ويختار » على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه ، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي : « ما كان لهم الحيرة » هو الاختيار التشريعي الاعتباري ، والاختيار المثبت في قوله « ويختار » يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري .

ثم لا ريب في أن الإنسان له اختيار تكويني بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والارادة وإن لم يكن اختياراً مطلقاً فإن للأسباب وللملل الخارجية دخلاً في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلاً متوقف على تحقق مادة الطعام خارجاً وقابليته وملامته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ والقبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك مما لا يحصى . فصدور الفعل الاختياري عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الداخلية في تحقق فعله ، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعاً وإليه ينتهي الكل وهو الذي خلق الإنسان ممنوناً بنمت الاختيار وأعطاه خيره كما أعطاه خلقه .

ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختياراً تشرعياً اعتبارياً فيما يشاؤه من فعل أو ترك مجذاه اختياره التكويني فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمله على شيء أو يمنعه عن شيء لكونهم أمثالاً له لا يزيدون عليه بشيء في معنى الإنسانية ولا يملكون منه شيئاً ، وهذا هو المراد بكون الإنسان حراً بالطبع .

فالإنسان مختار في نفسه حر بالطبع إلا أن يملك غيره من نفسه شيئاً فيسلب نفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعي يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعه بدخوله في المجتمع وإمضائه ما يجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية ، وكما أن المتقاتلين يملك كل منهما الآخر من نفسه ما يوجب عليه فللغالب .منها أن يفعل بأسيره ما يشاء ، وكما أن الأجير إذا ابتاع عمله وأجر نفسه فليس يجر في عمله إذ المملوكية لا تجامع الحرية .

فالإنسان بالنسبة إلى سائر بني نوعه حر في عمله مختار في فعله إلا أن يسلب باختيار منه شيئاً من اختياره فيملك غيره ، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر منه ملكاً مطلقاً بالملك التكويني وبالملك الوضعي الاعتباري فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريد منه تشرعياً بأمر أو نهي تشرعيين كما لا خيرة ولا حرية له بالنسبة إلى ما يشاؤه بمشيئته التكوينية .

وهذا هو المراد بقوله : « ما كان لهم الخيرة » أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب : ٣٦ ، وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطولات .

وقوله : « سبحانه الله وتعالى عما يشركون » أي عن شركهم باختيارهم أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله .

وهنا معنى آخر أدق أي تنزهه وتعالى عن شركهم بإدعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في

الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الألوهية .

وفي قوله : « وربك يخلق » التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكته فيه تأييد النبي ﷺ وتقويته وتطبيب نفسه بإضافة صفة الرب إليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله وردده ، ولأنهم لا يقبلون ربوبيته .

وفي قوله : « سبحان الله » وضع الظاهر موضع المضمز والنكته فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتزوه والتعالي عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال وينزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه .

قوله تعالى : « وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » الإكناح الإخفاء والإعلان الإظهار ، ولكون الصدر يمد مخزناً للأمرار نسب الإكناح إلى الصدور والإعلان اليهم أنفسهم .

ولعل تمقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لهم ، في ظاهريهم وبإدبارهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته .
قوله تعالى : « وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع إلى « ربك » في الآية السابقة ، والظاهر عن هذا أن اللام في اسم الجلالة للتفخيم إلى معنى الوصف ، وقوله : « لا إله إلا هو » تأكيد للحصر المستفاد من قوله : « هو الله » كأنه قيل : وهو الإله - المتصف وحده بالألوهية - لا إله إلا هو .

وعلى ذلك فالآية كالتيم لبيان الآية السابقة كأنه قيل : هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده ، وهو يعلم ظاهريهم وباطنيهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده ، وهو الإله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده .

ويكون ما في ذيل الآية من قوله : « له الحمد » الخ ، وجوهاً ثلاثة توجه كونه تعالى معبوداً مستحقاً للعبادة وحده .

أما قوله : « له الحمد في الأولى والآخرة » فلأن كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الشناء ، وكل جميل من هذه النعم

الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء ينشئ عليه به إلا وينتهي إليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده .

وأما قوله : « وله الحكم » فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه وهو المالك لما ملكه وهو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنه مالك في مرحلة التكوين والحقيقة ، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبده وملوكه أن لا يعبدوا إلا إياه .

وأما قوله : « وإليه ترجعون » فلأن الرجوع للحساب والجزاء وإذا كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي وإذا كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبد به وحده .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة » إلى آخر الآية ، السرمداً على فعلل بمعنى الدائم ، وقيل : هو من السرد والمم زائدة ومعناه المتتابع المطرد ، وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة .

وقوله : « من إله غير الله يأتيكم بضياء » أي من الإله الذي ينقض حكمه تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش ، هذا ما يشهد به السياق ، ويمرر نظيره في قوله الآتي : « من إله يأتيكم بليل » الخ .

وبذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلاً لأن الذي يأتي به إما هو الله تعالى وإما هو غيره أما غيره فمعهزه عن ذلك ظاهر ، وأما الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل والنهار وهو محال والمحال لا يتعلق به القدرة ولا الإرادة ، وكذا الكلام في جانب النهار .

وربما أجب عن أن المراد بقوله : « إن جعل الله عليكم » إن أراد الله أن يجعل عليكم . وهو كما ترى .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : من إله غير الله يأتيكم بنهار ، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكن المدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل

الإلزام في الحجة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أتم الظهور كأنه قيل: لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمداً فليقدر أن يأتي بالنهار، تنزلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلها لله سبحانه .

ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتى يصبح أن يقال مثلاً: من إله غير الله بأتيتكم بظلمة لأن المأتي به إن كان ظلمة ما لم تكف للسكن وإن كان ظلمة ممتدة كانت هي الليل .

وتكبير « ضياء » يؤيد ما ذكر من الوجه، وقد أوردوا وجوهاً أخرى في ذلك لا تخلو من تعسف .

وقوله : « أفلا تسمعون » أي سمع تفهّم وتفكّر حتى تتفكروا فنفهوا أن لا إله غيره تعالى .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله بأتيتكم بليل تسكنون فيه » أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للماش .

وقوله : « أفلا تبصرون » أي إِبصار تفهّم وتذكّر وإذ لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عمي صم ، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله : « أفلا تسمعون » « أفلا تبصرون » ولعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه .

قوله تعالى : « ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وللملئكم تشكرون » الآية بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة في الآيتين السابقتين سبقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوتها من غير معارض .

وقوله : « لتسكنوا فيه » اللام للتعليل والضمير للليل ، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه ، وقوله : « لتبتغوا من فضله » أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيته فرجوع « لتسكنوا » و « لتبتغوا » إلى الليل والنهار بطريق اللف والنشر المرتب ، وقوله : « وللملئكم تشكرون » راجع إليها جميعاً .

وقوله : « ومن رحمته جعل لكم » في معنى قولنا : جعل لكم وذلك رحمة منه وفيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون والابتغاء والتشريع وهو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » تقدم تفسيره وقد كررت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها .

قوله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا ها تورا برهانكم » إلى آخر الآية ، إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة ، والمراد بالشهد شهيد الأعمال - كما تقدمت الإشارة إليه مراراً - ولا ظهور للآية في كونه هو النبي المبعوث إلى الأمة نظراً إلى أفراد الشهد وذكر الأمة إذ الأمة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصوبة له في الجماعة الذين أرسل إليهم نبي وإن كانت من مصاديقها .

وقوله : « فقلنا ها تورا برهانكم » أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن الله شركاء .

وقوله : « ففعلوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون » أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن الله سبحانه شركاء ففعلوا عند ذلك أن الحق في الألوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة : كذا فسروه ، ففي الكلام تقديم وتأخير والأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون ففعلوا أن الحق لله .

وعلى هذا فقوله : « أن الحق لله » نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه : « إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم الشركين حيث يدعون أن الألوهية بمعنى العبودية حق لشركائهم فيدعي تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضل عنهم البرهان فيعملون عندئذ أن هذا الحق لله فالألوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقاً لغيره تعالى فهو حق له .

وهذا وجه بظاهره وجه لا بأس به لكن الحقيقة التي يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيامة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهوراً مشهوراً لا ستر عليه فيرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر ويتشبه بالحق ، ولازمه أن يظهر أمر الألوهية ظهوراً لا ستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعاً مترتباً عليه لا أن يفترق الدليل على الشركاء

فيستنتج منه توحده تعالى بالالوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك ،
وبذلك يندفع أولاً ما يرد على الوجه السابق أن الاستفادة من كلامه تعالى أنهم لا
حجة عقلية لهم على مدعاهم ولا موجب على هذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم
القيامة ، ويرتفع ثانياً حديث التقديم والتأخير المذكور الذي لا نكتة له ظاهراً إلا
رعاية السجع .

ومن الممكن أن يكون « الحق » في قوله : « فعملوا أت الحق لله » مصدراً
فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ ،
فكون الحق لله هو كونه تعالى حقاً إن أريد به الحق في ذاته أو كونه منتبهاً إليه قائماً
به إن أريد به غيره ، كما قال تعالى : « الحق من ربك » آل عمران : ٦٠ ، ولم يقل :
الحق مع ربك .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من
أرضنا » الآية ، قال : « قلت في قريش حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام
والهجرة وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا فقال الله عز وجل : « أولم
نمكنن لهم حرماً ألماً يحسب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم
لا يعلمون » .

أقول : وروى هذا المعنى في كشف الحجة وروضة الواعظين للنفيد ورواه في
الدر المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس .
وفي الدر المنثور أخرج اللساني وابن المنذر عن ابن عباس أن الحارث بن عامر
بن نوفل الذي قال : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم
الخيرة » الآية ، قال : يختار الله عز وجل الإمام وليس لهم أن يختاروا .

أقول : وهو من الجري مبيهاً على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى
كالنبي ، وقد مر تفصيل الكلام فيه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً » بقول : من هذه الامة إمامها .
 أقول : وهو من الجري .

* * *

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ
 الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ
 لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ - ٧٦ . وَأَبْنَحْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ
 الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
 إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ - ٧٧ .
 قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ
 مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ
 ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ - ٧٨ . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ
 يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَنُوَ حَظِيرِ
 عَظِيمٍ - ٧٩ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ
 آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ - ٨٠ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ
 الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُنتَصِرِينَ - ٨١ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنْ
 اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُونَ لَأُفْلِحُ الْكَافِرُونَ - ٨٢. تِلْكَ الدَّارُ
 الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
 لِلْمُتَّقِينَ - ٨٣. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
 يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٨٤.

(بيان)

قصة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين:
 «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» وأجاب عنه بما مرّ من الأجوبة ليعتبروا
 بها فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أداه الكفر بالله إلى ما أدى من سوء العاقبة
 فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه ، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء
 بالعصبة أولي القوة فظن أنه هو الذي جمعه بملءه وجودة فكره وحسن تدبيره فأمن
 العذاب الإلهي وآثر الحياة الدنيا على الآخرة وبغى الفساد في الأرض فحسف الله به
 وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناهم من الكنوز
 ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » قال في الجمع : البغي طلب العتوة بغير حق .
 قال : والمفاتح جمع مفتاح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناها واحد وهو عبارة عما يفتح به
 الأغلق . قال : وناء بجمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه . انتهى . وقال غيره :
 ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله وهو الأوفق للآية .

وقال في الجمع أيضاً : العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض . وقال : واختلف
 في معنى العصبة فقيل : ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد ، وقيل : ما بين عشرة

إلى أربعين عن قتادة ، وقيل : أربعون رجلاً عن أبي صالح^(١) ، وقيل : ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس ، وقيل : إنهم الجماعة يتمصب بعضهم لبعض . انتهى . ويزيد غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف : « ونحن عصبة يوسف : ٨ ، وهم تسعة نفر . والمعنى : إن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتوة عليهم بغير حق وأعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة ، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتيح الخزائن ، وليس بذلك .

قوله تعالى : « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » ، فسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسى الآخرة ويورث البطر والأشر ، ولذا قال تعالى : « ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » الحديد : ٢٣ .

ولذا أيضاً علل النهي بقوله : « إن الله لا يحب الفرحين » .

قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » إلى آخر الآية أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى .

وقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » أي لا تترك ما قسم الله لك ، ورزقك من الدنيا ترك المنسى واعمل فيه لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذي يبقى له .

وقيل : معناه لا تنس أن نصيبك من الدنيا - وقد أقبأت عليك - شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً والباقي فضل . ستترك لفيرك فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل وهذا وجه جيد . وهناك وجوه أخر غير مائة للسياق . وقوله : « وأحسن كما أحسن الله اليك » أي أنفقه لفيرك إحساناً كما آتاك الله إحساناً من غير أن تستحقه وتستوجبه ، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » على أول الوجهين السابقين ومنحمة له على الوجه الثاني .

(١) روى في الدر المنثور عن أبي صالح سبعين .

وقوله : « ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إن الله لا يحب للمفسدين لبناء الحلقة على الصلاح والإصلاح .

قوله تعالى : « قال إنما أوتيته على علم عندي » إلى آخر الآية . لا شك أن قوله « إنما أوتيته على علم عندي » جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه ونصحوه به وكان كلامهم مبنياً على أن ماله من الثروة إنما آتاه الله إحساناً إليه وفضلاً منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به إلى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر .

فأجاب بنفي كونه إنما أوتيه إحساناً من غير استحقاق ودعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غيره ذلك ، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه وله أن يفعل فيها اقتناء من المال بما شاء ويستدره في أنواع التنعم وبسط السلطة والعلو والبلوغ إلى الآمال والأمانى .

وهذه المزعة التي ابتلى بها قارون فأهلكته - أعني زعمه أن الذي حصل له الكنوز وساق إليه القوة والجمع هو نبوغه العلمي في اكتساب العزة وقدرته للنفسانية لا غير - مزعة عامة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيها ساقه إليه التقدير ووافقه الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة وقوة مستعارة إلا أن نفسه هي الفاعلة له وعلمه هو السائق له إليه وخبرته هي الماسكة له لأجله .

والى عموم هذه المزعة وركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضررٌ دعاناً ثم إذا خولناه نعمته منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصاهبهم سيأت ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيأت ما كسبوا وما هم بمعجزين أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويفسد إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » الزمر : ٥٢ ، وقال : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم ربهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا

به يستهزؤن ، المؤمن : ٨٣ ، وعرض الآيات على قصة قارون لا يبقى شكاً في أن المراد بالعلم في كلامه ما قدمناه .

وفي قوله : « إنما أوتيته » من غير إسناد الإتياء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له : « فيما آتاك الله » نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزرار بساحة كبريائه .

وقوله : « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمماً » استفهام توبيخي وجواب عن قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » بأيسر مما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتعه منه هو علم الذي عنده وهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمماً ، وكان ما له من القوة والجمع عن علم عنده على زعمه ، وقد أهلكه الله بحرمه ، فلو كان العلم الذي يفتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له المتع منه ولم يكن بإتياء الله فضلاً وإحساناً لنجاهم من الهلاك وتمتعهم من أموالهم ودافعوا بقوتهم وانتصروا بحممهم .

وقوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى ما لفقوه من المآذير أو هيؤه من التذلل والإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أولي الطول والقوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقتضوا عليه بالجرم ثم العذاب ، وربما صرف المجرم بما لفقه من المآذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعله بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنما يقضي عليهم قضاء قياتيم عذاب غير مردود .

والظاهر على هذا أن تكون الجملة من تنمة التوبيخ السابق ويكون جواباً عن إسناده ثروته إلى علمه ، ومحصله أن المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه ، بل هو سبحانه علم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه وإنما يؤاخذه بذنبه ، وأيضاً يؤاخذه بغفلة وهو لا يشعر .

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ولهم فيها أقاويل أخرى :

ف قيل : المراد بالعلم في قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها .

وقيل : المراد علم الكهنة وكان قد تعلمه من موسى ويوشع بن نون وكالب بن يوفنا والمراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس وقد صنع به مقداراً كثيراً من الذهب .

وقيل : المراد بالعلم علم استخراج الكنوز والدفائن وقد استخراج به كنوزاً ودفائن كثيرة .

وقيل : المراد بالعلم علم الله تعالى والمعنى : أوتيته على علم من الله وتخصيص منه قصدي به ، ومعنى قوله : « عندي » هو كذلك في ظني ورأيي .

وقيل : العلم علم الله لكنه بمعنى المعلوم ، والمعنى أوتيته على خير علمه الله تعالى عندي ، و « على » على جميع هذه الأقوال للاستعلاء وجوز أن تكون للتعليل .

وقيل : المراد بالسؤال في قوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم الجرمون » سؤال يوم القيامة والنفي سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لا حاجة له إلى السؤال والملائكة يطلعونها من صحائف أعمالهم ويعرفونهم بسيماهم وأما قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسؤولون » الصافات : ٢٤ فهو سؤال تقريبي وتوبيخ لا سؤال استعلام ، ويمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر فلا تناقض بين الآيتين .

وقيل : الضمير في قوله : « عن ذنوبهم » لمن هو أشد والمراد بالجرمين غيرهم والمعنى : لا يسأل عن ذنوب من أهلكه الله من أهل القرون السابقة غيرهم من الجرمين . وهذه كلها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم » الحظ هو النصيب من السعادة والبخت .

وقوله : « يريدون الحياة الدنيا » أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جبل من الآخرة وما أعد الله لهباده فيها من الثواب قال تعالى : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم »

النجم : ٣٠ ولذالك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط .
قوله تعالى : « وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ،
النج ، الويل الهلاك ويستعمل للدعاء بالهلاك وزجراً عما لا يرتضى ، وهو في المقام زجراً
عن التمني .

والعائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين
تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون وعدوه سعادة عظيمة على الإطلاق ، ومرادهم أن
ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه .
وقوله : « وما يلقاها إلا الصابرون » التلقية التفهم والتلقي التفهم والأخذ ،
والضمير - على ما قالوا - للكلمة المفهومة من السياق ، والمعنى : وما يفهم هذه الكلمة
- وهي قولهم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً - إلا الصابرون .

وقيل : الضمير للسيرة أو الطريقة وهنئى تلقىها فهمها أو التوفيق للعمل بها .
والصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وعن المعاصي ،
ووجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب
الآخرة خيراً من الحظ الدنيوي - وهو لا ينفك عن الإيمان والعمل الصالح الملازمين
لترك كثير من الأهواء والحرمات عن كثير من المشتبهات - لا يتحقق إلا لمن له صفة
الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمارة .

قوله تعالى : « فحسبنا به وبداره الأرض » إلى آخر الآية ، الضميران لقارون
والجملة متفرعة على بنيه .

وقوله : « لما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » الفئة
الجماعة يميل بعضهم إلى بعض ، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع ، ومحصل
المعنى : لما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من المنتصرين على خلاف ما كان يظن
أن الذي يحلب اليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه اللذان اكتسبها بعلمه فلم يبق
جمعه ولم تقده قوته من دون الله وبأن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه .

فالفاء في قوله : « فما كان » لتفريع الجملة على قوله : « فحسبنا به » النج ، أي
فظهر بحسبنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدعى لنفسه من الاستحقاق والاستغناء

عن الله سبحانه وأن الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبها بنبوغه العلمي .

قوله تعالى: « وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » الخ ، ذكروا أن « وي » كلمة تندم وربما تستعمل للتعجب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندم أسبق إلى الدهن .

وقوله : « كان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدّقونه أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجوده تدبيره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقة بشية من الله .

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك والتردد لكنهم إنما استعملوا في كلامهم « كان » للدلالة على ابتداء ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال .

والدليل على ذلك قولهم بعده : « لولا أن من الله علينا لحسف بنا » على طريق الجزم والتحقيق .

وقوله : « ويكأنه لا يفلح الكافرون » تندم منهم ثانياً وانتزاع مما كان لازم تمنيهم مكان قارون .

قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والمعاقبة للمتقين » الآية وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة .

وقوله : « تلك الدار الآخرة » الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وجاهتها وعلو مكانتها وهو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسروها بالجنة .

وقوله : « نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » أي تختصها بهم وإرادة العلو هو الاستعلاء والامتكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلفته ولا تقتضي فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية فكل معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة ، قال تعالى : « ظهر

الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس « الروم : ٤١ .

ومن هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنما أفردت وخصت بالذكر اعتناء بأمرها ، ومحصل المعنى : تلك الدار الآخرة السميدة منحصا بالذين لا يريدون فساداً في الأرض بالعلو على عباد الله ولا بأي معصية أخرى .

والآية عامة يخصها قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » النساء : ٣١ .

وقوله : « والعاقبة للمتقين » أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السميدة أو العاقبة السميدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول .

قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله خير منها » أي لأنها تتضاعف له بفضل من الله ، قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ .

قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » أي لا يزيدون على ما عملوا شيئاً وفيه كمال العدل ، كما أن في جزاء الحسنه نجر منها كمال الفضل .

وكان مقتضى الظاهر في قوله : « فلا يجزى الذين عملوا » الخ ، الإضمار ولعل في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية وأحاطت به الخطيئة كما يفيد جمع السيئات ، وقوله : « كانوا يعملون » الدال على الإصرار والاستمرار ، وأما من جاء بالسيئة والحسنة فمن المرجو أن يفر الله له كما قال : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » التوبة : ١٠٢ .

وليعلم أن الملاك في الحسنه والسيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان وبها تسمى الأعمال حسنة أو سيئة وعليها - لا على متن العمل الخارجي الذي هو نوع من الحركة - يثاب الانسان أو يعاقب ، قال تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ .

وبه يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة ولا يعقل خير منه وأفضل ، فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحققة أو مخصصة بالتوحيد .

- وذلك أن الأمر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه وإن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار .

على أن التوحيد أباً ما فرض يقبل الشدة والضعف والزيادة والنقصان وإذا ضعف عند الجزاء كما تقدم كان مضاعفه خيراً من غيره .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن قارون كان من قوم موسى ، قال : كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بنى على موسى وحده .

فقال له موسى عليه السلام : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا محتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بني من بغايا بني إسرائيل فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها : نمطيك حكك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك . قالت نعم .

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال : نعم ، فجمعهم فقالوا له : بم أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم . قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم . قالوا : فإنك قد زנית ، قال : أنا ؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدتك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذا نشدتنني فإنهم دعوني وجعلوا لي جملاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنت رسول الله .

فخر موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فرها فطيطعك ، فرفع رأسه فقال : خذهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى فقال : خذهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا

موسى يا موسى فقال: خذهم فغيبتهم فأوحى الله: يا موسى سألك عبادي وتضرعوا اليك فلم تجيبهم فوعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم .

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: « فحسفنا به وبداره الأرض » خسف به إلى الأرض السفلى .

أقول: وروى فيه أيضاً عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن نوفل اله شمي القصة لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملائمة بني إسرائيل على موسى عليه السلام بالفجور وتشكوه إلى قارون فجاءت إليه واعترفت عند الملائمة بالحق فبلغ ذلك موسى عليه السلام فشكاه إلى ربه فسلبه الله عليه .

وروى القمي في تفسيره في القصة أن موسى عليه السلام جاء إلى قارون وبلغه حكم الزكاة فاستهزأ به وأخرجه من داره فشكاه إلى ربه فسلبه الله عليه فخسف به وبداره الأرض ، والرواية موقوفة مشتملة على أمور منكورة ولذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن عباس وابن نوفل أيضاً موقوفتان .

على أن رواية ابن عباس تقصص بفيه على موسى عليه السلام والذي تقصه الآيات بفيه على بني إسرائيل ، وتشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصله بالتعلم وظاهر الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها .

وقد سبقت القصة في التوراة الحاضرة على نحو آخر ففي الإصحاح السادس عشر من سفر العدد: وأخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوي ودانان وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت بنور أوبين يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل اثنين وخمسين رؤساء الجماعة مدعويين للاجتماع ذوي اسم . فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لها كفا كما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب ؟

فما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غداً يملن الرب من همله ؟ ومن المقدس ؟ حتى يقربه إليه فالذي يختاره بقربه إليه . افعلوا هذا: خذوا لكم محابر قورح وكل جماعته واجعلوا فيها ناراً وضعوا عليها بخوراً أمام الرب غداً فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس . كفا كما يا بني لاوي .

ثم سبقت القصة وذكر فيها حضورهم غداً ومجئهم بالهامر وفيها النار والبخور واجتماعهم على باب خيمة الاجتماع ثم قيل : انشقت الأرض التي تحتمهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة ، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم ، لأنهم قالوا : لعل الأرض تبتلعنا ، وخرجت نار من عند الرب وأكلت المثمين والحسين رجلاً الذين قرتوا البخور . انتهى موضع الحاجة .

وفي الجمع في قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى » : وهو ابن خالته عن عطاء عن ابن عباس وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ما إن مفاتيحه لتنوء » الآية ، قال : كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة اولوا القوة .

وفي المعاني بإسناده عن موسى بن اسماعيل بن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده عن آبائه عن علي عليه السلام في قول الله عز وجل : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » قال : لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته » قال : في الثياب المصبغات يجرها بالأرض .

وفي الجمع وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمرّ بالبتياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » ويقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وفيه روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : الرجل ليمجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية « تلك الدار الآخرة » الآية .

أقول : وعن السيد ابن طاوس في سعد السمود أنه رواه عن الطبرسي هكذا : إن الرجل ليمجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحته .

وفي الدر المنثور أخرج الهاملي والديلمي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله في الآية قال : التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق .

* * *

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
 مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ - ٨٥. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو
 أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
 لِلْكَافِرِينَ - ٨٦. وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ
 وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - ٨٧. وَلَا تَدْعُ مَعَ
 اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ٨٨.

(بيان)

الآيات خاتمة السورة وفيها وعد جميل للنبي ﷺ أن الله سبحانه سيمن عليه
 برفع قدره ونفوذ كلمته ، وتقدم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه وعلى المؤمنين به
 كما فعل ذلك بموسى وبنى إسرائيل ، وقد كانت قصة موسى وبنى إسرائيل مسوقة في
 السورة لبيان ذلك .

قوله تعالى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » إلى آخر الآية
 الفرض - على ما ذكره - بمعنى الإيجاب فمضى « فرض عليك القرآن » أي أوجب
 عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة .

وأحسن منه قول بعضهم : إن المعنى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به
 وذلك لكونه أوفق لقوله : « لرادك إلى معاد » بما سيحييه من معناه .

وقوله : « لرادك إلى معاد » المعاد اسم مكان أو زمان من العود وقد اختلفت
 كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل : هو مكة فالآية وعد له أن الله سيرده بمد هجرته

إلى مكة ثانياً ، وقيل : هو الموت ، وقيل : هو القيامة ، وقيل : هو المحشر ، وقيل هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى ، وقيل : هو الجنة ، وقيل : هو بيت المقدس ، وهو في الحقيقة وعد بمراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المراج الأول : وقيل : هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أو كلها .

والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المرودة في أول السورة تلوح إليه ثم الآيات التالية لها تؤيده .

فإنه تعالى أورد قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام في أول السورة ففصل القول في أنه كيف من عليهم بالأمن والسلام والعزة والتمكن بعد ما كانوا أذلاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وقد كانت القصة تدل بالالتزام -- ومطلع السورة يؤيده -- على وعد جميل للؤمنين أن الله سبحانه سينجيهم مما هم عليه من الفتنة والشدّة والعسرة ويظهر دينهم على الدين كله ويمكنهم في الأرض بعد ما كانوا لا سماء تظلمهم ولا أرض تقلمهم .

ثم ذكر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب في الحكمة أن ينزل كتاباً يهدي الناس إلى الحق تذكراً وإتماماً للحجة ليقنوا بذلك من عذاب الله كما نزل على موسى بعد ما أهلك القرون الأولى وكما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كنوا به عناداً للحق وإيثاراً للعالم على الآخرة .

وهذا السياق يرجي السامع أنه تعالى سيتعرض صريحاً لما أشار إليه في سرد القصة تلويحاً فإذا سمع قوله : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » لم يلبث دون أن يفهم أنه هو الوعد الجميل الذي كان يقرّبه وخاصة مع الابتداء بقوله : « إن الذي فرض عليك القرآن » وقد قدم تنظير التوراة بالقرآن وقد كان ما قصه في إلهامه بني إسرائيل مقدمة لتزول التوراة حتى يكونوا بالأخذ بها والعمل بها أئمة ويكونوا هم الوارثين .

فمضى الآية : أن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك إلى محل تكون هذه الصيرورة منك إليه عوداً ويكون هو معاداً لك

كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه ، ومن المعلوم أنه ﷺ كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحاً مظفراً وثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذبين .

وفي تنكير قوله : « معاد » إشارة إلى عظمة قدر هذا العمود وأنه لا يقاس إلى ما قبله من القطنون بها والتاريخ يصدقه .

وقوله : « قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذي قول موسى ﷺ - لما كذبوه ورموا آياته البينات بأنها سحر مفترى - : « ربي أعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار » فأمر النبي ﷺ أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لما كذبوه ورموه بالسحر ما قاله موسى لآل فرعون لما كذبوه ورموه بالسحر لقتشابه التام بين مبشئها وسير دعوتها كما يظهر من القصة ويظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى : « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » المزمل : ١٥ .

ولعل الاكتفاء بالشرط الأول من قول موسى ﷺ والسكوت عن الشرط الثاني أعني قوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة والإيحاء كما يستثم من سياق قوله : « لرادك إلى معاد » أيضاً حيث خص الخطاب بالنبي ﷺ ونكر معاداً .

وكيف كان فالمراد بقوله : « من جاء بالهدى » النبي ﷺ نفسه وبقوله : « ومن هو في ضلال مبين » المشركون من قومه ، واختلاف سياق الجملتين - حيث قيل في جانبه ﷺ : « من جاء بالهدى » وفي جانبهم : « من هو في ضلال مبين » فقبول بين ضلالهم وبين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم واهتدائه - لكون تكذيبهم متوجهاً بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه .

وقد ذكروا في قوله : « أعلم من جاء بالهدى » أن « من » منصوب بفعل مقدر يدل عليه « أعلم » والتقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل للتفضيل لا ينصب المفعول به ، وذكر بعضهم أنه منصوب بأعلم وهو بمعنى عالم ولا دليل عليه ،

وما أذكر قائلًا بأنه منصوب بنزع الخافض وإن لم يظهر فيه النصب لبنائه والتقدير ربي أعلم بمن جاء بالهدى ، ولا دليل على منعه .

قوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكون ظهيراً للكافرين » صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاده ، أي إنه سيردك إلى معاد - وما كنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه - .

وقيل : تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه ﷺ وهذا وجه وجيه وتقديره أنه تعالى لما وعده بالرد إلى معاد وفيه ارتفاع ذكره وتقدم دعوته وانبساط دينه خط له السبيل التي يجب عليه سلوكها يجهد ومراقبة فبين له أن إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى وتترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه وقد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبالة هذه النعمة وفي تقدم دعوته وبلوغها الغاية التي وعدها أن لا ينصر الكافرين ولا يطيعهم ويدعو إلى ربه ولا يكون من المشركين ولا يدعو معه إليها آخر .

وقوله : « إلا رحمة من ربك » استثناء منقطع أي لكنه ألقى إليك رحمة من ربك وليس بإلقاء عادي يرجى مثله .

وقوله : « فلا تكون ظهيراً للكافرين » تفريع على قوله : « إلا رحمة من ربك » أي فإذا كان إلقاءه إليك رحمة من ربك خصتك بها وهو فوق رجائك فتبرأ من الكافرين ولا تكن معيناً وناصراً لهم .

ومن المحتمل قريباً أن يكون في الجملة نوع معاذة لقول موسى ﷺ - لما قتل القبطي : « رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » وعلى هذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أن إلقاء الكتاب إليه ﷺ نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحق ويدعو إلى التوحيد فمليه أن لا يمين الكافرين على كفرهم ولا يميل إلى صدم إياه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى ﷺ ربه بما أنعم عليه من الحكم والعلم أن لا يكون ظهيراً للمجرمين أبداً ، وسيأتي أن قوله : « ولا يصدنك » الخ ، بمنزلة الشارح لهذه الجملة .

قوله تعالى : « ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » إلى آخر الآية ،
 نهي له ﷺ على الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفار عن الصد والصرف ووجهه
 كون انصرافه مسبباً لصددهم وهو كقوله لآدم وزوجه : « فلا يخرجنكما من الجنة »
 أي لا تخرجا منها بإخراجها لكما بالسوسة .

والظاهر أن الآية وما بعدها في مقام الشرح لقوله : « فلا تكونن ظهيراً للكافرين »
 وفائدته تأكيد النهي بعد موارد واحد بعد واحد فنهاء أولاً عن الانصراف عن
 القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه شعر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين
 اكتبها ، وأمره ثانياً أن يدعو إلى ربه ، ونهاء ثالثاً أن يكون من المشركين وفسره
 بأن يدعو مع الله إلهاً آخر .

وقد كرر صفة الرب مضافاً إليه ﷺ للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة
 وأنه ﷺ متفرد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها .

قوله تعالى : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » قد تقدم أنه كالتفسير لقوله : « ولا
 تكونن من المشركين » .

قوله تعالى : « لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »
 كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » أي لأنه لا
 إله غيره وما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيوضح .

وقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » الشيء مساوٍ للوجود ويطلق على كل أمر
 موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله »
 الأنعام : ١٩ ، والهلاك البطلان والإنعدام .

والوجه والجهة واحد كالوعد والمدة ، ووجه الشيء في العرف العام ما يستقبل
 به غيره ويرتبط به اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه ووجه الإنسان النصف
 المقدم من رأسه ووجه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه ويتوجه اليه خلقه به وهو
 صفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وما يفتنيها من صفات الفعل كالمخلوق
 والرزق والإحياء والإماتة والمغفرة والرحمة ، كذا آياته الدالة عليه بما هي آياته .

فكل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حتمية له إلا ما كان عنده مما أفاضه

الله عليه وأما ما لا ينسب إليه تعالى فليس إلا ما اختلفه وهم المتوهم أو مرابياً صورته الخيال وذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلا أنها حجارة أو خشبة أو شيء من الفلزات وأما أنها أرباب أو آلهة أو نافعة أو ضارة أو غير ذلك فليست إلا أسماء سماها عبدتهم وكالإنسان ليس له من الحقيقة إلا ما أودعه فيه الخلق من الروح والجسم وما اكتسبه من صفات الكمال والجميع منسوبة إلى الله سبحانه وأما ما يضيفه إليه العقل الاجتماعي من قوة وسلطة ورياسة ووجاهة وثروة وعزة وأولاد وأعضاء فليس إلا مرابياً هالِكاً وامنية كاذبة وعلى هذا السبيل سائر الموجودات .

فليس عندها من الحقيقة إلا ما أفاض الله عليها بفضله وهي آياته الدالة على صفاته الكريمة من رحمة ورزق وفضل وإحسان وغير ذلك .

فالحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة وآياته الدالة عليها والجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسة .

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل وعلى هذا يكون محصل تعليل كلمة الإخلاص بقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » أن الإله وهو المعبود بالحق إنما يكون إلهاً معبوداً إذا كان أمراً ذا حقيقة واقعية غير هالك ولا باطل له تدبير في العالم بهذا النعت وكل شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلا ما كان وجهاً له منتسباً إليه فليس في الوجود إله غيره سبحانه .

والوثنيون وإن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوباً إليه تعالى ومن جهته إلا أنهم يجعلونها مستقلة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه ، ولذلك يعبدونها من دون الله ، ولا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو .

وهنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال : وجه النهار ووجه الطريق لنفسها وإن أمكنت المناقشة فيه ، وذكر بعض آخر : أن المراد به الذات الشريفة كما يقال : وجوه الناس أي أشراقهم وهو من الجهاز المرسل أو الاستعارة وعلى كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنة والممكن وإن كان موجوداً بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر

إلى حد ذاته هالك في نفسه والذي لا سبيل للبطلان والهلاك إليه هو ذاته الواحدة بذاتها. ومحصل التعليل على هذا المعنى : أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتاً بيده شيء من تدبير العالم ، والتدبير الكوني لا ينفك عن الخلق والإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء. ويدبر أمرها شيء آخر - وقد أوضحنا مراراً في هذا الكتاب - ولا يكون الخالق الموجد إلا واجب الوجود ولا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو .

وقولهم : إنه تعالى أجل من أن يحيط به عقل أو وهم فلا يمكن للتوجه العبادي إليه فلا بد أن يتوجه بالعبادة إلى بعض مقرّبي حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده .

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة على العلم الإحاطي بل يكفي فيه المعرفة بوجه وهو حاصل بالضرورة .

وأما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبل الهلاك والفناء بناء على ما قيل : إن اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أن كل شيء سيستقبل الهلاك بعد وجوده إلا وجهه. نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانيات انتهاء أمد وجودها وبطلانها بعده وفي غيرها كون وجودها محاطاً بالفناء من كل جانب.

وهلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائي وخلق النشأة الأولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده، وأما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعة في أن كل شيء مرجعه إلى الله وأنه المنتهى وإليه الرجعى وهو الذي يبدى الخلق ثم يعيده .

فمحصل معنى الآية - لو أريد بالوجه صفاته الكريمة - أن كل شيء سيخلتي مكانه ويرجع إليه إلا صفاته الكريمة التي هي مبادي فيضه فهي تفيض ثم تفيض إلى ما لا نهاية له والإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته ولا انقطاع لصفاته الفيضة وليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلا هو .

ولو أريد بوجه الذات المقدسة فالمحصل أن كل شيء سيستقبل الهلاك والفناء بالرجوع إلى الله سبحانه إلا ذاته الحققة الثابتة التي لا سبيل للبطلان إليها - والصفات على هذا محسوبة من صفح الذات - والإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء إليه

وليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلا هو .

وبما تقدم من التقرير يندفع الاعتراض على عموم الآية بمثل الجنة والنار والعرش فإن الجنة والنار لا تتمدان بعد الوجود وتبقيان إلى غير النهاية، والعرش أيضاً كذلك بناء على ما ورد في بعض الروايات أن سقف الجنة هو العرش .

وجه الاندفاع أن المراد بالهلاك هو تبدل نشأة الوجود والرجوع إلى الله المبسر عنه بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة والتلبس بالعمود بعد البدء ، وهذا إنما يكون فيما هو موجود بوجود بدئي دنيوي ، وأما الدار الآخرة وما هو موجود بوجود أخروي كالجنة والنار فلا يتصف شيء من هذا القبيل بالهلاك بهذا المعنى .

قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ ، وقال : « وما عند الله خير للأبرار » آل عمران : ١٩٨ ، وقال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » الأنعام : ١٢٤ ، ونظيرتها خزائن الرحمة كما قال : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » الحجر : ٢٦ ، وكذا اللوح المحفوظ كما قال : « وعندنا كتاب حفيظ » ق : ٤ .

وأما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله » الآية ، الأعراف : ٥٤ .

ويمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب إليه وهي الناحية التي يقصد منها ويتوجه إليه بها ، وتؤيده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله : « يريدون وجهه » الأنعام : ٥٢ ، وقوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » الليل : ٢٠ ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً .

وعليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه ويكون من مصاديقه أسماءه وصفاته وأنبيأؤه وخلفأؤه ودينه الذي يؤتى منه :

وإن خص الوجه بالدين فحسب - كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق - كان المراد بالهلاك الفساد وعدم الأثر ، وكانت الجملة تعليلاً لقوله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » وكان ما قبلها قرينة على أن المراد بالشيء الدين والأعمال المتعلقة

به وكان محصل المعنى: ولا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه .
والأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعي أو الأعم
منه ومن التكويني والمعنى: كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين اليه وإليه ترجعون
لا إلى مشرعي الأديان الاخر .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وللمفسرين فيها أقوال أخر مختلفة .

ف قيل : المراد بالوجه ذاته تعالى المقدسة وبالهلاك الانعدام ، والمعنى : كل شيء
في نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلا ذاته الواجبة الوجود ، والكلام على
هذا مبني على التشبيه أي كل شيء غيره كالهالك لاستناد وجوده إلى غيره .

وقيل : الوجه بمعنى الذات والمراد به ذات الشيء والضمير لله باعتبار أن وجه
الشيء مملوك له ، والمعنى: كل شيء هالك إلا وجه الله الذي هو ذات ذلك الشيء ووجوده .

وقيل : المراد بالوجه الجهة المقصودة والضمير لله ، والمعنى : كل شيء هالك
يحميع ما يتعلق به إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى وهو الوجود الذي أفاضه الله تعالى عليه .

وقيل : الوجهة هو الجهة المقصودة والمراد به الله سبحانه الذي يتوجه إليه كل
شيء والضمير للشيء ، والمعنى : كل شيء هالك إلا الله الذي هو الجهة المطلوبة له .

وقيل : المراد بالهالك هلاك الموت والعموم مخصوص بنفوي الحياة ، والمعنى :
كل ذي حياة فإنه سيموت إلا وجهه .

وقيل : المراد بالوجه العمل الصالح والمعنى أن العمل كان في حيز العدم ، فلما
فعله العبد بمثابة أمره تعالى أبقاه الله من غير إحباط حتى يشبهه أو أنه بالقبول صار
غير قابل للهلاك لأن الجزاء قائم مقامه وهو باق .

وقيل : المراد بالوجه جاهه تعالى الذي أثبتته في الناس .

وقيل : الهلاك عام لجميع ما سواه تعالى دائماً لكون الوجود المفاض عليها متجدداً
في كل آن فهي متغيرة هالكة دائماً في الدنيا والآخرة والمعنى كل شيء متغير الذات
دائماً إلا وجهه .

وهذه الوجوه بين ما لا ينطبق على سياق الآية وبين ما لا ينجح به حجتها وبين
ما هو بعيد عن الفهم ، وبالتأمل فيما قدمناه يظهر ما في كل منها فلا نطيل .

وقوله : « له الحكم واليه ترجعون » الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون ، وأما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيعمده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع إليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه .
 وكلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكل واحدة منها وحدها حجة تامة على توحيده .
 تعالى بالالوهية صالحة للتعليل كلمة الإخلاص ، وقد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس في قوله تعالى : « ولرادك إلى معاد » قال : إلى مكة . زاد ابن مردويه كما أخرجك منها .

أقول : وروى عنه وعن أبي سعيد الخدري أن المراد به الموت ، وأيضاً عن علي عن النبي ﷺ أن المراد به الجنة وانطباقها على الآية لا يخلو من خفاء .

وروى القمي في تفسيره عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام وعن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليهما السلام أن المراد به الرحمة وأمله من البطن دون التفسير .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : وأما قوله « كل شيء هالك إلا وجهه » فالمراد كل شيء هالك إلا دينه ، لأن من الهالك أن يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه . هو أجل وأعظم من ذلك وإنما يهلك من ليس منه ألا ترى أنه قال :
 « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » ففصل بين خلقه ووجهه ؟

وفي الكافي بإسناده عن سيف عن ذكره عن الحارث بن المغيرة النصري قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » فقال : ما يقولون فيه ؟ قلت : يقولون : يهلك كل شيء إلا وجهه الله فقال : سبحان الله لقد قالوا عظيماً إنما عني به وجه الله الذي يؤتى منه .

أقول : وروى مثله في التوحيد بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصري عنه

عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ ولفظه سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قول الله عز وجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » قال : كل شيء هالك إلا من أخذ طريق الحق .

وفي محاسن البرقي مثله إلا أن آخره « من أخذ الطريق الذي أنتم عليه » .

والتشويش الذي يتراءى في الروايات تطرق إليها من جهة النقل بالمعنى ، فإن كان المراد بالوجه الذي يؤتى منه مطلق ما ينسب إليه وكان من صقعه تعالى ومن جانبه كان منطبقاً على المعنى الأول الذي قدمناه في معنى الآية .

وإن كان الوجه بمعنى الدين الذي يتوجه إليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاك البطلان وعدم التأثير وكان المعنى : لا إله إلا هو كل دين باطل إلا دينه الحق الذي يؤتى منه فإنه سينفع ويثاب عليه ، وقد تقدمت الإشارة إلى الوجهين في تفسير الآية .

وفي تفسير العمي في قوله تعالى : « فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين » قال : المحاطبة

للنبي ﷺ والمعنى للناس ، وقوله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » المحاطبة للنبي ﷺ والمعنى للناس ، وهو قول الصادق عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إن الله بمت نبيه ﷺ بإياك أعني ، واحممي يا جارة .

(سورة العنكبوت مكية ، وهي تسع وستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . آلم - ١ . أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا
أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ - ٢ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ - ٣ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ - ٤ . مَنْ كَانَ يَرْجُوا
لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - ٥ . وَمَنْ جَاهَدَ
فَأِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ - ٦ . وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ - ٧ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ
لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ٨ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ - ٩ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي
اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ - ١٠ .

وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ - ١١ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ - ١٢ . وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ - ١٣ .

(بيان)

يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً من آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فنتوهم وعذبوهم ليميدوهم إلى ملتهم .

يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » الآية ، وقوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » الآية .

وكان في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع وإلحاح منها عليه في الإرتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستثم من قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بالديه حسناً وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطمها » الآية ، وقد نزلت السورة في شأن هؤلاء .

ففرض السورة على ما استفاد من بدئها وختامها والسياق الجاري فيها أن الذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم : آمنا بالله بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن ولا تغيرها غير الزمن وهي إنما تثبتت وتستقر بتوارد الفتن وتراكم الهن ، فالناس غير متوكلين بمجرد أن يقولوا : آمنا بالله دون أن يفتنوا ويمتنحوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

فالفتنة والحنة سنة إلهية لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ولوط وشيب وموسى فاستقام منهم من استقام وهلك منهم من هلك وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فمن يقول : آمنت بالله أن يصبر على إيمانه ويعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله وكآين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياه .

وأما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموا إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله ويسبقونه فأما فتنهم للمؤمنين وإيذاؤهم وتعذيبهم فإنما هي فتنة لهم وللمؤمنين غير خارجة عن علم الله وتقديره ، فهي فتنة وهي محفوظه عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا وإن شاء أخرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه وما لهم من محيص .

وأما ما لفقوه من الحجة وركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم والحجة قائمة تامة عليهم .

فهذا محصل غرض السورة ومقتضى ذلك كون السورة كلها مكية ، وقول القائل : إنها دنية كلها أو معظمها أو بعضها - وسيجيء في البحث الروائي التالي - غير شديد ، فمضامين آيات السورة لا تلائم إلا زمن العسرة والشدة قبل الهجرة .

قوله تعالى : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » الحسبان هو الظن ، وجملة « أن يتركوا » قائمة مقام مفعوليه ، وقوله : « أن يقولوا » بتقدير بقاء السببية ، والفتنة الامتحان وربما تطلق على المصيبة والمذاب ، والأوفق للسياق هو المعنى الأول ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم : آمنا ؟

وقيل : المعنى : أظن الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببليئة ولا تصيبهم مصيبة لقولهم : آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته ؟ ولا يتخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات .

قوله تعالى : « ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » اللامات للقسم ، وقوله : « ولقد فتنا الذين من قبلهم » حال من الناس في قوله : « أحسب الناس » أو من ضمير الجمع في قوله « لا يفتنون » وعلى الأول فالإنكار والتوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة والامتحان وعلى الثاني إلى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوماً ولا يفتن آخرين ، ولعل الوجه الأول أوفق للسياق .

فالظاهر أن المراد بقوله : « ولقد فتنا الذين من قبلهم » أن الفتنة والامتحان سنة جارية لنا وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن نجد لسنة الله تبديلاً . وقوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الخ تمثيل لمسا قبله ، والمراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم وكذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة والامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو اليه وكذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاراة والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة .

ويمكن أن يكون المراد بالمعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإن الأمور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى ، وأما علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البينة .

والمعنى : أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان وإظهاره والحال أن الفتنة سنتنا وقد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك .

والالتفات في قوله : « فليعلمن الله » إلى اسم الجلالة قيل : للتحويل وترتبة المهابة والظاهر أنه في أمثال المقام لإفادة نوع من التمثيل وذلك أن الدعوة إلى الإيمان والهداية إليه والثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمى بالله الذي منه يبدأ كل شيء وبه يقوم كل شيء واليه ينتهي كل شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميز عنده حقيقة الإيمان من

دعواه الخالية ويخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة ولذلك عدل عن مثل قولنا :
فلنملن إلى قوله : « فليعلمن الله » .

قوله تعالى : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » أم
منقطعة ، والمراد بقوله : « الذين يعملون السيئات » المشركون الذين كفروا يفتنون
المؤمنين ويصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله : « أحسب الناس » هم
الذين قالوا : آمنا وهم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفاً من الفتنة والتعذيب .

والمراد بقوله : « أن يسبقونا » الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين وصدّهم عن
سبيل الله - على ما يعطيه السياق .

وقوله : « سوء ما يحكمون » تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يكرهون من فتنة
وصدّ فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصدّ لهم عن سبيل السعادة ولا يحق
المكر السيء إلا بأهله .

وقيل : مفاد الآية توبيخ المعصاة من المؤمنين وهم المراد بقوله : « الذين يعملون
السيئات » والمراد بالسيئات المعاصي التي يقترفونها غير الشرك، وأنت خير بأن السياق
لا يساعد عليه .

وقيل : المراد بعمل السيئات أعم من الشرك واقتراف سائر المعاصي فالآية
عامّة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك .

وفيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاص من السياقات أمر
واعتبارها مستقلة في نفسها أمر آخر والذي يقتضيه الاعتبار الأول وهو العمدة بالنظر
إلى غرض السورة هو ما قدمناه من المعنى ، وأما الاعتبار الثاني : فمقتضاه الموموم ولا
ضير فيه على ذلك التقدير .

قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم »
إلى تمام ثلاث آيات . لما وبتّ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان ورجوعهم عنه
بأي فتنة وإيذاء من المشركين ووبّخ المشركين على فتنهم وإيذائهم المؤمنين وصدّهم
عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله وتعميزاً له فيما شاء وخطأً الفريقين فيما ظنوا .

رجع إلى بيان الحق الذي لا معدل عنه والواجب الذي لا مخلص منه ، فيبين في

هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع اليه ولقائه فليعلم أنه آتٍ لا محالة وأن الله سميع لأقواله عليم بأحواله وأعماله فليأخذ حذره وليؤمن حق الإيمان الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء وليجاهد في الله حق جهاده ، وليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه ولا إلى غيره من العالمين وليعلم أنه إن آمن وعمل صالحاً فإن الله سيكثر عنه سيئاته ويميزه بأحسن أعماله ، والعلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول ويستوجهان لزومه الإيمان وصبره على الفتن والمحن في جنب الله .

فقوله : « من كان يرجو لقاء الله » رجوع إلى بيان حال من يقول : آمنت فإنه إنمسا يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إذ لولا المعاد لفسد الدين من أصله ، فالمراد بقوله : « من كان يرجو لقاء الله » من كان يؤمن بالله أو من كان يقول : آمنت بالله ، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع السبب .

والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه وبين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق ، قال تعالى : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

وقيل : المراد بلقاء الله هو البعث ، وقيل : الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت والحساب والجزاء ، وقيل : المراد ملاقاته جزاء الله من ثواب أو عقاب وقيل : ملاقاته حكمه يوم القيامة ، والرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف .

وهذه وجوه مجازية بعيدة لا موجب لها إلا أن يكون من التفسير بلازم المعنى .
وقوله : « فإن أجل الله لآت » الأجل هو الغاية التي ينتهي إليها زمان الدين ونحوه وقد يطلق على مجموع ذلك الزمان والغالب في استعماله هو المعنى الأول .

و « أجل الله » هو الغاية التي عينها الله تعالى للقائه ، وهو آتٍ لا ريب فيه وقد أكد القول تأكيداً بالفاء ، ولازم تحتم إثبات هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان والصبر عليه عند الفتن والمحن من غير رجوع وارتداد ، وقد زاد في تأكيد القول بتذييله بقوله : « وهو السميع العليم » إذ هو تعالى لما كان سميعاً لأقوالهم عليمًا بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل : آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة ومحنة .

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية : « فإن أجل الله لآت » الخ ، من قبيل وضع

السبب موضع المسبب كما كان صدرها : « من كان يرجو لقاء الله ، أيضاً كذلك ، والأصل من قال : آمنت بالله . فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً في ربه .

وقوله : « ومن جاهد فإنه يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين » الجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة ، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله يلزم الإيثار والصبر على المكروه ، فإنه ليس مما يعود نفعه إلى الله سبحانه حتى لا يهمهم ويلغو بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناء تعالى عن العالمين فليعلم أن يلزموا الإيثار ويصبروا على المكروه .

فقوله : « ومن جاهد فإنه يجاهد لنفسه » تأكيد لحجة الآية السابقة ، وقوله : « إن الله لغني عن العالمين » تعليل لما قبله .

والالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير ما مر من الالتفات في قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الآية .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » بيان لعاقبة إيمانهم حتى الإيثار للجهاد ويتبين به أن نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه وأنه عطية من الله وفضل .

وعلى هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيثار والعمل للمصالح فإنها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة : « ومن جاهد » من قوله في هذه الآية : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وتكفير السيئات هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو السر ، وقيل : تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً ومماصيهم السابقة طاعات ، وليس بذلك .

وجزاؤهم بأحسن الذي كانوا يعملون هو رفع درجاتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداة وخيبة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحسب صلاتهم أحسن الصلاة وإن اشتملت على بعض جهات الرداة وهكذا .

قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بالديه حسناً وإن جهادك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطمها » الخ ، التوصية للمهد وهو هنا الأمر ، وقوله : « حسناً »

مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف والتقدير : ووصيتنا الإنسان بالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن إليها وهذا مثل قوله : « وقلوا للناس حسناً » أي قولاً حسناً أو ذا حسن ، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل ، وربما وجهه بتوجيهات آخر .

وقوله : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ، الخ » تتمم للتوصية بخطاب شفاهي للإنسان بنبيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك والوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكانه قيل : « قلنا للإنسان أحسن إلى والديك وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها .

ولم يقل : « وأن لا يطعها إن جاهداه على أن يشرك الخ » لما في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإيهام ولذلك قال أيضاً : « لتشرك بي ، بضمير المتكلم وحده فافهمه ويؤول معنى الجملة إلى أنتا نهيناه عن الشرك طاعة لها ورفضنا عنه كل إيهام .

وفي قوله : « ما ليس لك به علم » إشارة إلى علة النهي عن الطاعة فإن دعوتها إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراء على الله وقد نهى الله عن اتباع غير العلم قال : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٨ ، ويهذه المناسبة ذيلها بقوله : « إلى مرجعكم فانبشكم بما كنتم تعملون ، أي ساعلكم ما معنى أعمالكم ومنها عبادتكم الأصنام وشرككم بالله سبحانه .

ومعنى الآية : وعهدنا إلى الإنسان في والديه عهداً حسناً - وأمرناه أن أحسن إلى والديك - وإن بدلا جهدهما أن تشرك بهي فلا تطعها لأنه اتباع ما ليس لك به علم . وفي الآية - كما تقدمت الإشارة إليه - توبيخ تعريضي لبعض من كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين » معنى الآية ظاهر ، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها ، دلالة على وعد جميل منه تعالى وتطبيب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بالدين مشركين بمجاهدته على الشرك فمصاحها وفارقها ، يقول سبحانه : إن جاهداه على الشرك فمصاحها وهجرهما ففاته لم يكن بذلك بأس فإننا سنزره خيراً منها وندخله بإيمانه وعمله للصالح في الصالحين وهم المباد

المتصمون في الجنة، قال تعالى: « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » الفجر : ٣٠ .

وأما إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق .

قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » إلى آخر الآية، لما كان إيمان هؤلاء مقيداً بالعافية والسلامة مفسى بالإيذاء والابتلاء لم يعدته إيماناً بقول مطلق ولم يقل : « ومن الناس من يؤمن بالله بل قال : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » فالآية بوجه نظيرة قوله: « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج : ١١ .

وقوله: « فإذا أؤذي في الله » أي أؤذي لأجل الإيمان بالله بناء على أن في السببية كما قبل وفيه عناية كلامية لطيفة يحمله تعالى - أي جعل الإيمان بالله - طرفاً للإيذاء ولأن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب إليه تعالى انتساب الظروف إلى ظرفه وينطبق على معنى السببية والفرضية ونظيره قوله: « يا حسرتاً على ما فرطت في جنب الله » الزمر : ٥٦ ، وقوله : « والذين جاهدوا فينا » المنكوبت : ٦٩ .

وقيل : معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله و كأنه مبني على تقدير مضاف محذوف .

وفيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء في الله ما كان السبب فيه محض الإيمان بالله وهو قولهم : ربنا الله ، والإيذاء في سبيل الله ما كان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى : « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي » آل عمران : ١٩٥ ومن الشاهد على تغير الاعتبارين قوله في آخر السورة: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » حيث جعل الجهاد في الله طريقاً إلى الإمتداء إلى سبيله ولو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلك .

وقوله : « جعل فتنة الناس كعذاب الله » أي نزل العذاب والإيذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرز منه فوجع عن الإيمان إلى الشرك خوفاً وجزعاً من فتنهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم .

وقوله : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج ويسر لكم من بعدما أنتم فيه من الشدة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب .

و « ليقولن » بضم اللام صيغة جمع ، والضمير راجع إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمائر الأفراد الآخر راجعة إليها باعتبار اللفظ .

وقوله : « أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » إستفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان .

والمراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولي العقل إنساناً كان أو غيره كالجن والملك ، ولو كان المراد به جميع مخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بصيد .

قوله تعالى : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » من تمة الكلام في الآية السابقة والحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين والمنافقين بالفتنة والامتحان .

وفي الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيداً بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقاً غير مقيد والفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها .

وقد استدل بالآيتين على أن السورة أو خصوص هذه الآيات مدنية وذلك أن الآية تحدث عن النفاق والنفاق إنما ظهر بالمدينة بعد الهجرة وأما مكة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة ولا للمسلمين فيها إلا الذلة والإهانة والشدة والفتنة ولا للنبي ﷺ في المجتمع العربي يومئذ وخاصة عند قريش عزة ولا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوهم إلى أن يتظاهروا بالإيمان وهو ينوي الكفر .

على أن قوله في الآية : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » يخبر عن النصر وهو الفتح والغنيمة وقد كان ذلك بالمدينة دون مكة .

ونظير الآيتين قوله السابق : « ومن جاهد فلنما يجاهد لنفسه » ضرورة أن الجهاد والقتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة .

وهو مخيف : أما حديث النفاق فالذي جعل في الآية ملاكاً للنفاق وهو قولهم : آمننا بالله حتى إذا أودوا في الله راجعوا عن قولهم كان جائز التحقق في مكة كما في

غيرها وهو ظاهر بل الذي ذكر من الإيذاء والفتنة إنما كان بمكة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة .

وأما حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح والغنيمة فله مصاديق آخر يفرج الله بها عن عباده . على أن الآية لا تخبر عنه بما يدل على التحقق فقوله : « فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك قالوا إنا كنا معكم » يسدل على تحقق الإيذاء والفتنة حيث عبر بإذا الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجيء النصر حيث عبر عنه بإن الشرطية الدالة على إمكان الوقوع دون تحققه .

وأما قوله تعالى : « ومن جاهد » الخ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بمحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون » المراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة ، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة وقولهم لهم : « اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » نوع استمالة لهم وتطبيب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك واتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال : إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو ، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم ، ولذلك لم يقولوا : ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد .

فكأنهم قالوا : لنفرض أن اتباعتكم لسبيلنا خطيئة فإننا نحملها عنكم ونحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إننا نحمل عنكم خطاياكم عامة ومن جعلتها هذه الخطيئة .

وقوله : « وما هم بمحاملين من خطاياهم من شيء » رد لقولهم : « ولنحمل خطاياكم وهو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعتهم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لائحة بالراجمين وانتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله ورضى فهو الذي يؤاخذهم به ويمجازهم وهو سبحانه يصرح ويقول : « ما هم بمحاملين من خطاياهم من شيء » وقد عمم النبي لكل شيء من خطاياهم .

وقوله : « إنهم لكاذبون » تكذيب لهم لما أن قولهم : « ولنحمل خطاياكم » يشتمل على دعوى ضمنى أن خطاياهم تنتقل إليهم لو املوها وأن الله يميز لهم ذلك .

قوله تعالى : « ولحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » من تمام القول السابق في ردهم وهو في محل الاستدراك أي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعلها لكنهم حاملون أثقالاً وأحمالاً من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافاً إلى انتقال أنفسهم وأحمالها لما أنهم ضالّون مضلّون .

فلاية في معنى قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم » النحل : ٢٥ .

وقوله : « وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » فشرّكهم افتراءً على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأن الله يميّز لهم ذلك .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأيضاً ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالاً : نزلت سورة العنكبوت بمكة .

أقول : وقد نقل في روح المعاني عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية . وفي المجمع قيل : نزلت الآية يعني قوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا » في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله . عن ابن جريج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله : « ألم أحسب الناس أن يتركوا » الآية ، قال : أنزلت في أئس بمكة قد أقرؤوا بالإسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهجروا . قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردّوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا اليهم أنه نزل فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من لجأ فنزل الله فيهم : « ثم إن ربك لالذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن قتادة « ومن الناس من يقول آمنا بالله - إلى قوله - وليلمن المنافقين » قال : هذه الآيات نزلت في القوم الذين رذم المشركون إلى مكة ، وهذه الآيات العشر مدنية .

وفيه أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » قال : ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أذنوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذهم وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت امي : لا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يسجرون فاما بالمصافى فنزلت هذه الآية « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً » الآية .

وفي المجمع قال للكلبي نزل قوله : « ومن الناس من يقول » الآية في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ فحلفت أمه أسماء بنت مخزوم بن أبي جندل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تتسل رأسها ولا تدخل كنا حتى يرجع إليها فلما رأى ابنها أبو جهل والحارث ابنا هشام - وهما أخوا عياش لأمه - جزعها ركباً في طلبه حتى أتيا المدينة فلقياه وذكر له القصة فلم يزالا به حتى أخذ عليها الموائيق أن لا يصرفاه عن دينه وتبعهما وقد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت .

فلما خرجوا من المدينة أخذاه وأوثقاه كتاباً وجلده كل واحد منها مائة جلدة حتى برى من دين محمد جزعاً من الضرب وقال ما لا ينبغي فنزلت الآية وكان الحارث أشدهما عليه فحلف عياش لئن قدر عليه خارجاً من الحرم ليضربن عنقه .

فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حيناً ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وهاجر عياش وحسن إسلامه وأسلم الحارث بن هشام وهاجر إلى المدينة وبايع النبي ﷺ على الإسلام ولم يحضر عياش فلقبه عياش يوماً بظهر قبا ولم يشعر بإسلامه فضرب عنقه فقيل له : إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش ويكفي ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك فنزل : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » الآية .

أقول : وأنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات. وقد تقدم أن الذي يعطيه سياق آيات السورة أنها مكية محضة .

وفي الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال : سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : «الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا بالله وهم لا يفتنون» . ثم قال لي : ما الفتنة ؟ قلت : جعلت فداك الفتنة في الدين فقال : « يفتنون كما يفتن الذهب . ثم قال : يخلصون كما يخلص الذهب .

وفي الجمع قيل : إن معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم . وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « أو يلبسكم شيعاً » وفي تفسير الكلبي أنه لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتوضأ وأسبغ وضوءه ثم قام وصلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض .

فنزّل جبرئيل ولم يحرمهم من الخصلتين الأخيرتين فقال عليه السلام : يا جبرئيل ما بقاء امتي مع قتل بعضهم بعضاً ؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل : « الم أحسب الناس أن يتركوا » الآيتان فقال : لا بد من فتنة يبتلي بها الأمة بمد نبيها ليعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع وبقي السيف وافترق الكلمة إلى يوم القيامة .

وفي نهج البلاغة : وقام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها ؟ فقال عليه السلام : لما أنزل الله سبحانه قوله : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : يا علي إن امتي سيفتنون من بعدي .

وفي التوحيد عن علي عليه السلام - في حديث طويل وقد سأله رجل عن آيات من القرآن - وقوله : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت » يعني بقوله : من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء ههنا ليس بالرؤية فاللقاء هو البعث فانهم جميع ما في كتاب الله من لقاءه فإنه يعني بذلك البعث .

أقول : مراده ~~تفسير~~ نفى الرؤية الحسية والتفسير بلازم المعنى .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله » الآية قال : من أحب لقاء الله جاءه الأجل « ومن جاهد » نفسه عن اللذات والشهوات والمعاصي « فلنما يجاهد لنفسه إن الله لنفي عن المالمين » . « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً » قال : هما اللذان ولداه .

وفيه في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » قال : كان الكفار يقولون للمؤمنين : كونوا معنا فإن الذي تخافون أنتم ليس بشيء فإن كان حقاً نتحمل عنكم ذنوبكم ، فيعذبهم الله عز وجل مرتين : مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤا إلى النبي ﷺ يسلمون يقولون : إنه يحرّم الحمر ويحرّم الزنا ويحرّم ما كانت تصنع العرب فارجموا فنحن نعمل أوزاركم فنزلت هذه الآية : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » .

وفيه أخرج أحمد عن حذيفة قال : سألت رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي ﷺ : من سنّ خيراً فاستنّ به كان له أجره ومن أسوأ من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ شراً فاستنّ به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وفي بعضها تفسير قوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » بذلك .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ - ١٤ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ - ١٥ . وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَقْوَهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - ١٦ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ١٧ . وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ - ١٨ . أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيهِ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ - ١٩ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٢٠ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ - ٢١ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ - ٢٢ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْتَوْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٢٣ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ - ٢٤ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ - ٢٥ . فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٢٦ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الثُّبُورَةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي
 الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ - ٢٧ . وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
 الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ - ٢٨ . أَنتُمْ لَتَأْتُونَ
 الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ
 قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - ٢٩ .
 قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ - ٣٠ . وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا
 إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا
 ظَالِمِينَ - ٣١ . قَالَ إِنْ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ - ٣٢ . وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
 لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا
 مُنْجِيوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ - ٣٣ . إِنَّا مُنْزِلُونَ
 عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ - ٣٤ .
 وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - ٣٥ . وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
 شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ - ٣٦ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
 دَارِهِمْ جَاثِمِينَ - ٣٧ . وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ - ٣٨ .
 وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
 فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ - ٣٩ . فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
 الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
 أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ - ٤٠ .

(بيان)

لما ذكر سبحانه في صدر السورة أن الفتنة سنة إلهية لا معدل عنها وقد جرت
 في الامم السابقة عقب ذلك بالإشارة إلى قصص سبعة من الأنبياء الماضين وأهمهم وهم :
 نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام فنتهم الله وامتنعهم
 فنجى منهم من نجى وهلك منهم من هلك ، وقد ذكر سبحانه في الثلاثة الاول النجاة
 والهلاك معا وفي الأربعة الأخيرة الهلاك فحسب .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما
 فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » ، في الجمع : الطوفان الماء الكثير الفامر لأنه يطوف
 بكثرتة في نواحي الأرض ، انتهى . وقيل : هو كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة
 من السيل والريح والظلام والغالب استعماله في طوفان الماء .

والتعبير بألف سنة إلا خمسين عاما دون أن يقال : تسعمائة وخمسين سنة للتكثير
 والآية ظاهرة في أن الألف إلا خمسين مدة دعوة نوح عليه السلام ما بين بعثته إلى أخذ
 الطوفان فيغايير ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره عليه السلام وقد تقدمت الإشارة إلى
 ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سورة هود ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأنجيناها وأصحاب السفينة وجعلناها آية للمتقين » أي فأنجينا

نوحاً وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهل وعدة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين .

وقوله : « وجعلناها آية للعالمين ، الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة وأما رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد ، والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة ٣٣ .

قوله تعالى : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، معطوف على قوله : « نوحاً » أي وأرسلنا إبراهيم إلى قومه .

وقوله لقومه : « اعبدوا الله واتقوه ، دعوة إلى التوحيد وإنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر .

على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه وإنما يعبدون غيره زعماً منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعالة في العالم المقربة عنده كالملائكة والجن ولو عبد لكان معبوداً وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله : « اعبدوا الله ، تعيد الدعوة إليه وحده وإن لم تعيد بأداة الحصر .

قوله تعالى : « إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلفون إنكأ » إلى آخر الآية ، الأوثان جمع وثن بفتح تين وهو الصنم ، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً .

وقوله : « إنما تعبدون من دون الله آوثاناً ، بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقة وبالجملة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى « آوثاناً ، منكر للدلالة على وهن أمرها وحكون أوهيتها دهوى مجردة لا حقيقة وراءها ، أي لا تعبدون من دون الله إلا آوثاناً من أمرها كذا وكذا .

ولذا عقب الجملة بقوله : « وتخلفون إنكأ » أي وتفتعلون كذباً بتسميتها آلهة وعبادتها بعد ذلك فهناك إله يجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان .

وقوله : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، تعطيل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها وعصته أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المشرقيين من الملائكة والجن إنما تعبدونهم لطلب النفع وهو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدبروا عليكم الرزق لكنهم ليسوا بملكون لكم رزقاً

فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب المدّة لبقائكم لأنه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممدأ لبقائكم والملك تابع للخلق والإيجاد .

ولذلك عقبه بقوله : « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذي يملكه فلا تصدوموا بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم .

وقوله : « إليه ترجعون » في مقام التعليل لقوله : « واعبدوه واشكروا له » ولذا جيء بالفصل من غير عطف ، وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المواد لم يكن لعبادة الإله سبب محصل لأن الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات والقربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر وخلافها فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة والشكر دون ابتغاء الرزق .

قوله تعالى : « وإن تكذبتوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين » الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام ، وذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد .

ومضى الشرط والجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنة الجارية في الامم المشركة وقد كذب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس عليّ بما أنا رسول إلا البلاغ المبين .

ويمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفهم تكذيبهم شيئاً حلّ بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن لهم من دون الله من ولي ولا نصير ، فكذلك أنتم ، وقوله : « وما على الرسول » يناسب الوجهين جميعاً .

قوله تعالى : « أولم يروا كيف بيدي الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير » هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقم الحجة على المواد وترفع استبعادهم له متعلقة بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم : « إليه ترجعون وإن تكذبتوا فقد كذب أمم من قبلكم » .

فقوله : « أولم يروا » الخ الضمير فيه للكاذبين من جميع الأمم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية ، وقوله : « كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » في موضع المقول لقوله : « يروا » بمطف « يعيده » على موضع « يبدىء » ، خلافاً لمن يرى عطفه على « أولم يروا » والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى : أولم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أي إنها من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن ، وقوله : « إن ذلك على الله يسير » الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء وإذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهي جائزة التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار وإنزال للسائرين إليه في دار القرار .

وقول بعضهم : إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على الماد الذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي ﷺ أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم وتفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق وحصر أو تحديد في عدتهم وعدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد في القدرة الإلهية فهو ينشئ النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأولى فالآية في معنى قوله : « ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون » الواقعة : ٦٢ .

قوله تعالى : « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون » من مقول القول ، والظاهر أنه بيان لقوله : « ينشئ النشأة الآخرة » وقلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه وجعل باطنه ظاهراً وهذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ .

وفسروا القلب بالرد قال في الجمع : والقلب هو الرجوع والرد فمعناه أنكم تردون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع والضر إلا الله . انتهى وهذا

معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله والرد إليه وهو وقوفهم موقفاً تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية في معنى قوله : « وردوا إلى الله مولاهم الحق وذل عنهم ما كانوا يفترون » يونس : ٣٠ .

وحصل المعنى : أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء . وهم المجرمون ويرحم من يشاء وهم غيرهم واليه تردون فلا يحكم فيكم غيره .

قوله تعالى : « وما أنتم بمجزيين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » من مقول القول وتوصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ .

فقوله : « وما أنتم بمجزيين في الأرض ولا في السماء أي إنكم لا تقدرُونَ أن تمجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه والخروج من حكمة وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء ، فالآية تجري مجرى قوله : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الرحمن : ٣٣ .

وقيل : للكلام في معنى « من في السماء » فحذف من لدلالة الكلام عليه والتقدير وما أنتم بمجزيين في الأرض ولا من في السماء بمجزيين في السماء .

وهو بعيد ودلالة الكلام عليه غير مسلمة ولو بني عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن والملك والمعنى : وما أنتم معانير الخلق بمجزيين في الأرض ولا في السماء .

وقوله : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيضيقكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوي جانبكم ويتم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه .

فالآية - كما ترى - تنفي ظهورهم على الله وتمعيزهم له بالخروج والامتناع عن حكمة بأقسامه فلا هم مستقلون بذلك وهو قوله : « وما أنتم بمجزيين » الخ ولا غيرهم مستقل بذلك وهو قوله : « وما لك من دون الله من ولي » ولا المجموع منهم ومن غيرهم يعجزه تعالى وهو قوله : « ولا نصير » .

قوله تعالى : « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك

لهم عذاب ألم ، خطاب مصروف إلى النبي ﷺ خارج من مقول للقول السابق « قل سيروا في الأرض ، الخ والمطلوب فيه أن يثبت ﷺ صريح الحق فيمن يشقى ويهلك يوم القيامة فإنه أهدى ذلك في قوله أولاً : « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء . »

ومن الدليل عليه الخطاب في « اولئك » مرتين ولو كان من كلام النبي ﷺ لقال : « اولئك » .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله : « من رحمتي » فإن الانتقال من مثل قولنا : اولئك يسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله : « اولئك يسوا من رحمتي » يفيد التصديق والاعتراف مضافاً إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعمين لأهل العذاب ، ويؤيد ذلك أيضاً تكرار الإشارة وما في السياق من التأكيد . وكان في تخصيص النبي ﷺ بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة وعزلاً لهم عن صلاحية السمع لثله وهم لا يؤمنون .

والمراد بآيات الله - على ما يفيد إطلاق اللفظ - جميع الأدلة الدالة على الوحدانية والنسوة والمعاد من الآيات الكونية والمعجزات التنبؤية ومنها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل معومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام والوجه فيه الإشارة إلى أهمية الإيمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله وهو ظاهر .

والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب ويلازم الجنة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته » الجانية : ٣٠ ، وقوله : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعداء لهم عذاباً أليماً » الانسان : ٣١ .

والمراد بإسناد اليأس إليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة والجنة الخالدة وإما إنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر .

والمعنى : والذين جعلوا آيات الله الدالة على الدين الحق وخاصة المعاد اولئك يسوا من الرحمة والجنة واولئك لهم عذاب ألم .

قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار ، الخ ، تفرّيع على قوله في صدر القصة : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » .

وظاهر قوله : « قالوا اقتلوه أو حرّقوه » أن كلا من طرفي التردد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهو قولهم أول ما اتتمروا ليجازوه وإنتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قيل « قالوا حرّقوه وانصروا آهتكم ، الأنبياء : ٦٨ ، ويمكن أن يكون التردد من الجميع لتردد في أمره أولاً ثم اتفقهم على إحراقه .

وقوله : « فأنجاه الله من النار » فيه حذف وإيجاز وتقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا ناراً فألقوه فيها فأنجاه الله منها ، وقد فصلت القصة في مواضع من كلامه تعالى .

قوله تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أولئنا مودة بينكم في الحياة الدنيا » إلى آخر الآية إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستئناس بسنة من يعظمونه ويحترمونها بجانبه كالأباء للأبناء وللرؤساء للمعظمين لتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم وبالأخرة الأمة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولاً بها قائمة على ساقها .

فلاستئناس بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار المودات الاجتماعية يرى العمامة ذلك بعضهم من بعض فتبعته المودة القومية على تقليده والاستئناس به مثله ثم هذا الاستئناس نفسه يحفظ المودة القومية ويقم الاتحاد والإتفاق على ساقه .

هذه حال العامة منهم وأما الخاصة فربما ركنوا في ذلك إلى ما يحسبونه حجة وما هو بحجة حكفولهم : إن الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهن العبادي فمن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة والجن ليربونا إليه زلفى ويشفوا لنا عنده .

فقوله : « إنما اتخذتم من دون الله أولئنا مودة بينكم في الحياة الدنيا » خطاب منه ~~للناس~~ لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية ، وقد أجابوه بذلك حيث سألم عن شأنهم « إذ قال لأبيه وقومه

ما هذه التائيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، الأنبياء : ٥٣ ،
 « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك
 يفعلون » الشعراء : ٧٤ .

ومن هنا يظهر أن قوله : « مودة بينكم » صالح لأن يكون منصوباً بنزع
 الحافظ بتقدير لام التعليل والمودة على هذا سبب مؤدٍ إلى اتخاذ الأوثان ، وأن يكون
 مفعولاً له ، والمودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان ، لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه
 الثاني على ما سيظهر .

ثم عقب **عَلَيْكُمْ** بقوله : « إنما اتخذتم » الخ ، بقوله : « ثم يوم القيامة يكفر
 بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » بيّن لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة وهو
 باطن هذه المودة المقصودة الذي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع
 القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم وأكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه وتوافقوا
 لكنهم سيبدو لهم حقيقة علمهم ويلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض وينكره
 بعضهم على بعض .

والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم وتبرّئهم منهم ، كما قال تعالى :
 « سيكفرون بمبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً » مريم : ٨٢ ، وقال : « ويوم القيامة
 يكفرون بشررككم » فاطر : ١٤ ، وفي معناه : تبرّئ المتبوعين من تابعيهم ، كما قال
 تعالى : « إذ تبرّء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب »
 البقرة : ١٦٦ ، والمراد بلمن بعضهم بعضاً لمن كل بعض صاحبه ، قال تعالى : « كلما
 دخلت أمة لمنت أختها » الأعراف : ٣٨ .

ثم عقب ذلك بقوله : « وما واكم النار وما لكم من ناصرين » إشارة إلى لحوق
 الرجال ووقوع الجزاء وهو النار التي فيها الهلاك المؤبد ولا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم
 العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا ويتعاونوا ويتعاضدوا في الحياة لكنها
 عادت يوم القيامة معاداة ومضادة وأورثت تبرّياً وخذلاناً .

قوله تعالى : « فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم »
 أي آمن به لوط والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء والمعنى واحد .

وقوله : « وقال إني مهاجر إلى ربي » قبل الضمير راجع إلى لوط ، وقيل : راجع إلى إبراهيم ويؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين » الصافات : ٩٩ .

وكان المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه وخروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون ولا يمنعون من عبادة ربه فعدوا المهاجرة مهاجرة إلى الله من الهماز المثالي .

وقوله : « إنه عزيز حكيم » أي عزيز لا ينزل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه . قوله تعالى : « وهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » معناه ظاهر .

قوله تعالى : « وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل ويعود إلى عامله والفرق بينه وبين الأجرة أن الأجرة تختص بالجزاء الدنيوي والأجر يعم الدنيا والآخرة ، والفرق بينه وبين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا في الخير والنافع ، والجزاء يعم الخير والشر والنافع والضار .

والغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبودي الذي أعدّه الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب ودرجات الولاية ومنها الجنة ، نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « إنه من ينشئ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » يوسف : ٩٠ ، وقوله : « وكذلك مكثنا ليوسف في الأرض يتبوّء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » يوسف : ٥٦ إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن .

فقوله : « وآتيناه أجره في الدنيا » يمكن أن يكون المراد به إتياء الأجر الدنيوي الحسن والأنسب على هذا أن يكون « في الدنيا » متعلقاً بالأجر لا بالإتياء وربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر : « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين » النحل : ١٢٢ ، فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو الميثة الحسنة وإتيائها فعلية إعطائها دون تقديرها وكتابتها .

ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعدّ لمامة المؤمنين في الآخرة من مقامات

القرب في حقه **تَبَيَّنَ** وإبتائه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته **تَبَيَّنَ** في قصصه من تفسير سورة الأنعام .

وقوله : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزء الأول من الكتاب .

قوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » أي وأرسلنا لوطاً أو واذكر لوطاً إذ قال لقومه ، وقوله : « إنكم لتأتون الفاحشة » إخبار بداعي الاستمجاب والإنكار ، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران .
وقوله : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » استئناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكد ، وكان المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل « لتأتون » .

قوله تعالى : « أنتمكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر » إلى آخر الآية ، استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع ولا يقبله نولب . ولذا أكد بالنون واللام ، وهذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل النواط وبقطع السبيل إهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء ، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن ، وبإتيانهم المنكر في ناديهم - والنادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه ولا يسمى نادياً إلا إذا كان فيه أهل - الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمراى من الجماعة .

وقيل : المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارة بديارهم فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالحذف فأيتهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه ويفرمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاض يقضي بذلك وقيل : بل كانوا يقطعون الطرق ، وقد عرفت أن السياق يقضي بخلاف ذلك .

وقيل : المراد بإتيان المنكر في النادي أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على من مر بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط ونحو ذلك ، وقد عرفت ما يقتضيه السياق .

وقوله: «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا انتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين» استهزاء وسخرية منهم ، ويظهر من جوابهم أنه كان ينزهم بعذاب الله وقد قال الله في قصته في موضع آخر : « ولقد أنذرهم بطشتنا فآثموا بالنذر » القمر : ٣٦ .

قوله تعالى : « قال رب انصرني على القوم المفسدين » سؤال للفتح ودعاء منه عليهم ، وقد عدّهم مفسدين لمعلمهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء .

قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » إجمال قصة هلاك قوم لوط ، وقد كان ذلك يرسل من الملائكة أرسلهم الله أولاً إلى إبراهيم ~~عليه السلام~~ فيبشروه وبشروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، والقصة مفصلة في سورة هود وغيرها .

وقوله : « قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية » أي قالوا لإبراهيم ، وفي الإتيان بلفظ الإشارة القرية - هذه القرية - دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم ~~عليه السلام~~ نازلاً بها ، وهي الأرض المقدسة .

وقوله : « إن أهلها كانوا ظالمين » تمثيل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمّر للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذي كان للناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل : إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون .

قوله تعالى : « قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بما نتجيبه وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين » ظاهر السياق أنه ~~عليه السلام~~ كان يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب بأن فيها لوطاً وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب وهم أهلها إلا امرأته .

لكنه ~~عليه السلام~~ لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل ، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوفه ويزعجه ويفزع به قهره عليهم بل كان ~~عليه السلام~~ يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط ، فاجيب بأنهم مأمورون بإحجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهلها إلا امرأته كانت من الغابرين .

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة :
 « فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم
 أوّاه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير
 مردود ، هود : ٧٦ ، فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم
 لوط لا عن لوط نفسه .

فظاهر كلامه عليه السلام في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جراه
 الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره وأجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم من فيها
 وعالمون بأن فيها لوطاً ومعه أهله من لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه وأهله إلا
 امرأته ، لكن الذي أراده إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاجيب
 بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود .

وللقوم في قوله : « إن أهلها كانوا ظالمين » ، وقوله : « قال إن فيها لوطاً »
 مشاجرات طويلة أعرضنا عن التمرض لها لعدم الجدوى ، من أراد الوقوف عليها
 فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا
 تخف ولا تحزن ، إلى آخر الآية ، ضميراً الجمع في « سيء بهم وضاق بهم » للرسل والباء
 للسببية أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاقته بسببهم لكونهم في
 صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء وضعف لوط
 من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره .

وقوله : « وقالوا لا تخف ولا تحزن ، أي لا خطر محتملاً هددك ولا مقطوعاً يقع
 عليك فإن الخوف إنما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع .

وقوله : « إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين » أي السابقين في
 العذاب تعليل لنفي الخوف والحزن .

قوله تعالى : « إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ،
 بيان لما يشير إليه قوله : « إنا منجوك وأهلك » من العذاب ، والرجز العذاب .

قوله تعالى : « ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون » ضمير التانيث للقرية

والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب .

وهي اليوم مجهولة المهل لا أثر منها وربما يقال : إن الماء غمرها بعد وهي بحر لوط ، لكن الآية ظاهرة - كما ترى - أنها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى : « وإنها لبسبيل مقيم » الحجر : ٧٦ ، وقوله : « وإنكم لتمرؤن عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلن » الصافات : ١٣٨ .

قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعبياً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين » يدعوهم إلى عبادة الله وهو التوحيد وإلى رجاء اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لا يفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها - على ما ذكر في قصتهم في مواضع أخر - نقص الميزان والمكيال .

قوله تعالى : « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب ، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض وهو كناية عن الموت والمعنى : فكذبوا شعبياً فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك لهم .

وقال في قصتهم في موضع آخر : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » هود : ٩٤ . ويستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحة والرجفة .

قوله تعالى : « وعاداً وثمود قد تبين لكم من مساكنهم » إلى آخر الآية غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد وثمود وكذا في الآية التالية بدأ بذكر قارون وفرعون وهامان بخلاف قصص الامم المذكورين سابقاً حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح وإبراهيم ولوط وشيب : وقوله : « وعاداً وثمود » منصوبان بفعل مقدر تقديره واذكر عاداً وثمود .

وقوله : « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة إليهم وتأكيد تعلقهم بها وصدده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة ، ولذا قال بعضهم : إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطرة الساذجة .

لكن الظاهر كما تقدم في تفسير قوله : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح عليه السلام وعاد وعود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدامهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله ودين التوحيد وهو دين الفطرة .

قوله تعالى : « وقارون وفرعون وهامان وقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا لسلقين » سبق استعارة كناية من الغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فكللا أخذنا بذنبه » إلى آخر الآية أي كل واحدة من الامم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل فقال : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » والحاصب الحجارة وقيل : الريح التي ترمي بالحصى وعلى الأول فهم قوم لوط ، وعلى الثاني قوم عاد « ومنهم من أخذته الصيحة » وهم قوم ثمود وقوم شعيب « ومنهم من خسفنا به الأرض » وهو قارون « ومنهم من أغرقنا » وهم قوم نوح وفرعون وهامان وقومها .

ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة وما انتهى إليه أمر تلك الامم من الأخذ والعذاب فيبين بيان عام أن الذي أوقعهم فيها وقومالم يكن يظلم منه سبحانه بل يظلم منهم لأنفسهم فقال : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنة والامتحان وهي السنة الالهية التي لا معدل عنها فمن أهدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال : والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة قال تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » يعني يتبرأ بعضكم من بعض . الحديث .

أقول : وروى هذا المعنى في التوحيد عن علي عليه السلام في حديث طويل يجب فيه عما سئل عنه من تهافت الآيات وفيه : والكفر في هذه الآية البراءة يقول : يتبرأ

بعضهم من بعض، ونظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان: «إني كفرت بما أشركتمون من قبل»، وقول إبراهيم خليل الرحمن: «كفرنا بكم» أي تبرأنا.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي ﷺ نهى عن الخذف^(١) وهو قول الله: «وتأتون في ناديبكم المنكر».

أقول: وروى هذا المعنى أيضاً عن عدة من أصحاب الجوامع عن أم هانئ بنت أبي طالب ولفظ الحديث: قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: «وتأتون في ناديبكم المنكر» قال: كلنوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل ويسخرون منهم.

وفي الكافي بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال: فقال لهم إبراهيم: لماذا جئتم؟ قالوا: في إهلاك قوم لوط. فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أهل كونهم؟ فقال جبرئيل: لا. قال: فإن كان فيها خمسون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها ثلاثون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها عشرون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا. قال: فإن فيها لوطاً؟ قالوا: نحن أعلم بما فيها لننجينه وأهل إلا امرأته كانت من الغابرين.

قال الحسن بن علي عليه السلام: لا أعلم هذا القول إلا وهو يستقيم وهو قول الله عز وجل: «يحادلنا في قوم لوط».

* * *

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ — ٤١ .
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ — ٤٢ .

(١) الخذف بالحصاة والنواة الرمي بها من بين السابتين .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ - ٤٣ . خَلَقَ
 اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ - ٤٤ .
 أَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ
 الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ - ٤٥ .
 وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
 وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ
 وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ - ٤٦ . وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ
 بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ - ٤٧ . وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
 وَلَا تَخْطُهُ يَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ - ٤٨ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ
 فِي صُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ - ٤٩ .
 وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ
 وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ - ٥٠ . أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
 يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ - ٥١ . قُلْ كَفَىٰ
 بِاللَّهِ يَبِّنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّذِينَ آمَنُوا
 بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ - ٥٢ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ - ٥٣ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ - ٥٤ . يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ٥٥ .

(بيان)

تتضمن الآيات تذييلاً لقصص أولئك الأمم الماضية المهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولياء من دون الله فبين فيه أن بناءهم ذلك أو هزل البناء ينادي ببطلانه وفساده خلق السماوات والأرض وأنهم ليس لهم من دونه من ولي كما يذكر هذا الكتاب .

ومن هنا ينتقل إلى أمر النبي ﷺ بتلاوة هذا الكتاب الذي أوحى إليه وإقامة الصلاة ودعوة أهل الكتاب بقول لئن ومجادلة حسناء ويجب عن اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غير القرآن وأن يعجلهم بالعذاب الذي ينذرهم به .

قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » إلى آخر الآية ، العنكبوت معروف ويطلق على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث .

العناية في قوله : « مثل الذين اتخذوا » الخ ، باتخاذ الأولياء من دون الله ولذا جيء بالموصول والصلة كما أن العناية في قوله : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » إلى اتخاذها البيت فيؤل المعنى إلى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتاً له نبأ ، وهو الوصف الذي يدل عليه تنكير « بيتاً » .

ويكون قوله : « إن أو هن البيوت لبيت العنكبوت » بياناً لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت ولم يقل : إن أو هن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير .

والمعنى : أن اتخذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولونهم ويركنون

اليهم كاتخاذ العنكبوت بيتاً هو أو هن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكن شخصاً ولا يقرب من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرّون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ومورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله ، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدبيراً لأنهم من جلب الخير اليهم ودفع الشر عنهم والشفاعة في حقهم .

والآية - مضافاً إلى إيفاء هذه النكتة - تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الامور وشأن من الشؤون ولياً من دون الله يركن اليه ويراه مستقلاً في أثره الذي يرجوه منه ويحسب لم يعد من الأصنام إلا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة والمؤمنين كما قال تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» يوسف: ١٠٦ .
وقوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء ، كذا قيل .

قوله تعالى : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » يمكن أن يكون « ما » في « ما يدعون » موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و « من » في « من شيء » على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح الاحتمالات الأولان وأرجحها أولهما .

والمعنى : على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أي أن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف تأكيداً للفعل وزيادة عليه حيث لم يعمل ما يدعونه شيئاً .

والمعنى : على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه ولا يحهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله ، وليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها .

ويؤكد هذا المعنى الإسمان الكريمان : العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق والإيجاد أحد ، الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوت تدبير خلقه إلى أحد ، وهذا كالتمهيد لما سيبيّن في قوله : « خلق الله السماوات والأرض بالحق » .

قوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » يشير إلى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تفرع أصمّاع عامة الناس ، لكن الإشراف على حقيقة معانيها ولبّ مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور ولا ينجمد على ظواهرها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « ولا يعقلها » دون أن يقول : وما يؤمن بها أو ما في معناه .

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلا تلقّي ألفاظها وتصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها وسبر لأغوارها ، ومن سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يفور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها الأنيقة .

وفيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ المنكوبات بيتاً هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري ودعوى خالية من البيّنة بل متكّ على حجة برهانية وحقيقة حقة ثابتة وهي التي تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين » المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها ، كما قال تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لا يتغير وسنة إلهية جارية لا تتخلف ولا تتخلف ، والخلق والتدبير لا يختلفان حقيقة ولا بنفك أحدهما عن الآخر^(١) ، وإذا كان الخلق والصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضرورياً ولا محيص فالتدبير أيضاً له ولا محيص وما من شيء غيره تعالى إلا وهو مخلوقه القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نقماً ولا ضراً ، ومن المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنياً

(١) وذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون ومعناه تعقيب حادث بمحدث آخر على نظم وترتيب يؤدي إلى غايات حقة وحقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق والايحاد باعتبار قياس الشيء إلى آخر مثله وانضمامه إليه فليس وراء الخلق والايحاد شيء منه .

في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه .
 فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئاً
 بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جارياً على اللعب وتقويضه تعالى أمر التدبير اليه
 لعباً منه تعالى وتقديس إذ ليس إلا فرضاً لا حقيقة له ووهماً لا واقع له وهو معنى اللعب .
 ومنه يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى
 كما أن بيت العنكبوت كذلك .

وقوله : « إن في ذلك لآية للمؤمنين » تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية
 لهم ولغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم .

قوله تعالى : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى
 عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » الخ ، لما ذكر إجمال قصص الأمم وما انتهى
 اليه شركهم وارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من
 ذلك - مستأنفاً للكلام - إلى أمره ﷺ بتلاوة ما أوحى اليه من الكتاب لكونه
 خير رادع عن الشرك وارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن
 حججاً نيرة على الحق وتشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد
 والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تأليه ومن سمعه .

وشفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خير العمل وعلل ذلك بقوله : « إن الصلاة
 تنهى عن الفحشاء والمنكر » والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن
 الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة .

فلطبيعة هذا التوجه المبادي - إذ أتى به العبد وهو يكرره كل يوم خمس مرات
 ويداوم عليه وخاصة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به وهم فيه
 بما اهتم به - أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشعنه الذوق الديني كقتل النفس
 عدواناً وأكل مال اليتيم ظلماً والزنا واللواط، وعن كل ما ينكره الطبع السليم والفترة
 المستقيمة ردعاً جامعاً بين التلقين والعمل .

وذلك أنه يلقنه أولاً بما فيه من الذكر الإيمان بوحديته تعالى والرسالة وجزاء
 يوم الجزاء وأن يخاطب ربه بإخلاص العبادة والاستعانة به وسؤال الهداية إلى صراطه

المستقيم متعوذاً من غضبه ومن الضلال ، ويحمله ثانياً على أن يتوجه بروحه وبدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء ويذكر ربه بحمده والثناء عليه وتسيحه وتكبيره ثم السلام على نفسه وأترابه وجميع الصالحين من عباد الله .

مضافاً إلى حمله إياه على التطهر من الحدث والحبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرز عن الغضب في لباسه ومكانه واستقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتة ، ولو أنك وكلت على نفسك من يربيتها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتعلّى بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاة ولا روضك بأزيد مما تروضك به .

وقد استشكل على الآية بأنها كثيراً ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر ولا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر .

ولذلك ذكر بعضهم أن الصلاة في الآية بمعنى الدعاء والمراد الدعوة إلى أمر الله والمعنى : أقم الدعوة إلى أمر الله فإن ذلك يردع الناس عن الفحشاء والمنكر . وفيه أنه صرف الكلام عن ظاهره .

وذكر آخرون أن الصلاة في الآية في معنى النكرة والمعنى أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو كذلك وليس المراد الاستفراق حتى يرد الإشكال .

وذكر قوم أن المراد نهيها عن الفحشاء والمنكر ما دامت قائمة والمصلي في صلاته كأنه قيل : إن المصلي ما دام مصلياً في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء والمنكر .

وقال بعضهم : إن الآية على ظاهرها والصلاة بمنزلة من ينهى ويقول : لا تفعل كذا ولا تفترق كذا لكن النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهي الصلاة بأعظم من نهي تعالى كما في قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » النحل ، ٩٠ ، ونهيه تعالى لا يستوجب الانتهاء وليس الإشكال إلا مبنياً على توهم استلزام النهي للاتتهاء وهو توهم باطل .

وعن بعضهم في دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى : « أقم

الصلاة لذكري » ومن كان ذا كراً لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه وكل من تراه يصلي ويأتي بالفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يصل لكان أشد إتياناً فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره .

وأنت خبير بأن شيئاً من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم والتعليل في الآية فإن الذي يمطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة عن الفحشاء والمنكر فتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر وتطهر عن قذارة الذنوب والآثام .

فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداد التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني، ولا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلاً بها كما في الجواب الثالث ، ولا أن المراد هو التوسل إلى تلقى نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها كما في الجواب الرابع، ولا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس .

فأخفق في اجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجه خاص عبادي إلى الله سبحانه وهو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب والعلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التي تضعف الذكر وتقربه من الغفلة والانصراف عن حاق الذكر فكلمة قوي الذكر وكمل الحضور والخشوع وتمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر وكلما ضعف ضعف الأثر .

وأنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس وهو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم والحج والزكاة والخمس وعامة الواجبات الدينية ولا يفرق بين طاهر ونجس وحلال وحرام فيذهب لوجهه لا يلوي على نبي، ثم إذا قست إليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعاً عن كثير مما يفترقه تارك الصلاة غير مكثرت به ثم إذا قست إليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعاً منه وعلى هذا القياس .

وقوله : « ولذكر الله أكبر » قال الراغب في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره . وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل : الذكر ذكران ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، وكل قول يقال له ذكر . انتهى .

والظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول وتسمية اللفظ ذكراً إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي والذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل .

والصلاة تسمى ذكراً لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل وتحميد وتنزيه وهي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها تمثل لمبودية العبد لله سبحانه كما قال : « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » الجمعة : ٩ ، وهي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير إليه قوله تعالى : « وأقم الصلاة لذكري » طه : ١٤ .

والذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسياناً أو إدامة استحضاره ، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان وأعلاه كعباً وأعظمه قدراً وأزراً فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للانسان ومفتاح كل خير .

ثم إن الظاهر من سياق قوله : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أن قوله : « ولذكر الله أكبر » متصل به مبين لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما بين قبله ، فيقع قوله : « ولذكر الله أكبر » موقع الاضراب والترقي ويكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكانه قيل : أقم الصلاة لترددك عن الفحشاء والمنكر بل الذي تفيد من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير والنهي عن الفحشاء والمنكر بمض الخير .

ومن المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة

والجملة أيضاً واقعة موقع الإضراب ، والمعنى : بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و « ذكر الله » على الاحتمالين جميعاً من المصدر المضاف إلى مفعوله والمفضل عليه لقوله : « أكبر » هو النهي عن الفحشاء والمنكر .
ولهم في معنى الذكر وكون المضاف إليه فاعلاً أو مفعولاً للمصدر وكون المفضل عليه خاصاً أو عاماً أقوال أخر .

ف قيل : معنى الآية : ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى وذلك أن الله تعالى يذكر من ذكره لقوله : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ ، وقيل : المعنى : ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة ، وقيل : المعنى : لذكر الله العبد أكبر من كل شيء .
وقيل : المعنى : لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : المعنى : لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة ، وقيل : المعنى : لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله ، وقيل : المعنى : للصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وقيل : المعنى : لذكر العبد لله عند الفحشاء والمنكر وذكر نبيه عنها أكبر من زجر الصلاة وردعها ، وقيل : إن قوله : « أكبر » معرّى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضل عليه كقوله : « ما عند الله خير من الله » .

فهذه أقوال لهم متفرقة أغضنا عن البحث عما فيها إشاراً للاختصار ، والتدبر في الآية يكفي مؤنة البحث على أن التحكم في بعضها ظاهر لا يخفى .

وقوله : « والله يعلم ما تصنعون » أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حثٌ وتحريض على المراقبة وخاصة على القول الأول .

قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » لما أمر في قوله : « اتل ما أوحى إليك » الخ ، بالتبليغ والدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقبه ببيان كيفية الدعوة فهي عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود والنصارى ويلحق بهم الجوس والصابئون - إلا بالمجادلة - التي هي أحسن المجادلة .

والمجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظاً وطعنًا وإهانة ، فمن حسنها أن تقارن

رفقاً وليناً في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنو منه حتى يتفقا ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسناً على حسن فكانت أحسن .

ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم ، فإن المراد بالظلم بقريظة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين والاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجبـدال نوع مذلة وهوان للمجادل ويمتد به تمويهاً واحتيالاً لصفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المهادلة بالأحسن .

ولهذا أيضاً عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم وبنساء المهادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحق فقال : « وقولوا آمناً بالذي أنزل البنا وأنزل اليك وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يحمد بآياتنا إلا الكافرون » أي على تلك الصفة وهي الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله أنزلنا إليك القرآن .

وقيل : المعنى : مثل ما أنزلنا إلى موسى وعيسى نكتب أنزلنا إليك الكتاب وهو القرآن .

فقوله : « فالذين آتيناهم الكتاب » الخ ، تفريع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلاً في الاسلام لله وتصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله ، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يحمد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلا الكافرون وهم الساترون للحق بالباطل .

وقد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين والمشار إليه هؤلاء أهل الكتاب وهو بعيد ، ومثله في البعد إرجاع الضمير في « يؤمن به » إلى النبي ﷺ .

وفي قوله : « ومن هؤلاء من يؤمن به » نوع استقلال لمن آمن به من المشركين .

قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط ، والمراد به

في الآية الثاني بقرينة المقام ، والخط الكتابة ، والمبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول ، ويقال أيضاً للذي يبطل الحق أي يدعي بطلانه ، والأنسب في الآية المعنى الثاني وإن جاز أن يراد المعنى الأول .

وظاهر التعبير في قوله : « وما كنت تتلو » الخ ، نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر : « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » يونس : ١٦ .

وقيل المراد به نفي القدرة أي ما كنت تقدر أن تتلو وتخط من قبله والوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجّة وقد أقامها لتثبيت حقيقة القرآن ونزوله من عنده .
وتقييد قوله : « ولا تخطه » بقوله : « بميمتك » نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل : رأيتك بعيني وسمعتك بأذني .

والمعنى : وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتاباً ولا كان من عادتك أن تخط كتاباً وتكتبه - أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك أمياً - ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق لعمري أنه لخط لكتابك .
تحسن القراءة والكتابة واستمرت على حسن القراءة والكتابة .
ومما شرتك معهم لم يبق محل ريب لهم في أمر القرآن النازل نيفت أن كلام الله نزل وليس تليقاً لفقته من كتب السابقين ونقلته من أقاصيصهم وغيرهم حتى يرقب المبطلون ويمتدروا به .

قوله تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحجد بآياتنا إلا الظالمون » إضراب عن مقدر استفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه يحيي الموتى ويقتلهم التلاوة والخط معاً تحصل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله : « بل هو - أي القرآن - آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .
وقوله : « وما يحجد بآياتنا إلا الظالمون » المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عناداً وتمعناً .

قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » لما ذكر الكتاب وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو ويدعوهم إليه به وأن منهم

من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية والآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة واقتراحهم على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه .

فقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه » اقترح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تمريضاً منهم أنه ليس بآية وزعماً منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد ، وفي قولهم : لولا أنزل عليه ، دون أن يقولوا : لولا يأتينا بآيات نوع سخريه كقولهم : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا باللائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

وقوله : « قل إنما الآيات عند الله » جواب عن زعمهم أن من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره . فليس إلى النبي شيء إلا أن يشاء الله ثم زاده بياناً بقصر شأن النبي ﷺ في الإنذار فحسب بقوله : « إنما أنا نذير مبين » .

قوله تعالى : « أولم يكفهم أذا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » إلى آخر الآية توطئة وتمهيد للجواب عن تمريضهم بالقرآن أنه ليس بآية ، والاستفهام للانكار والخطاب للنبي ﷺ أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملوء رحمة وتذكرة للمؤمنين .

قوله تعالى : « قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً » إلقاء جواب إلى النبي ﷺ ليجيبهم به وهو أن الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما نتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فإنه سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله عليّ برسالتي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يحفل شيئاً وكفى بشهادته لي دليلاً على دعواي .

وليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات ومنه يعلم أن قوله : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطابياً بل هو بيان استدلالي وحجة قاطعة على ما عرفت .

وقوله : « والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة وهم يكفروهم بالله

الحق يؤمنون بالباطل ولذلك خسروا في إيمانهم .

قوله تعالى : « يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءم العذاب وليأتينهم بفتة وهم لا يشعرون » إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه » هود : ٨ .

والمراد بالأجل المسمى هو الذي قضاه لبني آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ ، وقال : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف : ٣٤ .

وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لمجتل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً » التكليف : ٥٨ ، ولا ينافي ذلك تمجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إهمال وإنظار ، قال تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أسرى : ٥٩ .

قوله تعالى : « يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » يوم يفشام العذاب ، إلى آخر الآية ، تكرر « يستعجلونك » للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولاً واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانياً .

والغشاوة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة ، وقوله : « يوم يفشام » ظرف لقوله : « محيطة » والباقي ظاهر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « وما يعقلها إلا العالمون » روى الواحدى بالإسناد عن جابر قال : تلا النبي ﷺ هذه الآية وقال : العالم الذي يعقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه .

رفيع في قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ : من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بُعداً .
 أقول : ورواه في الدر المنثور عن عمران بن الحصين وابن مسعود وابن عباس وابن عمر عنه ﷺ ورواه القمي في تفسيره مضمراً مرسلًا .
 وفيه وأيضاً عن النبي ﷺ : لا صلاة لمن لم تطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مسعود وغيره .
 وفيه وروى أنس أن فقي من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال : إن صلاته تنهاه يوماً ما .
 وفيه روى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل ، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعت قبلت صلاته .
 وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « ولذكر الله أكبر » يقول : ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه ، ألا ترى أنه يقول : « اذكروني أذكركم » .

أقول : وهذا أحد المعاني التي تقدم نقلها

وفي نور الثقلين عن مجمع البيات وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ذكر الله عندما أحلّ وحرّم .

وفي عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل .

وفي وقال عليه السلام : يا معاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل ومن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز وجل .

وفي الكافي بإسناده عن العبد عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » قال : هم الأئمة .

أقول : وهذا المعنى مروى في الكافي وفي بصائر الدرجات بعدة طرق : وهو من الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية .

وفي البصائر بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له :
« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فقال : أنتم هم من عسو أن يكونوا؟

وفي الدر المنثور أخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن
جعدة عن أبي هريرة قال : كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يكتبون من التوراة
فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال : إن أحق الحق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما
جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم ثم أنزل الله : « أولم يكفهم أنا
أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الآية .

وفيه أخرج ابن عساکر عن ابن أبي مليكة قال : أهدى عبدالله بن عامر بن كريز
إلى عائشة هدية فضنت أنه عبد الله بن عمر فردتها وقالت : يتتبع الكتب وقد قال
الله : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فقيل لها : إنه عبد الله بن
عامر فقبلها .

أقول : ظاهر الروايتين وخاصة الأولى نزول الآية في بعض الصحابة وسياق
الآيات يابى ذلك .

* * *

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ - ٥٦ .
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ - ٥٧ . وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ - ٥٨ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ - ٥٩ . وَكَأَيِّنْ مِنْ ذَائِقَةٍ لَأُتْحَمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - ٦٠ .

(بيان)

لما استفرغ الكلام في توبيخ من ارتدّ عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة عطف الكلام على بقية المؤمنين من استضعفه الشر كون بمكة وكلوا يهدونهم بالفتنة والعذاب فأمرهم أن يصبروا ويتوكأوا على ربهم وأن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين وإقامة فرائضه ، وأن لا يخافوا أمر الرزق فإن الرزق على الله سبحانه وهو يرزقهم إن ارتحلوا وهاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم .

قوله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » توجيه للخطاب إلى المؤمنين الذين وقفوا في أرض الكفر لا يقدرّون على التظاهر بالدين الحق والاستئنان بسنته ويدل على ذلك ذيل الآية .

وقوله : « إن أرضي واسعة » الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض التي نعيش عليها وإضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت ، ووسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق والعمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال .

وقوله : « فإياي فاعبدون » الفاء الأولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي والفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام والظاهر أن تقدم « إياي » لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى : لا تعبدوا غيري بل اعبدوني ، وقوله : « فاعبدون » قائم مقام الجزاء .

ومحصل المعنى : أن أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لسادتي أخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها واعبدوني وحدي فيها .

قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » الآية تأكيد للأمر السابق في قوله : « فإياي فاعبدون » وكالتوطئة لقوله الآتي : « الذين صبروا » الخ .

وقوله : « كل نفس ذائقة الموت » من الاستعارة بالكناية والمراد أن كل نفس

ستموت لا محالة ، والاتفات في قوله : « ثم إلينا ترجعون » من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

ومحصل المعنى: أن الحياة الدنيا ليست إلا أياماً قلائل والموت وراءه ثم الرجوع إلينا للحساب فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا . وهي زينة فانية - عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان والعمل فيه السعادة الباقية وفي الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً ، الخ ، بيان لأجر الإيمان والعمل الصالح بعد الموت والرجوع إلى الله وفيه حث وترغيب للمؤمنين على الصبر في الله والتوكل على الله ، والتبوءة الإنزال على وجه الإقامة ، والغرف جمع غرفة وهي في الدار ، العلية العالية .

وقد بين تعالى أولاً ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال : « ونعم أجر العاملين » ثم فسر العاملين بقوله : « الذين ضبروا وعلى ربهم يتوكلون » فماد بذلك الصبر والتوكل سمة خاصة للمؤمنين فدل بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله وتوكل عليه ، فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى وجفوة ما يحد إلى العيشة الدنيوية سبيلاً فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج ونهاجر إلى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله .

قوله تعالى : « الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وصف للعاملين ، والصبر أعم من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر على المصيبة ، وإن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة .

قوله تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياك وهو السميع العليم ، كأين للكثير ، وحمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الانسان والنمل والفار والنحل من سائر الحيوان .

وفي الآية تطيب ل نفس المؤمنين وتقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أنهم رزقهم أينما كانوا ولا يموتون جوعاً فرازقهم ربهم دون أوطانهم ، يقول : وكثير من

الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله ويرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق وهو السميع العليم .

وفي تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجة على مضمونها وهو أن الانسان وسائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم اليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بجوانح خلقه ومقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة » يقول : لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة ، وهو يقول : « فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وفي الجمع : وقال أبو عبدالله عليه السلام : معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها الى غيرها .

وفي العمون بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما نزلت « إنك ميت وإنهم ميتون » قلت : يا رب أيوت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء ؟ فنزلت « كل نفس ذائقة الموت » .

اقول : ورواه أيضاً في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي ، ولا يخلو منه عن شيء فإن قوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » يخبر عن موته صلى الله عليه وسلم وموت سائر الناس ، وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله : أيوت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء .

وفي الجمع عن عطاء عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي : يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : أنا أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقبصر فكيف بك يا ابن عمر

إذا بعيت مع قوم يحبون رزق سنتهم لضعف اليقين فوالله ما برحنا حتى نزلت و كآتين
من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم .

أقول : وقد روى الرواية في الدر المنثور وضعف سندها وهي مع ذلك لا تلاثم
وقوع الآية في سياق ما تقدمها .

* * *

وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ - ٦١ . اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - ٦٢ . وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ - ٦٣ . وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ - ٦٤ .
فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ - ٦٥ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَيَلْتَمِئْتَعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ - ٦٦ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمَ اللَّهُ بِكَفْرُونَ - ٦٧ . وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ - ٦٨ . وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ
اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ - ٦٩ .

(بيان)

الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبي ﷺ وهو في المعنى خطاب عام يشمل الجميع وإن كان في اللفظ خاصاً به ﷺ لأن الحجج المذكورة فيها مما يناله الجميع. والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما أُلقي في الفصل السابق على المؤمنين فأمنوا به فإنهم يعترفون أن خالق السماوات والأرض ومدبر الشمس والقمر - وعليها مدار الأرزاق - هو الله وأن منزل الماء من السماء ومحبي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم وهم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره ويقيمون في حرم آمن وهو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل ويحسدون الحق ويكفرون بنعمة الله .

وما ختمت به السورة من قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » يلائم ما في مفتح السورة « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون - إلى أن قال - ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » الخ .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » .

خلق السماوات والأرض من الإيجاد وتسخير الشمس والقمر - وذلك بتحويل حالاتها بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض - من التدبير الذي يتفرع عليه كينونة أرزاق الإنسان وسائر الحيوان وهذا الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر .

وإذا كان الله هو الخالق وبه تدبير السماوات ويتبعه تدبير الأرض وكينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق وسائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئاً وهو قوله : « فأنى يصرفون » أي فإذا كان الخلق وتدبير الشمس والقمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام وعبادته .

قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له إن الله بكل شيء

علم ، في الآية تصريح بما تلوح اليه الآية السابقة ، والقدر التضييق ويقابله البسط والمراد به لازم معناه وهو التوسعة ، ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله : « إن الله بكل شيء عليم » للدلالة على تعليل الحكم ، والمعنى : وهو بكل شيء عليم لأنه الله .

والمعنى : الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء - ولا يشاء إلا على طبق المصلحة - لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها - إلى قوله - لا يعقلون » المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في الربيع .
وقوله : « قل الحمد لله » أي أحد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبده دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام .
وقوله : « بل أكثرهم لا يعقلون » أي لا يتدبرون الآيات ولا يحكمون العقول حق يعرفوا الله ويميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل .

قوله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » الله ما يلهيك ويشغلك عما يحكمك فالحياة الدنيا من الله لأنها تلهي الإنسان وتشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية .
واللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاماً خيالياً لغاية خيالية كلعاب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يهتمون عليه ويتولعون به ساعة ثم يتفرقون وسرعان ما يتفرقون .

على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليه الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدم والتصدر والرفاة والمولوية والخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيئاً منها إلا في ظرف الوهم والخيال .

وأما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكامله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمة التي لا هو في الاشتغال بها والجد الذي لا لعب فيها ولا لغو ولا تأثيم ، والبقاء الذي لا فناء معه ، واللذة التي لا ألم عندها ، والسعادة التي لا شقاء دونها ، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة .

وهذا معنى قوله سبحانه : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » .

وفي الآية - كما ترى - قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كأن « واللام وضمير الفصل والجملة الإسمية .

وقوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون لعلوا أن الأمر كما وصفنا .

قوله تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » تفريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيراً منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد فإذا ركبوا « الخ » .

والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعدّ بنفسه وتمديته في الآية يفى لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه ، والمعنى : فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين ، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضاً آخر وكفراناً للنعمة .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » اللام في « ليكفروا » و « ليتمتعوا » لام الأمر وأمر الأمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده : « افعل ما شئت » ، قال تعالى : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » حم السجدة : ٤٠ .

واحتتم كون اللام للغاية ، والمعنى : أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة التي آتيناهم وإلى التمتع ، وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية : « فسوف يعلمون » ، ويؤيده قوله في موضع آخر : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » الروم : ٣٤ ، ولذا قرأه من قرأ « وليتمتعوا » بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر .

قوله تعالى : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » الحرم الآمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله آمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام والتخطف

كلخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التناور والتناهب ولا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنهم يحترمون الحرم ولا يتعرضون لمن أقام بها فيها .

والمعنى : أو لم ينظروا أنا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب والحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم .

وقوله : « أفعال باطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلا الاسم .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشد اللطم وأعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالألوهة وأن الله اتخذهم شركاء لنفسه ، وتكذيب الإنسان بالحق لما جاءه والوصفان جميعاً موجدان فيهم فقد عبدوا الأصنام وكذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كفرون ومثوى الكافرين ومحل إقامتهم في الآخرة جهنم .

قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين » الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس كذا ذكره الراغب .

وقوله : « جاهدوا فينا » أي استقر جهادهم فينا وهو استعارة كناية عن كون جهده مبدولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد وعمل ، فلا ينصرف عن الإيمان به والإلتزام بأوامره والانتهاز عن نواهيه بصارف بصرفه .

وقوله : « لنهدينهم سبلنا » أثبت لنفسه سبلاً وهي أياماً كانت تنتهي إليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل وهو غايتها فسبله هي الطرق المقربة منه والهادية إليه تعالى ، وإذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبيل هداية على هداية فتنتطبق على مثل قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى » محمد : ١٧ .

وما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله : « فينا » إلى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا .

وقوله : « وإن الله لمع الحسنين » قيل : أي معية النصره والمؤونه وتقدم الجهاد المحتاج اليها قرينه قويه على إرادة ذلك . انتهى . وهو وجه حسن وأحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة والعناية فيشمل معية النصره والمؤونه وغيرهما من أقسام العنايةات التي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكامل عنايةته بهم وشمول رحمته لهم ، وهذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينسب عنه قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .
وقد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : يا عجباً كل المعبود للمصدق بدار الحيوان وهو يسمى لدار الفرور .

وفيه أخرج جويرير عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلبتنا والعرب أكثر منا فتى بلغهم أننا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله : « أولم يروا أننا جعلنا حرمات آمناً » الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنين » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشباعهم .

(سورة الروم مكية ، وهي ستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الم - ١ . غُلِبَتِ الرُّومُ - ٢ . فِي
أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ - ٣ . فِي بَضْعِ سِنِينَ
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ - ٤ . بِنَصْرِ
اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ - ٥ . وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ
اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - ٦ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا
مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ - ٧ . أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا
فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ - ٨ .
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ - ٩ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاوُوا السَّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ - ١٠ . اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - ١١ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ - ١٢ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ - ١٣ .
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ بِتَفْرِقُونَ - ١٤ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ - ١٥ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ - ١٦ . فَسُبْحَانَ
 اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ - ١٧ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ - ١٨ . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
 وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ
 تُخْرَجُونَ - ١٩ .

(بيان)

تفتتح السورة بوعد من الله وهو أن الروم ستقلب الفرس في بضع سنين بعد
 انهزامهم أيام نزول السورة عن الفرس ثم تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد
 بيوم يرجع الكل فيه إلى الله وتقييم الحجة على المعاد ثم تنمطف إلى ذكر آيات الربوبية
 وتصف صفاته تعالى الخاصة به ثم تحتتم السورة بوعد النصر للنبي ﷺ وتؤكد القول
 فيه إذ تقول : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون » وقد قيل
 قبيل ذلك : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ففرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصره دينه وقد قدم عليه نصر
 الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز
 ذلك الوعد ، وكذا يحتج به ومن طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامة
 لا ريب فيه .

قوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض » الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطورية وسيمة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريباً من الحجاز فغلبت الفرس وانزمت الروم ، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للمهد .

قوله تعالى : « وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين » ضيؤ الجمع الأول للروم وكذا الثالث وأما الثاني فقد قيل إنه للفرس والمعنى : والروم من بعد غلبة الفرس سيفلون ، ويمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للفعل والضمير للروم كالضميرين قبلها وبمدها فلا تختلف الضمائر والمعنى : والروم من بعد مغلوبيتهم سيفلون . والبضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

قوله تعالى : « الله الأمر من قبل ومن بعد » قبل وبعد مبنيان على الضم فهناك مضاف إليه مقدر والتقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

وقيل : المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين ووقت كونهم غالبين والمعنى الأول أرجح إن لم يكن راجعاً متعيناً .

قوله تعالى : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » الظرف متعلق بيفرح وكذا قوله « ينصر » والمعنى : ويومئذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم ، ثم استأنف وقال : « ينصر من يشاء » تقريراً لقوله : « الله الأمر من قبل ومن بعد » .

وقوله : وهو العزيز الرحيم « أي عزيز يعزُّ بنصره من يشاء رحيم يخصص برحمته من يشاء .

وفي الآية وجوه آخر ضميعة ذكروها :

منها : أن قوله : « ويومئذ » عطف على قوله : « من قبل » والمراد به شعول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال كأنه قيل : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ ثم ابتداء وقيل : رح المؤمنون بنصر الله . وفيه أنه يبطل

انسجام الآية وينقطع به آخرها عن أولها .

ومنها : أن قوله : « بنصر » متعلق بقوله : « المؤمنون » دون « يفرح » وبدلًا باللازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله .

وفيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس ويوم غلبة الروم جميعاً فإن في الغلبة نصراً وكل نصر من الله قال تعالى : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢٦ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه .

ومنها : أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس وإن توافق النصران زماناً فكأنه قيل : إن الروم سيفلبون في بضع سنين ويوم يفلبون يفلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم .

وفيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد : « ينصر من يشاء » .

ومنها : أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم ، وقيل : النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض وتفرق كلمتهم وانكسار شوكتهم . وهذان وما يشبهها وجوه لا يعبؤها .

قوله تعالى : « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وعد الله « مفعول مطلق محذوف العامل والتقدير وعد الله وعداً وإخلاف الوعد خلاف إنجازه وقوله : « وعد الله » تأكيد وتقرير للوعد السابق في قوله : « سيفلبون » و « يفرح المؤمنون » كما أن قوله : « لا يخلف الله وعده » تأكيد وتقرير لقوله : « وعد الله » .

وقوله : « لا يخلف الله وعده » كقوله : « إن الله لا يخلف الميعاد » الرعد : ٣١ وخلف الوعد وإن لم يكن قبيحاً بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال .

على أن خلف الوعد يلزم النقص دائماً ويستحيل النقص عليه تعالى .

على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد وهو أصدق الصادقين وهو القائل عز من قائل : « والحق أقول » ص : ٨٤ .

وقوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي هم جهلاء بشؤنه تعالى لا يتقون بوعدده ويقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق ويكذب وينجز ويخلف .

قوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » جملة « يعلمون » على ما ذكره في الكشف بدل من قوله : « لا يعلمون » وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى .

وقيل : الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق وأن الله الأمر من قبل ومن بعد وأنه ينصر المؤمنين على الكافرين . انتهى وهذا أظهر .

وتكبير « ظاهراً » للتحقير وظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها وهو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدون إلى اقتنائها والمعكوف عليها والإخلاق إليها ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها والغفلة عما فيه خيرهم ونفعهم بحقيقة معنى الكلمة .

وقيل : الظهور في الآية بمعنى الزوال واستشهد بقوله :

وعبثها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
والمعنى : يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال .

قوله تعالى : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » النخ المراد من خلق السموات والأرض وما بينهما - وذلك جملة للعالم المشهود - بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد ويعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض وغاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تقرب عليها .

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق وكل آت خلفاً لماضيه بل هو بأجزائه فان باند فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله : « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما » بقوله : « وأجل مسمى » بعد تقييده بقوله : « إلا بالحق » .

فقوله : « أولم يتفكروا في أنفسهم » الاستفهام للتعجب ، وكونهم في أنفسهم استمارة كناية عن فراغ البال وحضور للذهن كأنهم عند اشتغالهم بأمور الدنيا وسعيهم للمعيشة وتشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين

في أنفسهم فيكون تفكيرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرق فيهديم إلى الحق ويرشدهم إلى الواقع .

وقيل : المراد بتفكيرهم في أنفسهم أن يتفكروا في خلق أنفسهم وأن الواحد منهم محدث والمحدث - بالفتح - يحتاج إلى محدث - بالكسر - قديم حي قادر علم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثاً بل لغاية مطلوبة وليست تعود إليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق وهو الثواب ولا يكون إلا لصالح العمل فلا بد من دين مشرع يميز العمل الصالح من السيئ فلا بد من دار يتمتعون فيها وهي الدنيا ودار يثابون فيها وهي الآخرة . وفيه أن الجملة أعني قوله : « أولم يتفكروا في أنفسهم » صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله : « ما خلق الله السماوات » الخ ، بها يأباه لاستزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية وذيلها على هذا التقدير .

وقوله : « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم وتقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلاً ولا بعضاً إلا خلقاً ملائماً للحق أو مصاحباً للحق أي لغاية حقيقية لا عبثاً لا غاية له ولا إلى أجل معين فلا يبقى شيء منها إلى ما لا نهاية له بل يفتنى وينقطع . إذا كان كل من أجزائه والمجموع مخلوقاً ذا غاية تترتب عليها وليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بمعد انقطاع وجوده وفنائها ، وهذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا وفنائها .

وقوله : « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم كافرون » مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب ، والمراد بلقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد ، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يبتدئوا منه ثم لا ينتهوا إليه ، ولذلك أكده بأن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به .

قوله تعالى : « أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى آخر الآية ، لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلنو معه الدين الحق ذكّرهم حال الأمم الكافرة وما انتهت إليه من سوء العذاب لعلمهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر . وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك .

وقوله : « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي بالكفر والمعاصي .

قوله تعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين ولذا عبرَ بـم ، و « عاقبة » بالنصب خبر كان واسمها « السوآى » قدّم الخبر عليه لإفادة الحصر و « أساؤا » مقطوع عن التعلق بمعنى عملوا سوء ، والسوآى الخلة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و « أن كذبوا بآيات الله » مجذوف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها . والمعنى : ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها .

وقيل : إن « السوآى » مفعول لقوله : « أساؤا » وخبر كان هو قوله : « أن كذبوا » الخ ، والمراد أن المعاصي ساقطهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها . وفيه : أنه في نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأن المقام مقام الاعتذار والإنذار والمناسب له بيان انتهاء معاصيهم الى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرقة الى التكذيب والاستهزاء الذي هو أعظمها .

قوله تعالى : « الله بيده الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون » بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخص القول في نقيحتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع اليه الجميع ، والمراد بالخلق الخوفون ، ولذا أرجع اليه ضمير الجمع في « ترجعون » .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع اليه تعالى للحساب والجزاء ، والإبلاس اليأس من الله وفيه كل الشقاء .

قوله تعالى : « ولم يكن لهم من شركائهم شفاء وكانوا بشركائهم كافرين » يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فمبدوهم ليشفوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكانوا بعبادة شركائهم كافرين ساطرين .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » إلى قوله - محضرون » قال

في الجمع : الروضة البستان المتناهي منظرأ وطيباً . انتهى . وقال في المفردات : الخبر الأثر المستحسن - إلى أن قال - وقوله عز وجل : « في روضة يجرون » أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم . انتهى .

والمراد بتفرق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين ودخول هؤلاء النار ودخول أولئك الجنة على ما يشير إليه الآيتان التاليتان .

ولزوم هذا التميّز والتفرق في الوجود هو الذي أخذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكون » الجاثية : ٢١ .

قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تطهرون » لما ذكر أنه بيده الخلق ثم يميدهم ويرجمهم للقائه فيفترقهم طائفتين : أهل الجنة والنعمة وأهل النار والعذاب ، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصالحات وأما أهل النار فهم الكفار المكذبون لايات الله وقد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة ونعمة لكنهم نسوا الآخرة وكذبوا بآيات الله واستهزؤا بها حتى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فتمحصل من ذلك أن في دار الخلق تديراً إلهياً متقناً صالحاً جميلاً على أجل ما يكون وأن للانسان على توالي الأزمنة والدهور آثاماً وخطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه واتخاذ شركاء له وإنكار لقائه إلى سائر المعاصي .

ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين وتحميده على صنعه وتدييره في السماوات والأرض وهو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطلة والأعمال الرديّة ومحمود في جميع ما خلقه ودبره في السماوات والأرض .

ومن هناك يظهر :

أولاً : أن التسبيح والتحميد في الآيتين إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى : قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقد تكرر في كلامه تعالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله : « سبحان ربك رب العزة » الصافات : ١٨٠ وقوله : « الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده » الفرقان : ١ .

وقائياً : أن المراد بالتسبيح والتحميد معناه المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدراً . والمعنى : قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله .

وثالثاً : أن قوله : « وله الحمد في السماوات والأرض » معترضة واقعة بين المطوف والمطوف عليه ، وقوله : « وعشياً رحين تظهرون » معطوفان على محل « حين تمسون » لا على قوله : « في السماوات والأرض » حتى يختص المساء والصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشي والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح والأمكنة وما فيها للتحميد .

فالسباق يشير إلى أن ما في السماوات والأرض من خلق وأمر هو لله يستدعي بحسنة حمداً وثناءً لله سبحانه وأن للانسان على مر الدهور وتغير الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى وتقدس .

نعم هنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أن الأزمنة والأوقات على تغيرها وتصرمتها من جملة ما في السماوات والأرض فهي بوجودها يشي على الله تعالى ، ثم كل ما في السماوات والأرض بفقرها اليه تعالى وذلتها دونه ونقصها بالنسبة إلى كاله تعالى تسبحة كما قال : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ ، لكن هذا الاعتبار غير منظور اليه في الآيتين اللتين نحن فيها .

وللفسرين في الآيتين أقوال أخر متفرقة أشرتنا إلى المهم منها في الوجود التي قدمناها .

وتمير السياق في قوله : « وعشياً » لتكون العشي لم يبين منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء والصباح والظهيرة حيث بني منها الإسماء والإصباح والإظهار بمعنى الدخول في المساء والصباح والظهيرة كذا قيل .

والخطاب الذي في الآيتين في قوله : « تمسون وتصبحون وتظهرون » ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الذي للنبي ﷺ منذ شرعت السورة ، والمعنى :

فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزّه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء وحينما دخلتم في صباح ونيّ العشي وحينما دخلتم في ظهيرة وله الشئ الجميل في السماوات والأرض .
ونظير هذا التعميم ما في قوله سابقاً : « وإليه ترجعون » ، ولاحقاً في قوله :
« وكذلك تخرجون » .

قوله تعالى : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » ظاهر إخراج الحي من الميت وبالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوي الحياة أرضاً ميتة ، وقد فسّر بخلق المؤمن من الكافر وخلق الكافر من المؤمن فإنه بعد المؤمن حياً والكافر ميتاً ، قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً » الأنعام : ١٢٢ .

وأما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خودها في الخريف والشتاء ، وقوله : « وكذلك تخرجون » أي تبصون وتخرجون من قبوركم بإحياء جديد لإحياء الأرض بعد موتها ، وقد تقدم تفسير نظير صدر الآية وذيلها مراراً .

(بحث رواني)

في الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء عن ابن عباس في قوله : « الم غلبت الروم » قال : غلبت وغلبت .

قال : كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : أما إنهم سيفعلون فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجمل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ألا جعلته - أراد - قال : دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله : الم غلبت الروم فغلبت ثم غلبت بعد .

يقول الله : « الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » قال سفيان : سمعت أنهم قد ظهروا يوم بدر .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أن انقمامة كانت بين أبي بكر وأبي بن خلف وفي بعضها أنها كانت بين المسلمين والمشركين وكان أبو بكر من قبل المسلمين وأبي من قبل المشركين : وفي بعضها أنها كانت بين الطائفتين ، وفي بعضها بين أبي بكر وبين المشركين كما في هذه الرواية .

ثم الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين ، وفي بعضها خمس ، وفي بعضها ست ، وفي بعضها سبع سنين .

وفي بعضها أن الأجل المضروب أولا انقضى بمكة وهو سبع سنين فهادم أبو بكر سنين بأمر من النبي ﷺ فغلبت الروم ، وفي بعضها خلافه .

ثم في بعضها أن الأجل الثاني انقضى بمكة وفي بعضها أنه انقضى بعد الهجرة وكانت غلبة الروم يوم بدر ، وفي بعضها يوم الحديبية .

وفي بعضها أن أبا بكر لما قهرم بغلبة الروم أخذ منهم الخنجر وهو مائة قلوص وجاء به الى النبي ﷺ فقال : إنه سحت تصدق به .

والذي تتفق فيه الروايات أنه قاهرهم فقهروهم وكان القهار بإشارة من النبي ﷺ ووجه ذلك بأنه كان قبل تحريم القمار فإنه حرم مع الخمر في سورة المائدة وقد نزلت في آخر عهد النبي ﷺ .

وقد تحقق بما قدمناه في تفسير آية الخمر والميسر أن الخمر كانت محرمة من أول البعثة وكان من المعروف من الدين أنه يحرم الخمر والزنا .

على ان الخمر والميسر من الإثم بنص آية البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير » الآية البقرة : ٢١٩ . والإثم محرم بنص آية الأعراف : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي » الآية الأعراف : ٣٣ ، والأعراف من العتائق النازلة بمكة فمن الممتنع أن يشير النبي ﷺ بالمقامرة .

وعلى تقدير تأخر الحرمة إلى آخر عهد النبي ﷺ بشكل قوله ﷺ لأبي بكر لما أتى بالخنجر اليه إنه سحت ثم قوله : تصدق به . فلا سبيل إلى تصحيح شيء من ذلك

بالموازن الفقهاء وقد تكلفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلا إشكالاً .

ثم إن ما في الرواية أن الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ما كان عليه القوم فإنهم وإن كانوا مشركين لكنهم كلوا لا يتخذون أوثاناً .

وفي تفسير القمي في قوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » قال : يرون حاضر الدنيا ويتغافلون عن الآخرة .

وفي الخصال وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى : « أولم يسيرا في الأرض » فقال : أولم ينظروا في القرآن .

وفي تفسير القمي وقوله عز وجل : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » قال : إلى الجنة والنار .

* * *

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ - ٢٠ .
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - ٢١ . وَمِنْ
آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ - ٢٢ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ - ٢٣ . وَمِنْ آيَاتِهِ
يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ - ٢٤ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمُ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا

أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ - ٢٥ - وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَائِمُونَ - ٢٦ .

(بيان)

يذكر في هذا الفصل عدة من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية ، ويشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير وتداخلها ليتضح بذلك أن الربوبية بمعنى ملك التدبير والالوهية بمعنى المعبودية بالحق لا يستحقها إلا الله الذي خلق الأشياء وأوجدها ، لا كما يزعم الوثني أن الخلق لله وحده والتدبير والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله ، وليس له سبحانه إلا أنه رب الأرباب وإله الآلهة .

قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقه الإنسان إلى الأرض فإن مراتب تكوّن الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضية تنتهي إلى العناصر الأرضية .

وقوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إذا فيجائية أي يفاجئكم أنكم انماي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المقرب منها كبنونة أرضية ميتة أخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشراً ذوي حياة وشعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدمير أمر الحياة فقوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » في معنى قوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ .

فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية وكنينة هذا المجموع إنساناً ذا حياة وشعور عقلي آية أو آيات أخر تدل على صانع حي علم يدبر الأمر ويمرر هذا النظام المعجيب .

وقد ظهر بهذا المعنى أن « ثم » للتراخي الرتي والجملة معطوفة على قوله : « خلقكم » لا على قوله : « أن خلقكم » .

قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواً لتسكنوا إليها »

إلى آخر الآية ، قال الراغب : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى من الحيوانات المتزاوجة : زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها : زوج ، قال تعالى : «وجعل منه الزوجين الذكر والانثى» وقال : «وزوجك الجنة» وزوجة لغة رديئة وجمعها زوجات - إلى أن قال - وجمع الزوج أزواج . انتهى .

فقوله : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتكنوا اليها ، أي خلق لأجلكم - أو لينفعكم - من جنسكم قرائن وذلك أن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزاً يتم فعله بمقارنة الآخر ويتم بمجموعها أمر التوالد والتناسل فكل واحد منها ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينسل ، ولهذا النقص والإفتقار يتحرك الواحد منها إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله وكل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره وهذا هو السبق المودع في كل من هذين القرينين .

وقوله : « وجعل بينكم مودة ورحمة » المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هو نوع تأثر نفسي عن العظمة والكبرياء .

والرحمة نوع تأثر نفسي عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته بدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه .

ومن أجل موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معاً وخاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتقديرتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يمش النوع قط .

ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة .

والمراد بالمودة والرحمة في الآية الاوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الاخيراتان على ما يعطيه إطلاق الآية .

وقوله : « لايات لقوم يتفكرون » لانهم إذا تفكروا في الاصول التكوينية التي يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكورة والانوثة الداعيتين الى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياته الدنيا والاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم .

قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » الى آخر الآية . الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية والفارسية والاردوية وغيرها وباختلاف الألوان اختلاف الامم في ألوانهم كاللبياض والسواد والصفرة والحمرة .

ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق وباختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن .

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الحلقة على آيات دقيقة دالة على أن الصنع والإيجاد مع النظام الجازي فيه لا يقوم إلا بالله ولا ينتهي إلا اليه .

قوله تعالى : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » الى آخر الآية ، الفضل الزبده على مقدار الحاجة ويطلق على العضة لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته ، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق .

وفي خلق الإنسان ذا قوى فعالة تبعثه الى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثم هدايته الى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب الى وجود الليل والنهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجدته حقاً تبعه .

قال في الكشاف في الآية : هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين لأنها زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف : الاتحاد ويجوز أن

يراد منامكم في الزمانين وابتغائكم فيها، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن . انتهى .

وقد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله: « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ».

قوله تعالى: « ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها الظاهر أن الفعل نزل منزلة المصدر ولذلك لم يصدّر بأن المصدرية كما صدر به قوله: « أن خلقكم » وقوله: « أن خلق لكم » وتزليل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة وعليه يحمل المثل السائر: « وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ولا ضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله: « منامكم » « يريكم » « أن تقوم » .

واحتمل في قوله: « يريكم » أن يكون بحذف أن المصدرية والتقدير أن يريكم البرق وأيد بقراءة النصب في يريكم .

واحتمل أن يكون من حذف المضاف ، والتقدير: « ومن آياته آية أن يريكم البرق » ، واحتمل أن يكون التقدير « ومن آياته آية البرق ثم استوف فقيلاً: يريكم البرق الخ ، واحتمل أن يكون « من آياته » متعلقاً بقوله: « يريكم » ، والتقدير: « ويريكم من آياته البرق » ، واحتمل أن يكون « من آياته » حالاً من البرق، والتقدير: « ويريكم البرق حال كون البرق من آياته » .

وهذه وجوه متفرقة لا يخفى عليك بعدها على أن بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظرية له كالأخوين .

وقوله: « خوفاً وطمعاً » أي خوفاً من الصاعقة وطمعاً في المطر ، وقوله: « وينزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » تقدم تفسيره كرراً ، وقوله: « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقة بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق وصدفة .

قوله تعالى: « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » القيام مقابل القعود ولما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على أعماله استعير لثبوت الشيء واستقراره على أعدل حالاته كما يستعار

لتدبير الأمر ، قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، الرعد : ٣٣ .
والمراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتها على حالها من حركة وسكون
وتغير وثبات بأمره تعالى وقد عرف أمره بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول
له كن فيكون » يس : ٨٢ .

وقوله : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » « إذا » الأولى
شرطية و « إذا » الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و « من الأرض » متعلق بقوله :
« دعوة » والجملة معطوفة على محل الجملة الأولى لأن المراد بالجملة أعني قوله : « ثم إذا
دعاكم » الخ البعث والرجوع إلى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج
عليه سابقاً وسيحتج عليه لاحقاً .

وأما قول القائل : إن الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على « أنت تقوم »
والتقدير ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجهكم إذا دعاكم دعوة من الأرض .
فلازمه كون البعث معدوداً من الآيات وليس منها على أن البعث أحد الاصول
الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه ، ولا يحتج به على التوحيد مثلاً بل لو احتج فبالتوحيد
عليه فافهم ذلك .

ولما كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب وخلقهم أزواجاً واختلاف
ألوانهم وألوانهم ومنامهم وابتغائهم من فضله وإراءة البرق وتزليل الماء من السماء كلها
آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله : « أن تقوم السماء والأرض »
بمعونة السياق ثبات السماء والأرض على وضعها الطبيعي وحالها العادية ملائمتين لحياة
النوع الإنساني المرتبطة بها وكان قوله : « ثم إذا دعاكم » الخ مترتباً على ذلك ترتب
التأخير أي أن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخراجهما كما ينسب به
آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى .

ويظهر بذلك أيضاً أن المراد من قوله السابق « ومن آياته خلق السماوات
والأرض » خلقها من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية وينفعاها .

وقد ترتب الآيات المذكورة آخذة . بدء خلق الإنسان وتكونه ثم تصفها
صنفين : الذكر والأنثى ثم ارتباط وجوده في الأرض واختلاف ألوانهم وألوانهم

ثم السعي في طلب الرزق وسكون المنام ثم إراءة البرق وتزليل الأمطار حتى تنتهي إلى قيام السماء والأرض إلى أجل مسمى ليتم لهذا النوع الإنساني ما قدر له من أمد الحياة ويعتد ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من التلكات .

وقد رتبت الفواصل أعني قوله « يتفكرون » « للعالمين » « يسمعون » « يعقلون » على هذا الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالماً ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق وعاه ثم عقله والله أعلم .

قوله تعالى : « وله من في السموات والأرض كل له قانتون » كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى وألوهيته كما تقدمت الإشارة إليه ولما إنتهى الكلام إلى ذكر البعث والرجوع إلى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجة مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة .

فقوله : « وله من في السموات والأرض » إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقي لجميع من في السموات والأرض وهم المشورون إليه وذلك لأن وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه وهذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف في مملوكة بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة .

وقد أكد ذلك بقوله : « كل له قانتون » والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع — على ما ذكره الراغب في المفردات — والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية — على ما يعطيه السياق — دون التشريعية التي ربما تخلفت .

وذلك أنهم الملائكة والجن والإنس فأما الملائكة فليس عندهم الخضوع الطاعة ، وأما الجن والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والأسباب الكونية وكلما احتالوا في الغاء أثر علة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علة أخرى وسبب آخر كوني ثم علمهم وإرادتهم كاختيارهم جميعاً من الأسباب الكونية فلا يكون إلا ما شاء الله أي الذي تمت علته في الخارج ولا يتحقق مما شاؤا إلا ما أذن فيه وشاء فهو المالك لهم ولما يملكونه .

* * *

وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
 الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٢٧ . ضَرَبَ
 لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا
 رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ - ٢٨ . بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ - ٢٩ . فَأَقِمْ
 وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
 اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - ٣٠ . مُنِيبِينَ
 إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ - ٣١ . مَنِ
 الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ - ٣٢ .
 وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً
 إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ - ٣٣ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ - ٣٤ . أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا
 بِهِ يُشْرِكُونَ - ٣٥ . وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ
 سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ - ٣٦ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ — ٣٧. فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ — ٣٨. وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْثُوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ — ٣٩.

(بيات)

لما انساق الاحتجاج على الوجدانية والمعاد من طريق عدّ الآيات الدالة على ذلك بقوله: « ومن آياته » إلى قوله: « وله من في السماوات والأرض » الآية ، وهو من صفات الفعل غير سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية وأوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كل فصل شيئاً من صفات الفعل المستوجبة للوجدانية والمهاد وهي قوله: « وهو الذي بيده الخلق ثم يعيده » الخ ، وقوله: « الله الذي خلقكم ثم رزقكم » الخ ، وقوله: « الله الذي يرسل الرياح » الخ ، وقوله: « الله الذي خلقكم من ضعف » الخ .

وإنما لم يبدأ الفصل الأول باسم الجلالة كما بدأ به في الفصول الأخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به أعني قوله: « وله من في السماوات والأرض كل له قانتون » الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين ، فقوله: « وهو الذي بيده الخلق ثم يعيده » فصل في صورة الوصل .

قوله تعالى: « وهو الذي بيده الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » إلى آخر الآية ، بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء .

وقوله: « وهو أهون عليه » الضمير الأول للإعادة المقوم من قوله: « يعيد » والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق .

وقد استشكل قوله: « وهو أهون عليه » الدال ظاهراً على كون الإعادة أسهل وأهون عليه من البدء وهو: « أف » كون قدرته مطلقة غير محدودة فإن القدرة

اللامتناهية لا تختلف حالها في تعلقها بشيء دون شيء فتعلقها بالصعب والسهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل هنا .
وقد أُجيب عنه بوجوه :

منها : أن ضمير « عليه » راجع الى الخلق دونه تعالى والإعادة أهون على الخلق لأنه مسبوق بالابتداء الذي يسهل الفعل على الفاعل بتحقيقه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذي لا يسبقه فعل ، فالابتداء أصعب بالطبع بالنسبة الى الإعادة والإعادة بالمكس ، فالمعنى : أن الإعادة أهون من البدء بالنسبة الى الخلق وإذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق .

وفيه أن رجوع الضمير الى الخلق خلاف ظاهر الآية .

ومنها : أن أقفل هنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هيّن عليه نظير قوله : « ما عند الله خير من اللهو » .
وفيه أنه تحكم ظاهر لا دليل عليه .

ومنها : أن التفضيل إنما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الإبتدائي لا بالنسبة اليه تعالى ووقوع التفضيل بين فعل منه وفعل لا بأس به كما في قوله تعالى :
« خلق السهوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

وهذا هو الذي يستفاد من كلام الزمخشري إذ يقول : فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله : « ثم إذا دعاكم » حتى كأنها فضلت على قيام السهوات والأرض بأمره ثم هوئت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة لكنها هوئت بالقياس الى الإنشاء . انتهى .

وفيه أن تقييد الوصف بقوله : « عليه » أصدق شاهد على أن القياس الواقع بين الإعادة والإنشاء إنما هو بالنسبة اليه تعالى لا بين نفس الإعادة والإنشاء فالإشكال على ما كان .

ومنها : أن التفضيل إنما هو بالنظر الى الاصول الدائرة بين الناس والموازن المتبعة عندهم لا بالنظر الى الأمر في نفسه ، لما يرون أن تكرر الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنه قيل : والإعادة

أهون عليه بالنظر الى أصولكم العلمية المتبعة عندهم وإلا فالإنشاء والإعادة بالنسبة اليه تعالى على السواء .

وفيه : أنه معنى صحيح في نفسه لكن الشأن في استفادته من اللفظ ولا شاهد عليه من جهة لفظ الآية .

ومنها : ما ذكره أيضاً في الكشف قال : ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممنوع أصلاً خارج عن المقدور وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة ، وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله ، وإما واجب لا بد من فعله ولا سبيل الى الإخلال به .

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الإمتناع وإذا كانت أبعداً من الإمتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء انتهى .

وفيه أولاً : أنه مبني على تحقق الأشياء بالاولوية دون الوجوب وقد تحققت في محله بطلانه .

وثانياً : أن القرب والبعد اللذين ذكرهما تصوير عقلي محض والسهولة والصعوبة وصفان وجوديان يتصف بها وجود الشيء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له ولا يبتني الوصف الوجودي على الإعتبار العقلي .

وثالثاً : أن الإنشاء أيضاً كالإعادة في الابتناء على المصلحة وهي الغاية فما لم يكن الإنشاء ذا مصلحة موجبة لم يتحقق كما أن الإعادة كذلك فهي في القرب والبعد من الامتناع على السواء كما قيل .

ورابعاً : أن مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسها فيعود في الحقيقة إلى الوجه الثالث ويتوجه اليه ما توجه اليه .

والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعني قوله : « وهو أهون عليه » ممل بقوله بعمده : « والله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » فهو الحجة المثبتة لقوله : « وهو أهون عليه » .

والاستفاد من قوله : « والله المثل الأعلى » الخ ، أن كل وصف كماله يمثل به شيء في السماوات والأرض كالحياة والقدرة والعلم والملك والجلد والكرم والمظنة والكبرياء وغيرها فله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال : « والله الأسماء الحسنی » الأعراف : ١٨٠ .

وذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات والأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه وهو في نفسه خالٍ عنه فالحي منها ميت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته ولذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيداً بشيء دون شيء وحال دون حال ، وهكذا فالعلم فيها مثل ليس مطلقاً غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه وكذلك الحياة والقدرة والملك والمظنة وغيرها .

والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود وصرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممت يقابل حياته وهكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية والأرضية - وهي صفات غير محضة ولا مطلقة - ما هو أعلاها أي مطلقاً ومحضاً .

فكل صفة توجد فيه تعالى وفي غيره من المخلوقات ، فالذي فيه أعلاها وأفضلها والذي في غيره مفصول بالنسبة إلى ما عنده .

ولما كانت الإعادة متصفة بالهون إذا قيس إلى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة ومشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة ومشقة عليه تعالى لأن المشقة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكما قلت القدرة كثرت المشقة وكما كثرت قلت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس ، وقدرته تعالى غير متناهية فلا يشق عليه فعل أسهل وهو الاستفادة من قوله : « إن الله على كل شيء قدير » فإن القدرة إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهية فافهم ذلك .

وقوله : « والله المثل الأعلى في السماوات والأرض » تقدم أنه في مقام الحجة بالنسبة إلى قوله : « وهو أهون عليه » ومحصله أن كل صفة كمالية يتصف به شيء مما في السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن الله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد ومحضها من غير شوب وصرفها من غير خلط .

وقوله : « وهو العزيز الحكيم » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « والله المثل الأعلى » الخ ، أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممنوع من أن يتمتع عليه شيء حكيم لا يمرض فعله فتور ، ولو لم تكن صفة من صفاته مثلاً أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت معدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستدرك ذلك القصور فلم يكن عزيزاً أعلى الإطلاق وأحدث ذلك النقص في فعله ثلثة وقتوراً فلم يكن حكيماً على الإطلاق .

قوله تعالى : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » الخ ، « من » في قوله : « من أنفسكم » لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلاً متخذاً من أنفسكم منتزِعاً من الحالات التي لديكم ، وقوله : « هل لكم » شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار ، و « ما » في « مما ملكت » للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء ، و « من » في « من شركاء » زائدة وهو مبتدأ ، وقوله : « فأنتم فيه سواء » تفريع على الشركة ، و « أنتم » خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التقليل ، وقوله : « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » أي تخافون المالكين الشركاء أن تستبدوا في تصرف المال المشترك من غير إذن منهم ورضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار .

وهذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الألوهية والربوبية وقد ألقى المثل في صورة الإستفهام الإنكاري : هل يوجد بين ممالككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم - والحال أنهم ممالك لكم تملكونهم وما في أيديهم - بحيث تخافونهم من التصرف في أموالكم بغير إذن منهم ورضى كما تخافون للشركاء الأحرار من نوع أنفسكم ١٢

لا يكون ذلك أبداً ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله وإذا لم

يخز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجن وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقه وآله وأرباباً من دونه ؟

ثم تمّ الكلام بقوله : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » وفيه تهديد لما يتلوه من الكلام .

قوله تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن هدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين » إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التقبل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل اتبع الذين أشركوا وإنما بدّله من قوله : « بل اتبع الذين ظلموا » فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلّال في قوله : « فمن هدي من أضلّ الله » فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي ، قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

فقوله : « فمن هدي من أضلّ الله » استفهام إنكاري مدلوله الإيأس من نعمة الهداية للمشركين المتسعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرر في كلامه تعالى : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وقوله : « وما لهم من ناصرين » نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال وتبجّاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم ونفي الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء .

وقول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطرد .

ومعنى الآية : بل اتبع الذين ظلموا بشركم أهواءهم بغير علم وتعقل فأضلّهم الله بظلمهم ولا هادي يهديهم وليس لهم ناصرون ينصرونهم .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » الكلام متفرع على ما تحصّل

من الآيات السابقة المثبتة للبدأ والمعناد أي إذا ثبت أن الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سميع ومحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه وأقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنه الدين الذي تدعو إليه الخلق الإلهية .

وقيل : الكلام متفرع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدال على ما هو الحق وأن المشركين لظلمهم اتبعوا الأهواء وأعرضوا عن التعقل الصحيح فأضلهم الله ولم يأذن لناصر بنصرهم بالهداية ولا لمنقذ ينقذهم من الضلال لأنك لا أنت وغيرك فاستئس منهم واهتم بخاصة نفسك ومن تبعك من المؤمنين وأقم وجهك ومن تبعك للدين .

فقوله : « فأقم وجهك للدين » المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يميناً وشمالاً والظاهر أن اللام في الدين للهدى والمراد به الإسلام .

وقوله : « حنيفاً » حال من فاعل أقم وجوز أن يكون حالاً من الدين أو حالاً من الوجه والأول أظهر وأنسب للسياق ، والحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال .

وقوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الفطرة ببناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و « فطرة الله » منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي يهتف به الخلق ويهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبدل لها .

وذلك أنه ليس الدين إلا سنة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلا السعادة وقد هدى كل نوع من أنواع الخلق إلى سعادته التي هي بنية حياته بفطرته ونوع خلقته وجهز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « الذي خلق فسوئى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ .

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهيئه إلى تميم نواقصه ورفع حوائجه وتهتف له بما ينفعه وما يضره في حياته ، قال تعالى : « ونفس وما سواها

فألمها فجورها وتقواها ، الشمس : ٨ ، وهو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل ، قال تعالى : ثم السبيل بسره ، عبس : ٢٠ .

فلانسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة وسبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلا أن يسلكها خاصة وهو قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وليس الانسان العائش في هذه النشأة إلا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه وما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن فما للانسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة وشفاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة تهديه إليها هادٍ واحد ثابت .

وليكن ذاك الهادي هو الفطرة ونوع الحلقة ولذلك عقب قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » بقوله : « لا تبديل لخلق الله » .

فلو اختلفت سعادة الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الانسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار ، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن وجيل مع من ورتوا من آباؤهم أو أخلفوا من أبنائهم ولم يسر الاجتماع الانساني سير التكامل ولم تكن الانسانية متوجهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقق النقص والكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينها .

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الانسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد ، فلانسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الانسان وهي التي تدير رضى الانسانية مع ما يلحق بها من السن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة .

وهذا هو الذي يشير إلى قوله بعد : « ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وسنزيد المقام إيضاحاً في بحث مستقل إن شاء الله تعالى .

وللقوم في مفردات الآية ومعناها أقوال آخر متفرقة :

منها : أن المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإن الوجه هو ما يتوجه إليه وهو العمل وإقامته تسديده .

وفيه : أن وجه العمل هو غايته المقصودة منه وهي غير العمل والذي في الآية هو « فأقم وجهك » ولم يقل : فأقم وجه عملك .

ومنها : أن « فطرة الله » منصوب بتقدير أعني والفطرة هي الملة ، والمعنى : اثبت وأدم الاستقامة للدين أعني الملة التي خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

وفيه : أنه مبني على اختلاف المراد بالفطرة وهي الملة و « فطر الناس » وهو الخلقة والتفكيك خلاف ظاهر الآية ولو أخذ « فطر الناس » بمعنى الإدانة أي الحمل على الدين وهو التوحيد بقي قوله : « لا تبديل لخلق الله » لآيلائم ما قبله .

على أن فيه خلاف ظاهر آخر وهو حمل الدين على التوحيد ، ولو أخذ الدين بمعنى الاسلام أو مجموع الدين كله وأبقيت الفطرة على معناها المتبادر منها وهو الخلقة لم يستقم تقدير « أعني » فإن الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلقة .

ومنها : أن « فطرة » بدل من « حنيفاً » والفطرة بمعنى الملة ويرد عليه ما يرد على سابقه .

ومنها : أن « فطرة » مفعول مطلق لفعل محذوف مقدر ، والتقدير : فطر الله فطرة فطر الناس عليها وفساده غني عن البيان .

ومنها : أن معناه اتبع من الدين ما ذلك عليه فطرة الله وهو ما ذلك عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنه خلقهم وركبهم وصوّرهم على وجه يدل على أن لهم صنماً قادراً عالمًا حياً قديماً واحداً لا يشبه شيئاً ولا يشبه شيء .

وفيه أنه مبني على كون « فطرة » منصوباً بتقدير اتبع وقد ذكره أبو السعود وقبله أبو مسلم المفسر فيكون المراد من اتباع الفطرة اتباع دلالة الفطرة بمعنى الخلقة والمراد بعدم تبديل الخلق عدم تغييره في الدلالة على الصانع بما له من الصفات الكريمة ، وهذا قريب من المعنى الذي قدمناه للآية بجمل « فطرة » على الإغواء لكن يبقى عليه أن الآية عامة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد .

ومنها : أن لا في قوله : « لا تبديل لخلق الله » تفيد النهي أي لا تبدلوا خلق الله أي دينه الذي أمرتم بالتمسك به ، أو لا تبدلوا خلق الله بإنكار دلالته على التوحيد ومنه ما نسب إلى ابن عباس أن المراد به النهي عن الحُصاء .

وفيه أن لا دليل على أخذ الخلق بمعنى الدين ولا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الحلقة أو إنكارها تبديلاً لخلق الله . وأما ما نسب إلى ابن عباس ففساده ظاهر .

ومنها : ما ذكره الرازي في التفسير الكبير قال : ويحتمل أن يقال : خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية . وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين : إن الناقص لا يصلح لعبادة الله وإنا الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن غيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال : لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك . انتهى .

وفيه أنه مغالطة بين الملك والعبادة التكوينية والملك والعبادة التشريعية فإن ملكه تعالى الذي لا يقبل الانتقال والبطلان ملك تكويني بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى والعبادة التي بإزائه عبادة تكوينية وهو خضوع ذوات الأشياء له تعالى ولا تقبل التبديل والترك كما في قوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ ، وأما العبادة الدينية التي تقبل التبديل والترك فهي عبادة تشريعية بإزاء الملك التشريعي المتبر له تعالى فافهمه .

ولو دل قوله : « لا تبديل لخلق الله » على عدم تبديل الملك والعبادة والعبودية لدل على التكويني منها والذي يبده الفائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو بعبادة الكواكب أو المسيح فإنما يعني به التشريعي منها .

قوله تعالى : « منيبين إليه واتقوا وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » تتمم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي ﷺ نظير قوله : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء الطلاق : ١ » ، وقوله : « فاستقم كما أمرت أنت ومن معك ولا تطغوا » هود : ١١٢ ،

فيقول المعنى إلى نحو من قولنا : فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت ومن معك منيبين إلى الله ، والإجابة الرجوع بالتوبة .

وقوله : « واتقوه وأقيموا الصلاة » التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره والانتهاة عن نواهيته تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر المبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين .

وقوله : « ولا تكونوا من المشركين » القول في اختصاصه من بين سائر الهرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة ، وقد قال تعالى : « إن الله لا يفرق بين أن يشرك به ويفرق ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « من الذين فرقوا دينهم وكفوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » « من » للتبيين و « من الذين فرقوا دينهم » النج ، بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم وهو تفرقهم في دينهم وعودهم شيعاً شيعاً وحزباً حزباً يفرح ويسر كل شيعاً وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله : « بل أتبع الذين ظلموا أهواءهم فمن هدي من أضل الله وما لهم من ناصرين » فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنه لا يهديهم ولا هادي غيره .

ومن المعلوم أنه هوى النفس لا يتفق في النفوس بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال وإذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها ، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى .

ومن هنا يظهر أن النهي عن تفرق الكلمة في الدين نهي في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل ، وربما احتل كون الآية استثنافاً من الكلام وهو لا يلائم السياق .

وفي الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة والتعزب في الدين . قوله تعالى : « وإذا حسرت الناس ضرر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا آذاهم منه رحمة إذا فريق منهم برهم يشركون » التمييز بالمس للدلالة على القلة والخفة وتنكير ضر

ورحة أيضاً لذلك والمعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلاً كمرض ما وفقر ما وشدة ما دعوا ربهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحة إذا فربق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعونه ويعترفون بربوبيته بشر كون باتخاذ الأنداد والشركاء .

أي إنهم كافرون للنعمة طبعاً وإن اعترفوا بها عند الضر وقد أخذ لذلك قريباً منهم لأن منهم من ليس كذلك .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتموا فسوف تعلمون » تهديد لأولئك المشركين عند إذاعة الرحمة واللام في « ليكفروا » للأمر الغائب وقوله : « فتمتموا » يتفرع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعاً للتهديد ، والاتلفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفریطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر ويكفروا إذا كشف .

قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » « أم » منقطعة والمراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازاً ، والسلطان البرهان ، والمراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى : بل أعلنناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم . ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلا مجاز في الإنزال والتكلم والمعنى : بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم .

قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » الإذاعة كالس تدل على قليل النبل ويسيره ، والقنوط اليأس . وإذا الأولى شرطية والثانية فجائية ، والمقابلة بين « إذا » في إذاعة الرحمة و « إن » في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية والسيئة قليلة احتمالية ، ونسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية مفاضة منه تعالى والسيئة عدمية هي عدم الإفاضة ولذا عليها بقوله : « بما قدمت أيديهم » ، وفي تعطيل السيئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أن الرحمة تفضل .

والتشعير في الرحمة بقوله : « فرحوا » وفي للسيئة بقوله : « إذا هم يقنطون » للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمترقب فإن الرحمة والسيئة بيد الله والرحمة واسعة

ولهذا عير بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم .

والمراد بالآية بيان أن الناس لا يعبءونهم نظراً لما يشاهدونه من النعمة والنعمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم وبمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن ، وإذا فقدوا قطنوا كأن ليس ذلك بإذن من ربهم ولهم لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون .

وبهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق : « وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه » الآية وذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا قطنوا ومدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا دعوا الله وهم قانطون من الشيء ، وأسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع .

وربما أوجب بأن المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس في الآية السابقة ولو فرض اتحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال وقنوطهم في حال أخرى .

وأوجب عنه أيضاً بأن الدعاء لساني جار على العادة ولا ينافي القنوط الذي هو أمر قلبي وأنت خير بما في كل من الجوابين من الفتور .

وأوجب أيضاً أن المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالأهتمام يجمع الذخائر أيام القلاء . وفيه مضافاً إلى عدم الدليل على ذلك أنه لا يلائم معنى المفاجأة في القنوط .

قوله تعالى : « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » بيان لحظّتهم في المبادرة إلى الفرح والقنوط عند إذاعة الرحمة وإصابة السيئة فإن الرزق في سمته وضيقة تابع لمشية الله فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التي ذاقها والسيئة التي أصابت ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه ولا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده ولا للقنوط مما يرجى رواه .

وأما أنه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذي يناله الإنسان أو يكسبه متوقف الوجود على ألوف وألوف من الأسباب والشرائط ليس الإنسان الذي يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب ولا السبب للذي يركن إليه ويطيّب به نفساً إلا بعض تلك الأسباب وعامة الأسباب منتبهة إليه سبحانه فهو الذي يعطي ويمنع وهو

الذي يبسط ويقدر أي يوسع ويضيق ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، الخ ، ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوأ حالاً من الفقير وابن السبيل المسافر ذو الحاجة ، وإضافة الحق إلى الضمير تدل على أن لذي القربى حقاً ثابتاً ، والخطاب للنبي ﷺ ، فظاهر الآية بما تحتمل به من القرائن أن المراد بها الخمس والتكليف للنبي ﷺ ويتبعه غيره ممن كلف بالخمس ، والقرابة على أي حال قرابة النبي ﷺ كما في آية الخمس ، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية وأما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل .

ولعموم الآية معنى عم ذكره أثره الجميل فقال : « ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » .

قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ، الربا نغاه المال ، وقوله : « ليربو » الخ ، يشير إلى وجه التسمية ، فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله - بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله - فليس يزيد وينمو عند الله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه .

وقوله : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير ، والمضعف ذو الضعف ، والمعنى : وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم .

فالمراد بالربا هو الزكاة بقرينة المقابلة وما احتف بها من الشواهد ، الربا الحلال وهو العطية من غير قرينة ، والصدقة وهي إعطاء المال مع قصد القرينة . هذا كله على تقدير كون الآية مكية وأما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم وبالزكاة هي الزكاة المفروضة .

وهذه الآية والتي قبلها أشبه بالمدينيات منها بالمكيات ولا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول .

(بحث روائي)

في العمون عن عبيد الله بن عباس قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال في آخر خطبته : نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمسئل الأعلى والجمعة العظمى والعروة الوثقى . الحديث .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » الآية أن سبب نزولها أن قريشاً كانوا يحجون البيت بحج إبراهيم عليه السلام ويلبسون تلبيته : لبسك اللهم لبسك لبسك لا شريك لك لبسك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فجاءهم إبليس في صورة شيخ فغير تلبيتهم إلى قول : لبسك اللهم لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فكانت قريش تلي هذه التلبية حتى بعث رسول الله ﷺ فأنكر عليهم ذلك وقال : إنه شرك .

فأنزل الله عز وجل : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، أي أترضون أنتم فيما تملكون أن يكون لكم فيه شريك ؟ فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكاً فيما أملك ؟ »

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً » قال : هي الولاية .

وفيه بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : التوحيد .

أقول : ورواه أيضاً عن الحلبي وزرارة عنه عليه السلام ورواه الصدوق في التوحيد عن العلاء بن فضيل وزرارة وبكبير عنه عليه السلام .

وفي روضة الكافي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال : كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد ، وهو الفطرة التي فطر الناس عليها .

وفي تفسير القمي بإسناده عن الهيثم الرماني عن الرضا عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي عليهم السلام في قوله عز وجل : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال :

هو لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ولي الله إلى ههنا التوحيد .

أقول : وروى هذا المعنى في بصائر الدرجات عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه في التوحيد عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عنه عليه السلام .

ومعنى كون الفطرة هي الشهادات الثلاث أن الإنسان مفطور على الإعراف بالله لا شريك له بها يحمد من الحاجة إلى الأسباب المحتاجة إلى ما وراءها وهو التوحيد وبها يحمد من النقص المحوج إلى دين يدين به ليكله وهو النبوة ، وبها يحمد من الحاجة إلى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية والفتاح لها في الإسلام هو علي عليه السلام ، وليس معناه أن كل إنسان حتى الإنسان الأولي يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث .

وإلى هذا يؤل معنى الرواية السابقة أنها الولاية فإنها تستلزم التوحيد والنبوة وكذا ما مر من تفسيره الفطرة بالتوحيد فإن التوحيد هو القول بوحداية الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للعقاد والنبوة والولاية فالآل في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد .

وفي المحاسن بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : فطرة الله التي فطر الناس عليها ، قال : فطرم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعملوا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم ؟ .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن نعم الصحاف عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال : فقال عليه السلام : إن الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرم عليها لا يعرفون إيماناً بشريعة ولا كفرةً يجهلون ثم بعث الله عز وجل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وأردت في تفسير قوله تعالى : وكان الناس أمة واحدة ، البقرة : ٢١٣ والمراد فيها بالإنسان الفطري الإنسان الساذج الذي يعيش على الفطرة الإنسانية الذي لم يفسده الأهوام الفكرية والأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة وكليات الشرائع الإلهية فإنه يعيش ببعث وتحريك من فطرته وخصوص خلقته . وإنما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة

وتفاصيل الشرائع الالهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمرو الصفار قال : سألت قتادة عن قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » فقال : حدثني أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : دين الله .

وفيه أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ قال أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الآية .

أقول : ورواه أيضاً عن مالك وأبي داود وابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولفظه : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسون من جدعاء .

ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : قال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه . الحديث .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله ، وأربعة أشهر الصلاة على النبي وأربعة أشهر الدعاء لوالديه .

أقول : هو حديث لطيف ومعناه : أن الطفل في الأربعة أشهر الأولى لا يعرف أحداً وإنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها والرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرع اليه ويشهد له بالوحدانية .

وفي الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه وبين رافع حاجته من غير أن يعرفها بشخصيتها والواسطة بينه وبين ربه هو النبي فبكاءه طلب الرحمة من ربه للنبي حتى يصل بتوسطه اليه .

وفي الأربعة أشهر الثالثة يميز والديه بشخصيتها عن غيرها فبكاءه دعاء منه لها وطلب جريان الرحمة من طريقها اليه . ففي الحديث أُلطف الإشارة إلى كيفية جريان

الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك .

وفي الجمع في قوله تعالى : « وآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » وروى أبو سعيد الخدري وغيره أنه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً وسلمه اليها وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليها السلام .

وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم الليثي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الربا رباة ان ربا يؤكل وربا لا يؤكل ، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل ، وهو قول الله عز وجل : « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه للنار .

أقول : ورواه أيضاً في التهذيب عن إبراهيم بن عمر عنه عليه السلام ، وفي تفسير القمي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام ، وفي الجمع مرسلًا عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي الجمع في قوله تعالى : « فاولئك هم المضعفون » قال أمير المؤمنين عليه السلام : فرض الله الصلاة تنزيهاً عن الكبر ، والزكاة تسيباً للرزق ، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق ، وصلة الأرحام مناة للعدد .

وفي الفقيه خطبة للزهراء عليها السلام وفيها : ففرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق .

(كلام في معنى كون الدين فطرياً ، في فصول)

١ - إذا تأملنا هذه الأنواع الموجودة التي تتكون وتتكامل تدريجاً سواء كانت ذوات حياة وشعور كأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كأنواع النباتات أو ميتة غير ذي حياة كسائر الأنواع الطبيعية - على ما يظهر لنا - وجدنا كل نوع منها يسير في وجوده سيراً تكوينياً معيناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض وبعضها بعد بعض يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله وقبل الوصول إلى ما بعده ولا يزال يستكمل بطيء هذه المنازل حتى ينتهي إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطلوبة بحركة النوع يلزم كل منها مقامه الخاص به لا يستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله فيينا

رابطة تكوينية يربط بينها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه ومن هنا يستنتج أن للنوع غاية تكوينية يتوجه إليها من أول وجوده حتى يبلغها .

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرت في الأرض استقراراً يهيئها للنمو على اجتماع مما يتوقف عليه النمو من العسل والشرائط كالرطوبة والحرارة وغيرها أخذ لها في النمو وشقّ القشر وشرع في ازدياد من أقطار جسمه ولم يزل يزيد وينمو حتى يصل إلى حد يعود فيه شجرة قوية خضراء مثمرة ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكويني وهو في أول وجوده قاصداً قاصداً تكوينا إلى غايته التكوينية التي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

- وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضان مثلاً لا نشك في أنها في أول تكونها جنيناً متوجهة إلى غايتها النوعية التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصها فلا تفضل عن سبيلها التكوينية الخاصة بها إلى سبيل غيرها ولا تنسى غايتها يوماً فتسير إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً فكل نوع من الأنواع للتكوينية له مسير خاص في استكمال الوجود ذو مراتب خاصة مترتبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتاً يطلبها طلباً تكوينا بحركته التكوينية والنوع في وجوده مجهز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجه التكويني لاستناده إلى الله يسمى هداية عامة إلهية وهي كما عرفت لا تفضل ولا تخطئ في تسيير كل نوع مسيره التكويني وسوقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجي وباعمال قواه وأدواته التي جهز بها لتسهيل مسيره إلى غايته ، قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال : « الذي خلق فسوياً والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أهوى » الأعلى : ٥ .

٢ - نوع الانسان غير مستثنى من كلية الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامة له فنحن نعلم أن النطفة الإنسانية من حين تشرع في التكون متوجهة إلى مرتبة إنسان تام كامل له آثاره وخواصه قد قطع في مسيره مراحل الجنينية والطفولية والمراهقة والشباب والكهولة والشيب .

غير أن الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانية والنباتية وغيرها فيما نعم في أمره^(١) وهو أنه لسمة حاجته التكوينية وكثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تتميم نواقصه الوجودية ورفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أن الواحد من الانسان لا تم له حياته الإنسانية وهو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مدني مجتمع فيه مع غيره بالأزدواج والتعاون والتعاقد فيسمى الكل بجميع قواهم التي جهزوا بها للكل ثم يقسم الحاصل من عملهم بين الكل فيذهب كل بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية .

وقد عرفت في سابق مباحث هذا الكتاب أن المدنية ليست بطبيعية للإنسان بمعنى أن ينبعث اليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد اليه سبيلاً فهو يستخدم الامور الطبيعية ثم أقسام النبات والحيوان في سبيل مقاصده الحيوية فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجره لكنه يحدد سائر الأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهازات والقوى فيضطر إلى المسألة وأن يسلم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه .

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل المتعاوفاً ثم يقسم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويمطى منه لكل ما يستحقه .

وكيف كان فالجتمع الإنساني لا يتم انمقاده ولا يعمّر إلا باصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل وحافظ يحفظها من الضيعة ويجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرّف عليهم السعادة .

أما الاصول العلمية فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية ، فإن المذاهب المختلفة مؤثرة في خصوص السنن المعمول بها في المجتمعات فالمتقدمون في الانسان أنه مادي محض ليس له من الحياة إلا الحياة المعجزة المؤجلة بالموت وأن ليس في دار الوجود إلا للسبب المادي الكائن الفاسد ينظمون سنن اجتماعهم ، بحيث تؤديهم الى اللذائف المحسومة والكالات المادية ما وراهها شيء .

(١) وعامة الحيوان وان كان لها شيء من الاجتماع الحيوي لكنه يسير في جنب الاجتماع لا يعبأ به.

والمعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنية يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيوية والمعتقدون بالمبدأ والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسمدهم في الحياة الدنيوية ثم في الحياة المؤبدة التي بعد الموت فصور الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف الأصول الاعتقادية في حقيقة العالم والانسان الذي هو جزء من أجزائه .

وأما القوانين والسنن الاجتماعية فلولا وجود قوانين وسنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلّمونها تفرق الجمع والنحل المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضايا كلية عملية صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز وهي أياً كانت معتبرة في العمل لغايات مصلحة للاجتماع والمجتمع تقرب عليها تسمى مصالح الأعمال ومفاسدها .

٣ - قد عرفت أن الانسان إنما ينال ما قدر له من كمال وسعادة بمقد مجتمع صالح يحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التي تليق به وهذه المساعدة أمر أو امور كالية تكوينية تلحق الانسان الناقص الذي هو أيضاً موجود تكويني فتجعله إنساناً كاملاً في نوعه تاماً في وجوده .

فهذه السنن والقوانين - وهي قضايا عملية اعتبارية - واقعة بين نفس الانسان وكاله متوسطة كالمبرة بين المنزلتين وهي كما عرفت تابعة للمصالح التي هي كمال أو كالات إنسانية ، وهذه الكالات امور حقيقية مسانحة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الانسان الحقيقية .

فحوائج الانسان الحقيقية هي التي وضعت هذه القضايا العملية واعتبرت هذه التواميس الاعتبارية ، والمراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الانسانية بأعمالها وعزائمها ويصدقه العقل الذي هو القوة الوحيدة التي تميز بين الخير والنافع وبين الشر والضار دون ما تطلبه الأهواء النفسانية مما لا يصدقه العقل فإنه كمال حيواني غير إنساني .

فأصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقية التي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية .

وقد عرفت أن الصنع والايجاد قد جهز كل نوع من الأنواع - ومنها الانسان -

من القوى والأدوات بما يرتفع بفعالته حوائجه وبسلوكه به سبيل الكمال ومنه يستنتج أن للجهازات التكوينية التي جهز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المسماة بالسُنن والقوانين التي بالعمل بها يستقر الإنسان في متر كاله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذّي المتبصرة بما أن الإنسان مجهز بجهاز التغذي والراجعة إلى النكاح بما أن الإنسان مجهز بجهاز للتوالد والتناسل .

فتبين أن من الواجب أن يتخذ الدين - أي الأصول العملية والسنن والقوانين العملية التي تضمن بانحازها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقية - من اقتضاءات الحلقة الإنسانية وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطرياً وهو قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

٤ - قد عرفت معنى كون الدين فطرياً فالإسلام يسمى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانية تقتضيه وتهدى إليه .

ويسمى إسلاماً لما أن فيه تسليم المبدأ لإرادة الله سبحانه منه ، ومصداق الإرادة وهي صفة الفعل تجتمع للعقل المؤلف من خصوص خلقه الإنسان وما يحتف به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء للفعل أو الترك قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » . ويسمى دين الله لأنه الذي يريد الله من عباده من فعل أو ترك ، بما مر من معنى الإرادة .

ويسمى سبيل الله لما أنه السبيل للتي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله وسعادته ، قال تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً » الأعراف : ٤٥ .

وأما أن الدين الحق يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوة ولا يكفي فيه العقل فقد تقدم بيانه في مباحث النبوة وغيرها من مباحث الكتاب .

* * *

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شَرِكَاكُمْ
 مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ - ٤٠ .
 ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
 الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ - ٤١ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ - ٤٢ . فَأَقِمْ
 وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
 يَصَّدَّقُونَ - ٤٣ . مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ
 يَمَّهْدُونَ - ٤٤ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ
 إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ - ٤٥ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ
 وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - ٤٦ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
 فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
 الْمُؤْمِنِينَ - ٤٧ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة التي يحتج فيها بالأفعال الخاصة به وإن شئت
 فقل : بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء ونفي ربوبيتهم وألوهيتهم وعلى إثبات المعاد.

قوله تعالى : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلك من شيء » الخ ، اسم الجلالة مبتدأ و « الذي خلقكم » خبره ، وكذا قوله : « من يفعل » الخ مبتدأ خبره « من شركائكم » انعدم عليه والاستفهام إنكاري وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات أخر .

والمعنى : أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفا من أوصاف الألوهية والربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئا من ذلك يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، وإذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم وربكم لا إله إلا هو .

ولعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق والإحياء والإماتة مع تكرر تقدم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق .

فليس لهم أن يقولوا : إن الرازق وكذا الهيي والميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة ومدبر كل شأن من شؤون العالم من الحشرات والشرور بمضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق والإيجاد منه تعالى لا يشارك في ذلك أحد فإذا سلم ذلك ومن المسلم أن الرزق مثلا خلق وكذا سائر الشؤون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى ولم يبق لأهلهم شأن من الشؤون .

ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم فقال : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لينذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الآية بظواهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو مكان أو بواقعة خاصة ، فالمراد بالبر والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية .

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيها الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان

مستنداً إلى اختيار بعض الناس أو غير مستند إليه . فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر نخل بطيب العيش الانساني .

وقوله : « بنا كسبت أيدي الناس » أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية الأعراف : ٩٦ ، وأيضاً في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداها من صلاح الاخرى وفسادها .

وقوله : « لينذيقهم بعض الذي عملوا » اللام للغاية ، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل لينذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » للشورى : ٣٠ .

والآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي وإذاقة بمضه لأكله من غير نظر إلى وبال الأعمال الاخروي فما قيل : إن المراد إذاقة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الاخروي إلى يوم القيامة لا دليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام : « لينذيقهم بعض جزاء ما عملوا مع أن التقدير « لينذيقهم جزاء بعض ما عملوا » ، لأن الذي يحوجنا إلى تقدير المضاف - لو أحوجنا - هو أن الراجع اليهم ثانياً في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالذي أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا .

وقوله : « لعلهم يرجعون » أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شرهم ومعاصيهم إلى التوحيد والطاعة .

وجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما احتج في الآية السابقة على التوحيد ونزّهه عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك - وهو معصية - من الفساد في الأرض وإذاقة وبال السيئات فبين ذلك بيان عام .

ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكة وقول بعضهم : المراد بالبر الفقار التي لا يجري فيها نهر وبالبحر كل قرية على شاطئ نهر عظيم ، وقول بعضهم : البرّ الفيافي ومواضع القبائل والبحر السواحل والمدن التي عند

البحر والنهر، وقول بعضهم: البر البرية والبحر المواضع المحصبة الحاضرة، وقول بعضهم: إن هناك مضافاً محذوفاً والتقدير في البر ومدن البحر، ولعل الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ما ورد أن الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي ﷺ على قريش لما لجأوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيها وقعوا من التكلف.

وقول بعضهم: إن المراد بالفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كل سفينة غصباً. وهو كما ترى.

قوله تعالى: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين»، أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم وعفت آثارهم وبادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

قوله تعالى: «فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون» تفریع عنی ما تقدمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحق بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيم.

وقوله: «من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله» متعلق بقوله: «فأقم» والمراد مصدر ميمي بمعنى الرد وهو بمعنى الراد واليوم الذي لا مرد له من الله يوم القيامة.

وقوله: «يومئذ يصدعون» أصله يتصدعون، والتصدع في الأصل تفرق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق كما قيل، والمراد به - كما قيل - تفرقتهم يومئذ إلى الجنة والنار.

وقيل: المراد تفرق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله تعالى: «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» الفارعة: ٤. ولكل وجه، ولعل الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي.

قوله تعالى: «من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يهدون» الظاهر أنه تفسير لقوله في الآية السابقة: «يتفرقون» وقوله: «من كفر فعليه كفره» أي وبال

كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه تاراً يخلد فيها وهذا أحد الفريقين .
 وقوله : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يهدون ، مهد الفراش بسطه وإبطاؤه ،
 وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد جيء بالجزء « فلأنفسهم
 يهدون » جمعاً نظراً إلى المعنى ، كما أنه جيء به مفرداً في الشرطية السابقة « فعليه
 كفره » نظراً إلى اللفظ ، واكتفي في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيذان معه
 لأن العمل إنما يصلح بالإيذان على أنه مذكور في الآية التالية .

والمعنى : والذين عملوا عملاً صالحاً - بعد الإيذان - فلأنفسهم يوطئون ما يمشون
 به ويستقرّون عليه .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب
 الكافرين » قال الراغب : الجزء القناء والكفاية ، قال الله تعالى : « لا تجزي نفس عن
 نفس شيئاً » ، وقال : « لا يجزي والده عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً »
 والجزء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، يقال : جزيته كذا
 وبكذا . انتهى .

وقوله : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اللام للفاية ولا ينافي
 عدّة ما يؤتيهم جزاء - وفيه معنى المقابلة - عدّة من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق
 وذلك لأنهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق الله سبحانه فلا يملكون
 لأنفسهم شيئاً حتى يستحقوا به أجراً ، وأين العبودية من الملك والاستحقاق فما يؤتونه
 من الجزاء فضل من غير استحقاق .

لكنه سبحانه بفضله ورحمته اعتبر لهم ملكاً لأعمالهم في عين أنه يملكهم ويملك
 أعمالهم فجعل لهم بذلك حقاً يستحقونه ، وجعل ما ينالونه من الجنة والزلفى أجراً
 مقابل لأعمالهم وهذا الحق المجهول أيضاً فضل آخر منه سبحانه .

ومنشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحببوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم
 واتبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحببهم الله كما قال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
 يحببكم الله » آل عمران : ٣١ .

ولذا كانت الآية تمد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة

وتعدّ ذلك من فضله نظراً إلى أن نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشأه حبه تعالى لهم كما يؤمى إليه تذييل الآية بقوله : « إنه لا يحب الكافرين » .

ومن هنا يظهر أن قوله : « إنه لا يحب الكافرين » ، يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي والاثبات جميعاً أي إنه تعالى يخص المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل ويحرم الكافرين منه لأنه يحب هؤلاء ولا يحب هؤلاء .

قوله تعالى : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله .

وقوله : « وليذيقكم من رحمته » عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة .

وقوله : « ولتجري الفلك بأمره » أي لجريان الرياح وهبوبها. وقوله : « ولتبتغوا من فضله » أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله .

وقوله : « ولعلكم تشكرون » ، غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية ، والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينسب عن إنعام منعه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه ، وينطبق بالأخرة على عبادته ولذلك جيء بلملّ المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » قال الراغب : أصل الجرم - بالفتح فالسكون - قطع الثمرة عن الشجر - إلى أن قال - وأجرم صار إذا جرم نحو أثمر وأثمر وألبن واستمير ذلك لكل اكتساب مكروه ، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس الممود انتهى .

والآية كالمترضة وكأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقاً على ربهم وهو نصرهم في الدنيا والآخرة ومنه الانتقام من الجرمين ، وهذا الحق مجمول من قبله تعالى لهم على

نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوباً في نفسه مقهوراً محكوماً لغيره .
 وقوله : « فانتقمنا من الذين أجرموا » الفاء فصيحة أي فأمن بمضمهم وأجرم
 آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقاً علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك
 مخالفيهم ، وفي الآية بعض الأشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه
 من النصر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي
 الناس » قال : في البر فساد الحيوان إذا لم يطر وكذلك هلاك دواب البحر بذلك ،
 وقال الصادق عليه السلام : حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر
 والبحر ، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي .

أقول : وهو من الجري .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام
 عن قول الله عز وجل : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من
 قبل » فقال : عني بذلك أي انظروا في القرآن فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم .

وفي الجمع في قوله : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمدون » روى منصور بن
 حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهد
 له كما يهد لأحدهم خادمه فرائه .

وفيه وجاءت الرواية عن أم الدرداء أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :
 ما من امرء يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة
 ثم قرأ : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن
 أبي الدرداء .

* * *

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ - ٤٨ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ - ٤٩ . فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّبِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخَيِّبٌ لِّلْمُوتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٥٠ . وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ - ٥١ . فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمُوتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ - ٥٢ . وَمَا أَنْتَ بِنَادِ الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ - ٥٣ .

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتجة من طريق أفعاله تعالى وإن شئت فقل: أسماء أفعاله وعمدة غرضها الاحتجاج على المعاد ، ولما كان عمدة إنكارهم وجودهم متوجهاً إلى المعاد وبإنكاره يلفو الأحكام والشرائع فيلفو التوحيد عقوب الاحتجاج بإيثار النبي ﷺ وأمره بأن يشتغل بدعوة في نفسه استعداد الإيثار وصلاحيته الإسلام والتسلم للحق .

قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ » إلى آخر الآية ، الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسما جهة العلو فكل ما علاك وأظلك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق

القطر من المطر والحلال جمع خلة وهي الفرجة .

والمعنى : الله الذي يرسل الرياح فتتحرك وتنتشر سحباً ويبسط ذلك السحاب في جهة الملو من الجو كيف يشاء سبحانه ويجمعه قطعاً متراكبة متراكمة فتري قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات .

قوله تعالى : « وإن كنوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » الإبلان : البأس والقنوط .

وضمير « ينزل » للمطر وكذا ضمير « من قبله » على ما قيل ، وعليه يكون « من قبله » تأكيداً لقوله : « من قبل أن ينزل عليهم » وفائدة التأكيد - على ما قيل - الإعلام بسرعة تغلب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله : « من قبل أن ينزل عليهم » يحتمل الفسحة في الزمان فجاء « من قبله » للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال .

وفي الكشف أن قوله : « من قبله » من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى : « فكان عاقبتهم أنها في النار خالدن فيها » ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعُد فاستحكم بأسهم وتمادى إبلانهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . انتهى .

وربما قيل : إن ضمير « من قبله » لإرسال الرياح ، والمعنى : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآئسين قانطين .

قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير » الآثار جمع الأثر وهو ما يبقى بعد الشيء فيدل عليه كأثر القدم وأثر البناء واستمير لكل ما يتفرع على شيء ، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح ، وآثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها .

ولذا قال : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها ، فحياة الأرض بعد موتها

من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمار من آثار حياتها وهي أيضاً من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهي يتفرع على خلفة الرياح والسحاب والمطر .

وقوله : « إن ذلك لحيي الموتى » الإشارة بذلك إليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها ، وفي الإشارة البعيدة تعظيم ، والمراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان وغيره من ذوي الحياة .

والمراد بقوله : « إن ذلك لحيي الموتى » الدلالة على المائلة بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كل منها موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياء هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها ، وقد تحقق الإحياء في الأرض والنبات وحياء الإنسان وغيره من ذوي الحياة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد ، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال وهو الأرض والنبات فليجز في البعض الآخر .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة ولا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلا لزم تقيدها وقد فرضت مطلقة غير محدودة .

قوله تعالى : « ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلتوا من بعدهم يكفرون » ضمير « فرأوه » للنبات المفهوم من السياق ، وقوله : « لظلتوا » جواب للقسم قائم مقام الجزاء ، والمعنى : وأقسم لئن أرسلنا ريحاً باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلوا بعدهم كافرين بنعمه .

ففي الآية توبيخهم بالقلب السريع في النعمة والنعمة ، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار ، وإذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلمات من النعم .

وقيل : ضمير « فرأوه » للسحاب لأن السحاب إذا كان أصفر لم يمطر ، وقيل : للريح فإنه يذكّر ويؤنث ، والقولان بميدان .

قوله تعالى : « فإنك لا تسمع الموتى - إلى قوله - فهم مسلمون » تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل : لا تشتغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إيلاس واستبشار وكفر ومن عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقلها فإنهم موتى وصم وعمي

وأنت لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدقها فهم مسلمون . وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل .

* * *

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ
 جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ — ٥٤ .
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا
 يُؤْفَكُونَ — ٥٥ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي
 كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ — ٥٦ . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ — ٥٧ . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ
 مَثَلٍ وَلَئِنْ جِثَّتْهُمْ آيَةٌ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ — ٥٨ .
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ — ٥٩ . فَأَصْبِرْ إِنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ — ٦٠ .

(بيان)

هذا هو الفصل الرابع من الآيات وهو كسابقه وفيها ختام السورة .

قوله تعالى : « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » الخ ، الضعف والقوة متقابلان ، و « من » في قوله : « من »

ضعف للإبتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتداءكم ضعفاء، ومصادقة على ما تفيدته المقابلة أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة .

والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد وبالضعف بعد القوة الشيخوخة ولذا عطف عليه « شيبة » عطف تفسير ، وتكبير « ضعف » و « قوة » للدلالة على الإبهام وعدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك .

وقوله : « يخلق ما يشاء » أي كما شاء الضعف فخلق ثم القوة بعده فخلقها ثم للضعف بعدها فخلقها وفي ذلك أتمّ الإشارة إلى أن تالي هذه الأحوال من الخلق وإذا كان هذا النقل من حال إلى حال في عين أنه تدبير خلقاً فهو الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول : إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان ، مثلاً كما يقوله الوثنية .

ثم تم الكلام بالعلم والقدرة فقال : « وهو العليم القدير » .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » ، هذه الآيات كالذاتية للآيات السابقة المادة للآيات والحجج على وحدانيته تعالى والبعث ، وكالتمهيد والتوطئة للآية التي تختتم بها السورة فإنه لما عدّ شيئاً من الآيات والحجج وأشار إلى أنهم ليسوا بمن يترقب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبين أنهم في جهل من الحق ينلقون احديث الحق باطلاً والآيات الصريحة الدلالة منعزة عن دلائلها وكذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به .

وهذا لا يفت والتقلب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتى قيام الساعة فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلاً .

فقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » ، يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا ويوم البعث حتى ظنّوه ساعة من ساعات الدنيا .

وقوله : « كذلك كانوا يؤفكون » أي يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق ويقام عليه الحجج والآيات فيظنونونه باطلاً من القول وخرافة من الرأي .

قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الخ ، ردّ منهم لقول المجرمين : « ما لبثوا غير ساعة » فإن المجرمين لإخلاصهم إلى الأرض وتوغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه وبين الدنيا محكوماً بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم .

فرد عليهم أهل العلم والإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا ويوم البعث وهو الفصل الذي يشير إليه قوله : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » المؤمنون : ١٠٠ .

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث ولكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم : « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » ، أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر اللبث .

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله : « أوتوا العلم والإيمان » ، « اليقين والالتزام بمقتضاه وأن العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية ، ومن هنا يظهر أيضاً أن المراد بكتاب الله الكتب السماوية أو خصوص القرآن لا غيره وقول بعضهم : إن في الآية تقدماً وتأخيراً والتقدير وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به .

قوله تعالى : « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستمتعون » الاستعاب طلب المتبى ، والتبى إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم .

قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » الخ ، إشارة

(١) ويمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلك استدلالاً على قولهم بكتاب الله ويكون نظير ما في قوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » ، الجاثية : ٢٩ بناء على ما سيأتي من معناه « منه » .

إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا يفهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها ، ولذا عقبه بقوله : « ولئن جنتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » أي جاؤن بالباطل وهذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلاً ، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول .

قوله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » ، أي يجهلون بالله وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتياحهم .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » ، أي فاصبر على ما يراجهونك به من قولهم : « إن أنتم إلا مبطلون » وسائر تهكاتهم ، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أوما إليه بقوله : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه .

وقول بعضهم : إن المعنى لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينات بتكذيبهم لها وإيذائهم لك بأباطيلهم ، ليس بشيء ، وقد بدأت السورة بالوعد وختمت بالوعد والوعدان جميعاً بالنصرة .

(سورة لقمان مكية ، وهي أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الم - ١ . نِلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
الْحَكِيمِ - ٢ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ - ٣ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ - ٤ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى
مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ - ٥ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي
لَهُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ - ٦ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَتِلَا مَسْتَكْبِرًا كَانَ
لَمْ يَسْمَعْهَا كَانَ فِي أذُنِهِ وَقَرَأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ - ٧ . إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْنُونِ - ٨ . خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ
اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٩ . خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ - ١٠ . هَذَا
خَلَقَ اللَّهُ فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ - ١١ .

(بيانات)

غرض السورة كما يومي اليه فاتحتها وخاتمتها ويشير اليه سياق عامة آياتها الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكليات شرائع الدين .

ويلوح من صدر السورة أنها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » الآية ، وسيوافي حديثه . فنزلت السورة تبين أصول عقائد الدين وكلّيات شرائعه الحقّة وقصّت شيئاً من خبر لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية .

والسورة مكّية بشهادة سياق آياتها . ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » الآية .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين - إلى قوله - يوقنون » تقدم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة .

وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انتلام فيه ليداخله لهو الحديث وباطل القول ، ووصفه أيضاً بأنه هدى ورحمة للمحسنين تميماً لصفة حكته فهو هدى إلى الواقع الحق ويوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما همه ، وهو رحمة لا نعمة صارقة عن النعمة .

ووصف المحسنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما الممدقان في الأعمال وبالإيقان بالآخرة ويستلزم التوحيد والرسالة وعامة التقوى ، كل ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث المصفي اليه لمن يستمع لهو الحديث .

قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً » الخ ، اللهو ما يشغلك عما همّك ، وهو الحديث : الحديث الذي يلهمي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية إلى الفساد والفجور ، أو بما يقارنه كالتمغني بالشعر أو بالملاهي والزمائم والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث .

وقوله: « ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقّة الاعتقادية والعملية وخاصة قصص الأنبياء وأمهم الخالية فإنّ هو الحديث والأساطير المزوّفة المختلقة تعارض أولاً هذه القصص ثمّ تهدم بنيان سائر المعارف الحقّة وتوهنها في أنظار الناس .

ويؤيد ذلك قوله بعد : « ويتخذها هزواً » فإنّ هو الحديث بما أنّه حديث كما سمعت يعارض أولاً الحديث ويتخذة سخرياً .

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص والمعارف وكان مراد من كان يشترى هو الحديث أن يضلّ الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزواً بأنّه حديث مثله وأساطير كأساطيره .

وقوله : « بغير علم » متعلق بـ « يضلّ » وهو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضاً لا علم لهم ثم هددهم بقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي منذل يوهنهم وينذلهم هذاه استكبارهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً » الخ ، وصف لذلك الذي يشترى هو الحديث ليضلّ الناس عن القرآن وهزه به والوقر الحمل الثقيل والمراد بكون الوقر على أذنيه أن يشدّ عليها ما يمنع من السمع وقيل : هو كناية عن الصمم .

والمنى : وإذا تتلى على هذا المشتري هو الحديث آياتنا أي القرآن ولى وأعرض عنها وهو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم .

وقد اعيد إلى من يشترى ضمير الأفراد أولاً كما في « يشترى » و « ليضلّ » و « يتخذها » باعتبار اللفظ وضمير الجمع ، ثانياً باعتبار المنى ثم ضمير الأفراد باعتبار اللفظ كما في « عليه » وغيره كذا قيل ، ومن الممكن أن يكون ضمير « لهم » في الآية السابقة راجعاً إلى مجموع المضل والضالين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضائر الراجعة إلى « من » مفردة جميعاً .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعم - إلى قوله - العزيز الحكيم » رجوع بمسند إنذار ذلك المشتري وتهديده بالعذاب المهين ثم العذاب

الآلم إلى تبشير المحسنين وتطويب أنفسهم بحجة النعم حادثة الموعودة من قبله تعالى ووعده الحق .

ولما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضل به غير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره ويهين به وكان لا يعنني بما تتلى عليه من الآيات مستكبراً وذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولاً ما وعده للمحسنين بقوله : « وعد الله حقاً ، ثم وصف ثانياً نفسه بالعزة المطلقة ، فلا يطرأ عليه ذلة وإهانة والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة .

ثم وصفه ثالثاً بأنه الذي يدبر أمر السماء والأرض والنبات والحيوان والإنسان لأنه خالقها فله أن يمد هؤلاء بالجنة أو لئلك بالعذاب وهو قوله : « خلق السماوات بغير عمد ترونها ، الخ .

قوله تعالى : « خلق السماوات بغير عمد ترونها ، الخ ، تقدم في تفسير قوله تعالى : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، الرعد : ٢ ، أن قوله : « ترونها » يحتمل أن يكون قيداً توضيحياً ، والمضى أنكم ترونها ولا أعمدة لها ، وأن يكون قيداً احترازياً والمضى خلقها بغير أعمدة مرثية إشعاراً بأن هناك أعمدة غير مرثية .

وقوله : « وألقى في الأرض رواسي أن تمدد بكم ، أي ألقى فيها جبلاً شامخة لئلا تضطرب بكم وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة .

وقوله : « وبث فيها من كل دابة ، أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها . وقوله : « وأزلنا من السماء ماء وأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، أي وأزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر وأنبتنا فيها شيئاً من كل زوج نباتي شريف فيه منافع وله فوائد ، وفيه إشارة إلى تزوج النبات وقد تقدم الكلام فيه في نظيره .

والالفتات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قبل .

قوله تعالى : « هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ، لما أراهم خلقه وتدبيره تعالى للسماوات والأرض وما عليها فأثبت به ربوبيته والوهيته تعالى كلهم أن يروه شيئاً من خلق آلهتهم إن كانوا آله وأرباباً فإن

لم يقدرُوا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في الوهية وربوبيته .

وإنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم - وهم يعترفون أن الخلق لله وحده ولا يسندون إلى آلهتهم خلقاً وإنما ينسبون اليهم التدبير فقط ، لأنه نسب إلى الله خلقاً هو بعينه تدبير من غير انفكاك ، فلو كان لا آلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره ، وإذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره .

وقد سقت الآية خطاباً من النبي ﷺ لأن نوع هذا الخطاب « فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، لا يستقيم من غيره ﷻ » .

(بحث روائي)

في المجمع : نزل قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى هو الحديث » في النضر بن الحارث بن علقمة بن كعدة بن عبد الدار بن قصي بن كلاب كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وحمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسة فيستمعون حديثه ويتركون اجتماع القرآن . عن الكلبي .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس ، ولا يبعد أن يكون ذلك سبب نزول تمام السورة كما تقدمت الإشارة إليه .

وفي المعاني بإسناده عن يحيى بن عباد عن أبي عبد الله عليه السلام قلت : قوله عز وجل : « ومن الناس من يشترى هو الحديث » قال : منه الفنا .

أقول : وروى هذا المعنى في الكافي بإسناده عن مهران عنه عليه السلام ، وبإسناده عن الوشاء عن الرضا عنه عليها السلام ، وبإسناده عن الحسن بن هارون عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعت يقول : الفنا مما أوعد الله عليه النار وثلاثة الآيات : « ومن الناس من يشترى هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنيات

فقال : التي يدخل عليها الرجال حرام والتي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس وهو قول الله عز وجل : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » .

وفي الجمع وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ قال : لا يحلّ تعلم المغنيات ولا بيعهن وأثامهن حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » الآية .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن جم غفير من أصحاب الجوامع عن أبي أمامة عنه رضي الله عنه .

وفيه وروي عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه قال : هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان أبو جهل وأصحابه يمينون به إذ قال : يا معاشر قريش ألا أطمعكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم ؟ ثم أرسل إلى زيد وتمر فقال : هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به . قال : ومنه الغنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين قال : ما قدّست أمة فيها البربط .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر رضي الله عنه في قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي ، وكان النضر ذا رواية لأحاديث الناس وأشعارهم ، يقول الله عز وجل : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولتى مستكبراً » الآية .

وفيه عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا رضي الله عنه قال : قلت له : أخبرني عن قول الله تعالى : « والسما ذات الحبك » قال : هي محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه . فقلت : كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » ؟ فقال : سبحان الله أليس يقول : « بغير عمد ترونها » ؟ فقلت : بلى . فقال : فعمد ولكن لا ترونها .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ — ١٢ . وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ — ١٣ .
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ
أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ — ١٤ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ
تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ — ١٥ . يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي
صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ — ١٦ . يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ — ١٧ . وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ — ١٨ . وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ
الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ — ١٩ .

(بيان)

في الآيات إشارة إلى إتيان لقمان الحكمة ونبذة من حكمه ومواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة ويناسب المورد من حيث مقابلة قصته المثلثة حكمة وموعظة لما قص من حديث من كان يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً .

قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله » ، النح ، الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجريرة . وقوله : « أن اشكر لي » قيل : هو بتقدير القول أي قلنا : أن اشكر لي .

والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول ، وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم ، وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمه وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالضرورة .

وفي قوله : « أن اشكر الله » النفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر .

وقوله : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه ومن يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً ولا ضرراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر .

وفي التمييز عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرة منه .

قوله تعالى : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذه العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له .

وقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدر بقدر .

قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه » إلى آخر الآية ، اعتراض واقص بين للكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنما اطرد ههنا للدلالة على وجوب

شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيته وأمره تعالى ، فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكر .

وقوله : « حملته أمه وهنأ على وهن وفصاله في عامين » ذكر بعض ما تحملته أمه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعياً له إلى شكرهما وخاصة الام .

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهنأ على وهن ، والفصال الفطم وترك الإرضاع ، ومعنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقيق العامين فيؤول إلى كون الإرضاع عامين ، وإذا ضم إلى قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » الأحقاف : ٤٦ ، بقي لأقل الحمل ستة أشهر ، وستكرر الإشارة إليه فيما سيأتي (١) .

وقوله : « أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » تفسير لقوله : « وصينا » الخ ، في أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله ، وقوله : « إلى المصير » إنذار وتأکید للأمر بالشكر .

والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله : « أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » الخ ، من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق : « أن اشكر الله » .

قوله تعالى : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها » إلى آخر الآية . أي إن ألحاً عليك بالمجاهدة أنت تجعل ما ليس لك به علم به أو بحقيقته شريكاً لي فلا تطعها ولا تشرك بي ، والمراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوماً مجهولاً مطلقاً لا يتعلق به علم فيؤول المعنى : لا تشرك بي ما ليس بشيء ، هذا محصل ما ذكره في الكشاف وربما أيدته قوله تعالى : « أتنبثون بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض » يونس : ١٨ .

وقيل : « تشرك » بمعنى تكفر و « ما » بمعنى الذي ، والمعنى : وإن جاهدك أن تكفر بي كفرأ لا حجة لك به فلا تطعها ويؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك

(١) في بحث روائي في ذيل آية الأحقاف .

في كلامه تعالى كتوبه : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » يوسف : ٤٠ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : « وصاحبها في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ » المجلتان كالتلخيص والنوضح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتها إن جاهدنا على الشرك بالله .

يقول سبحانه : يجب على الإنسان أن يصاحبها في الأمور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحاباً معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكورة من رعاية حالها بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي تلحقه من جهتها فليست الدنيا إلا أياماً معدودة متصرمة ، وأما الدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلها وإلا فسبيل غيرها ممن أناب إلى الله .

ومن هنا يظهر أن في قوله : « واتبع سبيل من أناب إليّ » إيحازاً لطيفاً فهو يفيد أنها لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلها وإلا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرها ممن أناب إلى الله .

وقوله : « ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » أي هذا الذي ذكر ، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون إلى يوم القيامة فإظهار لكم حقيقة أعمالكم التي علمتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر .

وبما مرّ يظهر أن قوله : « في الدنيا » يفيد أولاً قصر المصاحبة بالمعروف في الأمور الدنيوية دون الدينية ، وثانياً : تهيؤ أمر الصعبة وأنها ليست إلا في أيام قلائل فلا كثير خير في تحمل مشاق خدمتها ، وثالثاً المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله : « ثم إليّ مرجعكم » الخ .

قوله تعالى : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله » الخ ، ذكروا أن الضمير في « إنها » للخصلة من الخير والشر لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كانت « مثقال حبة » خبره ، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض ، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء .

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعاً إلى التوحيد ونفي الشرك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال، والمعنى: يا بني إن تكن الحُصلة التي علمت من خير أو شر أخف الأشياء وأدقها كمشقاة حبة من خردل فتكن تلك الحُصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السموات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات .

قوله تعالى : « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » الآية وما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة .

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة .

وقوله : « إن ذلك من عزم الأمور » الإشارة إلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيغ وقول بعضهم : إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر عدت الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالى كقوله : « ولن سبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور » الشورى : ٤٣ ، وقوله : « إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » آل عمران : ١٨٦ .

والعزم - على ما ذكره الراغب - عقد القلب على إتمام الأمر وكون الصبر - وهو حبس النفس في الأمر - من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه وهو من قدرة النفس وشهاتها .

وقول بعضهم : إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الأمور بعيد وكذا قول بعضهم : إن العزم هو الجزم وهو لغة هذيل .

قوله تعالى : « ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور » قال الراغب : الصغر ميل في العنق والتصغير إمالة عن النظر كبراً قال : « ولا تصغر خدك للناس » وقال : المرح شدة الفرح والتوسع فيه انتهى .

فالمعنى : لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً ولا تمتش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء - وهو التكبر بتخييل الفضيلة - ويكثر من الفخر . وقال بعضهم إن معنى : « لا تصغر خدك للناس » لا تلو عنقك لهم تذلاً عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية .

قوله تعالى : « واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض - على ما ذكره الراغب - النقصان من الطرف والصوت فغض الصوت نقص الصوت النقص والقصر فيه .

والمعنى : وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن من الكبائر عقوق الوالدين واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وقد روي : أكبر الكبائر الشرك بالله .

وفي الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين عليه السلام : حق الله الأكبر عليك أن تمده ولا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جمل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .

قال : وأما حق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً ووقنتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطمعك ، وتمطش وتسقيك ، وتعري وتكسوك ، وتضحى وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقنتك الحر والبرد لتكون لها فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه .

وأما حق أبيك فإن تعلم أنه أصلك فإنك لولاه لم تكن فيها رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء رجل

إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله من أبر؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أمك .

وفي المناقب : مرَّ الحسين بن علي بن الحسين على عبد الرحمان بن عمرو بن العاص فقال عبد الله : من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى هذا الجمتاز وما كلمته منذ ليالي صفين .

فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين بن الحسين فقال له الحسين بن الحسين : أتعلم أي أحب أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأي يوم صفين؟ والله إن أبي خير مني . فاستعذر وقال إن النبي ﷺ قال لي : أطع أباك . فقال له الحسين بن الحسين : أما سمعت قول الله عز وجل : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطمها » وقال رسول الله ﷺ : إنما الطاعة بالمعروف ، وقوله : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وفي الفقيه في ألفاظه ﷺ الموجزة : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر بن الحسين قال : سمعته يقول : اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً ، يقول أحدم أذنبت وأسئففر إن الله عز وجل يقول : « سنكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » وقال عز وجل : « إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » .

وفيه بإسناده إلى معاوية بن وهب قال : سألت أبا عبد الله بن الحسين عن أفضل ما يتقرب به للعباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل فقال : ما أعلم شيئاً بمعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا بن الحسين أنه قال : الصلاة قربان كل تقوي .

وفي الجمع : « واصبر على ما أصابك » من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . عن علي بن الحسين .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تصغر خدك للناس » أي ولا تمل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عن يكلمك استخفافاً به ، وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبد الله بن الحسين .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني وابن عدّي وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : « ولا تصعّر خدك للناس » قال : إني الشدق .

وفي المجموع في قوله تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » وروى عن أبي عبد الله عليه السلام قال : هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعا فيبعا إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن .

أقول : وفي جميع هذه المعاني وخاصة في المعقوق روايات كثيرة متظافرة .

(كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه ، في فصلين)

١ - لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان ولم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عز من قائل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله » وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار . ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله قال : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » قال : الفهم والعقل .

وفي المجموع روى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حقا أقول لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثيرا التفكر حسن اليقين أحب الله فأجبه ومن عليه بالحكمة .

كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت إن خيرني ربي قبلت العاقبة ولم أقبل البلاء وإن هو عزم علي فسمعا وطاعة فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني .

فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحكم أشد المنازل وآكدها بنشأه الظلم من كل مكان إن وفي فبالحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا وفي الآخرة شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفا وفي الآخرة ذليلا ومن تخير الدنيا على الآخرة تفتت الدنيا ولا يصيب الآخرة .

فمجيبت الملائكة من حسن منطقته فنام نومة فاعطيت الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم كان يوازر داود بحكمته فقال له داود : طوبى لك يا لقمان اعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : كان حبشياً .

٢ - وفي تفسير القمي بإسناده عن حماد قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكته التي ذكرها الله عز وجل ، فقال : أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال .

ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله ساكناً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالمعبر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تسره وعموق نظره وتحفظه في أمره ، ولم يضعك من شيء قط مخافة الإثم ولم يفضب قط ، ولم يمازح إنساناً قط ، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدم أكثرهم أفرطاً فما بكى على موت أحد منهم .

ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنها حتى تعاباً ، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه ، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكام ، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرتي للقضاة بما ابتلوا به ، ويرحم الملوك والسلاطين لمرتهم بالله وطمانينتهم في ذلك ، ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالمعبر ، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة .

وإن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فتنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال لقمان : إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه وعصمني وإن هو خيرني قبلت العافية .

فقال الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل وأكثر

فتناً وبلاء، يخذل ولا يمان ويفشاء الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً ، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كليهما تزول هذه ولا تدرك تلك .

قال : فتمجّب الملائكة من حكته واستحسن الرحمان منطقته فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة ففشاء بها من قرنه الى قدمه وهو نائم وغطاء بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه ، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبشها فيها .

قال : فلما أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عز وجل الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عز وجل الخلافة في الأرض وابتلي بها غير مرة كل ذلك هوي في الخطأ يقيله الله ويفغر له ، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكته وفضل علمه ، وكان داود يقول له : طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة .

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » قال : فوعظ لقمان ابنه باثار (١) حتى تنفطر وانشق .

وكان فيها وعظه به يا حماد أن قال : يا بني إنك منذ سقطت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت ليهما تيسر أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد . يا بني جالس العلماء وزاحمهم بر كبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك ، وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، ولا تدخل فيها دخولا يضر بأخرتك ، وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام .

يا بني : إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان واجمل شراعها التوكل ، واجمل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن

(١) باثار اسم ابنه والتفطر والانشقاق كناية عن كمال التأثر .

هلكت فيذنوبك .

يا بني : إن تأديت صغيراً اتقمت به كبيراً ومن عنى بالأدب اهتم به ، ومن اهتم به تكلف علمه ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ومن اشتد له طلبه أدرك منفته فاتخذته عادة فإنك تخلد في سلفك وبنفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب ويخشى صوتك راهب ، وإياك والكلل عنه بالطلب لغيره فإن غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة وإذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غابت على الآخرة واجعل في أيامك وليلتك وساعاتك نصيباً في طلب العلم فإنك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه ولا تمارين فيه لجوجاً ولا تجادلان فقيهاً ولا تعادين سلطاناً ، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه ولا تواخين فاسقاً ولا تصاحبن متشهاً واخزن علمك كما تخزن ورقك .

يا بني : خف الله عز وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك وارج الله رجاء لو واقيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك .

فقال له ابنه : يا أبت كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد ؟ فقال له لقمان : يا بني : لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمنقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز وجل ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله ، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض .

فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً ومن أطاع الله خافه ، ومن خافه فقد أحبه ، ومن أحبه فقد اتبع أمره ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته ، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله .

يا بني : لا تركز إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها ألا ترى أنه لم يجعل نصيبها ثواب المطيعين ولم يحمل بلاءها عقوبة للعاصين .

وفي قرب الأسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليه السلام قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته . وفي البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان

فيا وعظ به لقمان ابنه أن قال : يا بني : إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الالتباء ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت ، وقال : قال لقمان لابنه : يا بني لا تقرب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتها ، كل دابة تحب مثلها وابن آدم^(١) لا يحب مثله . لا تنشر^(٢) برك إلا عند باغيه ، وكما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة ، من يقرب من الزفت تعلق به بمضه كذلك من يشارك للفاجر يتعلم من طرفه ، من يجب المراء يشتم ، ومن يدخل مدخل للسوء يتهم ، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال : يا بني صاحب مائة ولا تماد واحداً ، يا بني إنما هو خلاقك وخلفك فخلأقك دينك وخلفك بينك وبين الناس فلا تبغضن اليهم وتعلم محاسن الأخلاق .
يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولدأ للأشرار . يا بني أذ الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين . يا بني لا تتر الناس أنك تحشى الله وقلبك فاجر .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان فيا وعظ به لقمان لابنه يا بني إن الناس قد جموا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له ، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجرأ فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمحت فكان حنقها عند سمها ، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فركنتها ولم ترجع إليها آخر الدهر اخرها ولا تممرها فإنك لم تؤمر بممارتها .

واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيا

(١) أي أن ابن آدم لا يجب أن يكفيه غيره في مزية من الزبا .

(٢) أي لا تظهر متاعك إلا عند طالبه .

أبليتة ، وعرك فيها أفئيتة ، ومالك مما اكتسبته وفيها أنفقتة ، فتأهب لذلك وأعد له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرک ، وجدد في أمرک ، واكشف القطاء عن وجهک ، وتمرض لمعرف ربک ، وجدد التوبة في قلبک ، واكش في فراقک قبل أن يقصد قصدک ، ويقضى قضاؤک ، ويحال بينک وبين ما تريد .

وفي البحار عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق عليه السلام قال : قال لقمان : يا بني إياك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الحصال صاحب ، والزم نفسك التؤدة ^(١) في أمورک وصبر على مؤنات الإخوان نفسك ، وحسن مع جميع الناس خلقك .

يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضل به على إخوانك فلا يمدنك حسن الخلق وبسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجانبه الفقار ، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعمك مما في أيدي الناس فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعمهم .

أقول : والآخار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إشاراً للاختصار .

* * *

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ - ٢٠ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ - ٢١ . وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ

(١) التؤدة . بضم التاء كهزة - السكون والرزانة .

مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ - ٢٢ .
 وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ - ٢٣ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
 غَلِيظٍ - ٢٤ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ
 قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ - ٢٥ . اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ - ٢٦ . وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - ٢٧ . مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسًا
 وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ - ٢٨ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي
 النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ
 أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ - ٢٩ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ - ٣٠ .
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ - ٣١ . وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ
 دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا
 يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ - ٣٢ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
 رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلِيِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ

وَاللَّهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ - ٣٣ . إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ - ٣٤ .

(بيان)

رجوع إلى ما قبل لفظة من آيات الوجدانية وفقى الشريك وأدلتها المنتهية إلى قوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » رجوع إلى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب للشركيين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب .

وعليه فصدر الآية من تمة كلام النبي ﷺ ويتصل بقوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ولا التفات في قوله : « ألم تروا » .

وعلى تندير كونه من كلامه تعالى ففي قوله : « ألم تروا » التفات من سياق تنبيهية الذي في قوله : « بل الظالمون في ضلال مبين » إلى الخطاب ، والاتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد التكلم وتأكد غيظه من جهل المهاطين وقادهم في غيهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما هو بمرئى منهم ومسمع لهمم ينتهبوا عن نومتهم وينزعوا عن غفلتهم .

وكيف كان فالمراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان وهم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة والإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم الموسوم بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخر الله الكون لأجله .

والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة وكما يسخر المولى عبده والمخدوم خادمه في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريدُه الله من نظام يدبر به العالم الإنساني .

وبما مر يظهر أن اللام في « لكم » لتعطيل الغائي والمعنى لأجلكم والمسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان، وربما احتل كون اللام للملك والمسخر بالكسر هو الإنسان بحسب ما يشاهد من تقدم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون واستخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله : « ألم تروا » .

وقوله : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » الإسباغ الإتمام والإسباغ أي أتم وأوسع عليكم نعمه ، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذ منه ، والمراد بالنعم للظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للشركيين النعم الظاهرة للحسن كالسمع والبصر وسائر الجوارح والصحة والعافية والطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحس كالشعور والإرادة والقل .

وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الناضرة من انعم هي ما ظهر للحسن كما تقدم وكالذين الذي به ينتظم أمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدم وكالقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل .

وقوله : « ومن للناس من يبادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » رجوع الخطاب إلى النبي ﷺ على ما كان في السياق السابق، والجدالة المحاسمة النظرية بطريق المغالبة ، والمقابلة بين العلم والهدى وللكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية ، وبالهدى ما يفوضه الله بالوحي أو الإلهام ، وبالكتاب للكتاب السماوي المنتهي إليه تعالى بالوحي النبوي ولذلك وصفه بالنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها .

فمعنى قوله : يبادل في الله بغير كذا وكذا أنه يبادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والالهوية بغير حجة يصح الركون إليها بل عن تقليد .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه

آباءنا ، الخ ، ضمائر الجمع راجعة إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمير الأفراد في الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ .

وقوله : « وإذا قبل لهم اتبعوا ما أنزل الله » في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال : اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكانه قيل : وإذا دعوا إلى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه ، وبعبارة أخرى إذا ألقى إليهم للقول مع الحجة قابلوه بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .

وقوله : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » أي أتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير ؟ فالاستفهام الإنكار ولو وصية مطروقة على محذوف مثلها والتقدير أتبعونهم لو لم يدعمهم الشيطان ولو دعاهم .

ومحصل الكلام : أن الاتباع إنما يحسن إذا كنا على الحق وأما لو كنا على الباطل وكان اتباعاً يدعوهم به إلى الشقاء وعذاب السعير وهو كذلك فإنه اتباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره .

قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » استئناف ويحتمل أن يكون حالاً من مفعول « يدعوهم » وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد إليهم ، والمعنى : أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا والحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجح وأفلح والحال أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود .

وإسلام الوجه إلى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عن سواه . والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به في أول السورة « هدى ورحمة للحمسين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » والعروة الوثقى المستمسك الذي لا انفصام له .

والمعنى : ومن وحد الله وعمل صالحاً مع اليقين بالمعاد فهو ناجٍ غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها إلى الله وهو الذي يمدد بالنجاة والفلاح .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وإلى الله عاقبة الأمور » في مقام التعليل لقوله : « فقد

استمسك بالعروة الوثقى ، بما أنه استتمارة تمثيلية عن النجاة والفلاح .

قوله تعالى : « ومن كفر فلا يحزنك كفره - إلى قوله - إلى عذاب غليظ ، تسليمة للنبي ﷺ وتطبيب لنفسه أن لا يغلبيه الحزن وهم بالآخرة راجعون إليه تعالى فينبئهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعماهم ورتبعتها وهي النار .

وقوله : « يتممهم قليلا ثم يضطرمهم إلى عذاب غليظ » كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق «إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متممين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بمشوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط وإنما يتممهم في الدنيا قليلا ثم يضطرمهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال وأمرهم إلى الله دائما لن يعجزوا الله في حال التمتع ولا غيرها .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون ، فإنهم إن سئلوا عن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق ، وإذا كان مدبر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويرجي ويخاف هو فالملبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون .

ولذلك أمره ﷺ أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال : « قل الحمد لله » ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال : « بل أكثرهم لا يعلمون » نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يحسدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

قوله تعالى : « لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد » لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحيد بالربوبية والالوهية إذا كان التدبير والتصرف إليه تعالى وكان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحجة واستحمد النبي ﷺ واستجمل القوم لغفلتهم .

ثم احتج عليه ثانياً من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنياً محموداً مطلقاً وتقريره أنه تعالى مبدء كل خلق وممطي كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنياً من جهة من الجهات لم يكن مبدء له ممطياً لكاله هذا خلف ، وإذا كان غنياً على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير وتصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لاله كان مالكة ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير والتصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه .

وهذا هو الذي يشير اليه قوله : « لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني ، فقوله : « لله ما في » الخ ، حجة على وحدانيته وقوله : « إن الله هو الغني » تعليل للملك .

وأما قوله : « الحميد » أي الم محمود في أفعاله فهو مبدء آخر للحجة وذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري وكل جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق ولو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير اكتساب اليه لكان الحمد والثناء لغيره تعالى لاله فلا يكون حميداً على الإطلاق وبالنسبة إلى كل شيء وقد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف .

قوله تعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » الخ ، « من شجرة » بيان للموصول والشجرة واحد الشجر وتقيد في المقام - وهي في سياق « لو » - الاستفراق أي كل شجرة في الأرض ، والمراد بالبحر مطلق البحر ، وقوله : « يمده من بعده سبعة أبحر » أي يعينه بالإنضياف اليه سبعة أمثاله والظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدال على معنى ، وقد أطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى ، وقد قال : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، وقد أطلق على المسح ~~بشيء~~ الكلمة في قوله : « وكلمته ألقاها الى مريم » النساء : ١٧١ .

فالمنى : ولو جعل جميع أشجار الأرض أقلاماً وأخذ البحر وأضيف اليه سبعة أمثاله وجعل الجموع مداداً فكتب كلمات الله - بتبديلها ألفاظاً دالة عليها - بتلك

الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية .

ومن هنا يظهر أن في الكلام إيجازاً بالحذف وأن قوله : « إن الله عزيز حكيم » في مقام التعليل ، والمعنى : لأنه تعالى عزيز لا يعزّه ولا يقهره شيء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوت التدبير إلى غيره .

والآية متصلة بما قبلها من حيث دلالة على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره وكثرة أوامره التكوينية في الخلق والتدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مداداً وكتبت به أشجار الأرض المجمولة أقلماً قبل أن ينفد أوامره وكلماته .

قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ، سوق للكلام إلى إمكان الخسر وخاصة من جهة استبعاد المعاد لكثرة عدد النوتى واختلاصهم بالأرض من غير تمييز بعضهم من بعض .

فقال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » في الإمكان والسأقي فإن تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبة إلى الواحد والجمع . وذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة والصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة والصعوبة .

وبشهد لما ذكر إضافة الخلق والبعث إلى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة ، والمعنى : ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلا كخلق نفس واحدة وبعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاص بعضها ببعض لكنه ليس يحل شيئاً منها لأنه سميع ذوقكم بصير بأعمالكم وبعبارة أخرى علم بأعمالكم من طريق المشاهدة .

وبما مرّ يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير وبعثهم كنفس واحدة أن يعطى بمثلاً قولنا : إن الله على كل شيء قدير أو قوي عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثلاً السميع البصير الذي لا ارتباط له بالخلق والبعث .

وذلك أن الإشكال الذي تعرضت الآيات لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال وهي

على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالإشكال متوجه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله : « فننبئهم بما عملوا » وقد أُجيب بأنه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال وهو سميع بصير لا يشدّ عن مشاهدته قول ولا فعل .

وقد كان ذبيل قوله السابق : « فننبئهم بما عملوا » بقوله : « إن الله علم بذات الصدور » وهو مبني على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسنة كما يشير إليه قوله : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ ، وجواب عن هذا الإشكال لو وجّه إلى ما تحمله القلوب على كثرتهم فيجاب عنه أن الله علم بذات الصدور ولو وجّه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية التي نحن فيها : « إن الله سميع بصير » ، فالإشكال والجواب بوجه نظير ما وقع في قوله تعالى : « قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » طه ، ٥٢ ، فافهم .

وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مسمى » الخ ، استشهاد لما تقدم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذلك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة ويقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه ، وكذلك التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعها وغروبها واختلاف جرياتها ومسيرها بحسب المحس وكلٌّ منها يجري لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوش في النظام الدقيق الذي لها فهذا كله مما يتمتع من غير علم وخبرة من مدبرها .

فالمراد بإبلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وبإبلاج النهار في الليل عكس ذلك ، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعها إلى وقت محدود مقدر ثم عودها إلى بدء فمن شاهد هذا للنظام الدقيق الجاري وأمن فيه لم يشك في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل وليس ذلك عن صدفة واتفق .

وقوله: « وأن الله بما تعملون خبير » عطف على موضع « أن الله بولج » ، والتقدير أم تر أن الله بما تعملون خبير وذلك لأن من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكذب بغفل عن كون صانعه عليماً يجلائل أعماله ودقائقها ، كذا قيل .

وفيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل والنهار والشمس والقمر وإن صح في نفسه فهو علم حدسي لا مصحح لتسميتها رؤية وهو ظاهر .

ولعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنساني موزعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعالة أو من جهة إلى بعض القوى والأدوات أو كلها ومن جهة إلى جاذبة ودافعة ومن جهة إلى سني العمر من طفولية ورهاق وشباب وشيب إلى غير ذلك .

ثم في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس إلى وضع كل في موضعه الذي يليق به وحركته بهذه القسافة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال وسعادتها في المآل وتورطها في ورطات عالم المادة وموطن الزينة والفتنة فمن ناج أو هالك .

فإذا أمعن في هذا النظام المهيّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه ونظام نظمه صانعه الملمم القدير ومشاهدة هذا النظام العلمي المعجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير ، والله العالم .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلمي الكبير ، لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند إليه في وجوده وتدبير أمره وأن إليه عود كل شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنه ليس إلى من يدعون من دونه خلق ولا أمر ، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيراً إلى ما تقدم : « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل » الخ .

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحق فهو اللاتابت من جهة عدم ثبوته ، وقوله : « أن الله هو الحق » بما فيه من ضمير الفصل وتعريف

الخبر باللام يفيد القصر أعني حصر المبتدأ في الخبر .

فقوله : « بأن الله هو الحق » قصر له تعالى في الثبوت ، أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان وبعبارة أخرى هو ثابت من جميع الجهات وبعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروري وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته .

وإذا كان حقيقة الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته وغيره إنما يحق ويتحقق به . وإذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً : أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها إليه تعالى وأيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامة وفي النظمات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها وكل فرد من أفرادها إليه تعالى .

وثانياً : أن الكالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة والخلق والملك والغنى والحمد والخبرة - مما عدّ في الآيات السابقة أو لم يعد - صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بسأحة كبريائه وعز قدسه لأنها صفات وجودية والوجود قائم به تعالى فهي إما عين ذاته كالعلم والقدرة وإما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة .

وثالثاً : أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكل ما يحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبية كنفى الشريك ونفي التعدد ونفي الجسم والمكان والزمان والجهل والمعجز والبطلان والزوال إلى غيرها .

فإن إطلاق وجوده وعدم تقيده بقيد ينفي عنه كل معنى عدمي أي إثبات الوجود مطلقاً فإن مرجع نفي النفي إلى الإثبات .

ولعل قوله : « وأن الله هو العلي الكبير » يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم « العلي » يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بسأحته فهو بجمع الصفات السلبية والكبير يفيد سمته لكل كمال وجودي فهو بجمع الصفات الثبوتية .

وأن صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية والسلبية جميعاً على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال

فهو الله عز اسمه .

وقوله : « وأن ما يدعون من دونه الباطل » يحري فيه ما يقابل ما حري في قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الألوهية والربوبية باطلا لا حق فيه وإذا كان باطلاً على كل تقدير فلا يستند إليه خلق ولا تدبير مطلقاً .

والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنی وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا : المستجمع لصفات الكمال .

قوله تعالى : « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بركة الله ليربكم من آياته » الخ ، الباء في « بركة الله » للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

ونعنى : ألم تر أن الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك .

واحتمل بعضهم أن الباء للتمدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة .

وقد تم الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » والصبار الشكور أي كثير الصبر عند الضرر ، وكثير الشكر عند النماء كناية عن المؤمن عني ما قيل .

قوله تعالى : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » الخ ، فإن الراغب : الظلة سحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوحم ويكره ، قال : « كأنه ظلة » عذاب يوم الظلة انتهى .

والمعنى : وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد .

وقوله : « فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد » المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلتهم عليه فطرتهم إذ ذلك « وفي التعبير عن التبعيضية

استقلال عدتهم أي فلما نجما الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البر فقليل منهم المقصدون .

وقوله : « وما يجحد بآياتنا إلا كل مختار كفور ، الحنثار مبالغة من الحتر وهو شدة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، لما ساق الحجج والمواظف الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عام يدعوهم إلى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يفي فيه منن إلا الإيمان والتقوى .

قال الراغب : الجزاء الفنى والكفاية ، وقال : يقال : غررت فلاناً أصدت غرته ونلت منه ما أريد والغرة غفلة في اليقظة والفرار غفلة مع غفوة ، إلى أن قال : فالفرور كل ما يفر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر الشيطان إذ هو أخبث الفارين وبالذنيا لما قيل : الدنيا تفر وتضر وتمر انتهى .

فمضى الآية : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » وهو الله سبحانه « واخشوا يوماً وهو يوم القيامة « لا يجزى » لا يفي « والد عن ولده ولا مولود هو جاز » منن كاف « عن والده » شيئاً « إن وعد الله » بالبعث « حق » ثابت لا يخلف « فلا تفرنكم الحياة الدنيا » بزيتها الفارة : « ولا يفرنكم بالله الفرور » أي جنس ما يفر الإنسان من شؤون الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان .

قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل العيث ويعلم ما في الأرحام ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » الفيث المطر ومعنى جعل الآية ظاهر .

وقد عد سبحانه أموراً ثلاثة مما تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلا هو ويدل على المقصر قوله : « إن الله عنده علم الساعة » وتنزيل الفيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلا أن يعلمه غيره .

وعد أمرين آخرين يحبل بهما الإنسان وبذلك يحبل كل ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله : « ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً » وقوله : « ولا تدري نفس بأي أرض تموت » .

وكان المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دق وجل حتى مثل الساعة التي لا يتيسر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهم ما يحكم من العلم فانه يعلم وأنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به وتتمردوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا يهلككم .

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى حماد بن أبي زياد قال : سألت سيدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فقال : النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الإمام الغائب .

أقول : هو من الجري والآية أعم مدلولاً .

وفي تفسير القمي بإسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » قال : أما النعمة الظاهرة فالنبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عز وجل وتوحيده وأما النعمة الباطنة فولايقتنا أهل البيت وعقد مودقتنا . الحديث .

أقول : وهو كسابقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وأسبغ عليكم » الآية ، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس قال : « سألت النبي صلى الله عليه وآله عنه فقال : يا ابن عباس أما ما ظهر فالإسلام وما سوى الله من حملك وما أفاض عليك من الرزق وأما ما بطن فستر مساوي حملك ولم يفضلك به ، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاثة جعلتهن للمؤمن ولم يكن له : صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله ، وجعلت له ثلث ماله أكفّر به عنه خطاياهم ، والثالث سترت مساري عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها عليه لنبذه أهلها من سوامهم .

أقول : روى ما يقرب منه في الدر المنثور بطرق عن ابن عباس ، والحديث كسابقه من الجري .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر بن أذينة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه فذلك قوله عز وجل : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « أَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ » قال : لئن تجرني من البحر بقدره الله .

وفيه في قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » قال : الذي يصبر على الفقر والفاقة ويشكر الله عز وجل على جميع أحواله .

وفي الجمع في الآية وفي الحديث : الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . أقول : وهو مأخوذ من الآية فقد مر أنه كناية عن المؤمن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٌ » قال : الختار الخداع وفي قوله : « إن وعد الله حق » قال : ذلك القيامة .

وفي إرشاد المفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد أنبياء الله ومهيبط وحيه ، ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة فمن ذا يذمها ؟ وقد آذنت بينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها ، فشوتت بسرورها إلى السرور ، وحذرت ببلائها البلاء تحويها وتحذيراً وترغيباً وترهيباً .

فيا أيها الدائم للدين والمفتخر بتغيرها متى غرتك ؟ أبصارع آباتك في البلى أم بصارع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك ومرضت بيديك تبقي لهم الشفاء واسترمت لغيرك . وتلتصق في الدرء ، لم تنفهم بطلبك ولا تشفهم بشفاعتك متست بهم من غير مسرت ومضجعتك حيث لا ينفعك بكائك ولا تقني عنك أحباؤك .

وفي الخصال عن أبي أسامة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال : ألا أخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه ؟ قال : قلت : بلى . قال : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » .

أقول : هناك روايات كثيرة جداً عن النبي والأئمة عليهم السلام تخبر عن مستقبل حالهم وعن زمان موتهم ومكانه وهي تفيد هذه الرواية وما في معناها من الروايات بالتعلم الإلهي لكن بعض الروايات يابى التقييد ولا يعبا بأمرها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الوراث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، متى تقوم الساعة؟ وقد أجدت بلادنا متى تنصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى متى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية .

أقول : الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال .

وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : لم يعم على نبيكم ﷺ إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة .

(سورة السجدة مكية ، وهي ثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ١ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأرَبِّ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ — ٢ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ — ٣ . اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ — ٤ .
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ — ٥ . ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ — ٦ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ — ٧ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ — ٨ . ثُمَّ
سَوَّاهُ وَفَضَحَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ — ٩ . وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ؕ إِنَّا لَنَعِي
خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ — ١٠ . قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ
الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ — ١١ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ

الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا
 نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ - ١٢ . وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا
 وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - ١٣ .
 فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ
 الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٤ .

(بيان)

غرض السورة تقرير المبدء والمعاد وإقامة الحججة عليها ودفع ما يختلج القلوب
 في ذلك مع إشارة إلى النبوة والكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله
 حقاً والفاسقون الخارجون عن زيّ المبدئية ووعده أولئك بما هو فوق تصور المنصورين
 من الثواب ووعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بألم العذاب الخلد وأنهم سينذرون عذاباً
 أدنى دون العذاب الأكبر ، وتختتم السورة بتأكيد الوعيد وأمر النبي ﷺ بالانتظار
 كما هم منتظرون .

وهي مكية إلا ثلاث آيات نزلت - كما قيل - بالمدينة وهي قوله تعالى : « أفمن
 كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » إلى تمام ثلاث آيات .

والذي أوردناه من آياتها يتضمن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي
 أشرنا إليه .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ، أي هذا تنزيل
 الكتاب ، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى
 الموصوف ، والمعنى : هذا هو الكتاب المنزل لا ريب فيه .

وقوله : « من رب العالمين » فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتماطى
 بيانه من الوحدانية والمعاد اللذين ينكرهما الوثنية لما مرّ مراراً أنهم لا يقولون برب

للعالمين بل يشبتون لكل عالم إلهاً وللمجموع الآلهة إلهاً هو الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً .
قوله تعالى : « أم يقولون افتراء . بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ، النخ ، أم منقطعة ، والمعنى : بل يقولون افترى القرآن على الله وليس من عنده فردّه بقوله : « بل هو الحق من ربك لتنذر ، النخ .

وقوله : « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » قيل : يعني قريباً فإنهم لم يأتهم نبي قبله ﷺ بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العبسي وحنظلة على ما في الروايات .

وقيل : المراد به أهل الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العبادة وفيه أن معنى الفترة هو عدم انبعاث نبي له شريعة وكتاب وأما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها وخلو جميع الزمان وهو قريب من ستة قرون من النبي مطلقاً .

وقوله : « لعلهم يهتدون » غاية رجائية لإرسال الرسول والترجي قائم بالمقام أو بالخطاب دون المتكلم كما تقدم في نظائره .

قوله تعالى : « الله الذي خلق السماوات والأرض - إلى قوله - أفلا تتذكرون » تقدم الكلام في تفسير قوله : « خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش » في نظائره من الآيات وتقدم أيضاً أن الإستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع ولذا أتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله : « ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار ، الأعراف : ٥٤ وقوله : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، بونس : ٣ ، وقوله : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض ، الحديد : ٤ ، وقوله : « ذو العرش المجيد فمأل لما يريد ، البروج : ١٦ .

والوجه في ذكر الإستواء على العرش ، بعد ذكر خلق السماوات والأرض إن الكلام في اختصاص الربوبية والالوهية بالله وحده وبمجرد استناد الخلقه إليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئاً فإنهم لا ينكرون استناد الخلقه إليه وحده وإنما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الالوهية وهي المعبودية بآلهتهم والله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب وإله الآلهة .

فكان من الواجب عند إقامة الحجّة لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلق ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمها وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء وخالقها هو الذي يربها ويدبر أمرها فيكون رباً وحده وإلهاً وحده كما أنه موجد خالق وحده .

ولذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلق في الآية التي نحن فيها إذ قيل : « خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » فالولاية والشفاعة كالاستواء على العرش من شؤون التدبير .

وقوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلوم أن أمورنا والشؤون التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة وما يخص بنا من نظام خاص ، والنظام أياً ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى ولينا القائم بأمرنا المدبر لشؤوننا وأمورنا ، كما هو ولي كل شيء كذلك وحده لا شريك له .

والشفيع - على ما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب - هو الذي ينضم إلى سبب ناقص فيتم سببته وتأثيره ، والشفاعة تتم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبقناها على الأسباب والمسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة وشرائطها بعضها شفيعاً لبعض لتتم حصّة من الأثر منسوبة إليه كما أن كلا من السحاب والمطر والشمس والظل وغيرها شفيع للنبات .

وإذ كان موجد الأسباب وأجزائها والرابط بينها وبين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتمّ نقصها ويقم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره .

وبيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض اليهم فهو تعالى يرزقهم مثلاً بما أنه رازق جواد غني رحيم ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رؤف رحيم ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا .

لما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنی بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء وبين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض وبين الرؤف الرحيم والرحيم يتوسط بينه وبين القدير وهكذا .

والتوسط المذكور في الحقيقة تتم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره وينتج منه أنه تعالى شفيح ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيح ليس من دونه شفيح في الحقيقة فافهم .

وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيح عليه تعالى بمعنى كونه شفيحاً بنفسه عند نفسه وحقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء وصفة من صفاته كما يستعاض من سخطه إلى رحمة ومن عدله إلى فضله ، وأما كونه تعالى شفيحاً بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة .

والقوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيح عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيحاً عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال :

فقال بعضهم : إن دون في قوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيح » بمعنى عند و « من دونه » حال من ضمير « لكم » والمعنى : ما لكم حال كونكم مجاوزين دونه ومن عنده ولي ولا شفيح أي لا ولي لكم ولا شفيح ففیه نقي الولي والشفيح لهم عند الله .

وفيه أن دون وإن صح كونه بمعنى عند لكن وجود «من» قرينة على أنه بمعنى غير ، ولا معنى لأخذ الجاهزة ورجوع «ما لكم من دونه» إلى معنى «ما لكم عنده» . وقال بعضهم : إن الشفيح في الآية بمعنى الناصر مجازاً ودون بمعنى غير و « من دونه » حال من « ولي » والمعنى : ما لكم ولي ولا ناصر غيره ، وفيه أنه تجوز من غير موجب .

وقال بعضهم إن إطلاق الشفيح هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم : هؤلاء شفاعونا ويزعمون أن كل واحد منهم شفيح لهم والمتمنى على هذا لو فرض وقدر أن الإله ولي شفيح ما لكم ولي ولا شفيح غير الله سبحانه .

وقال بعضهم : إن دون بمعنى عند والضمير في « من دونه » للعذاب ، والمعنى : ليس لكم من دون عذابه وليّ ، أي قريب ينفعكم ويرد عذابه عنكم ولا شفيح يشفع لكم .

وفيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكّم من غير دليل ، ويرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيح غير المشفوع عنده وقد عرفت أن المعنى تحليلي والشفيح والشفوع عنده واحد .

وقوله : « أفلا تتذكرون » استفهام توبيخي يوجه على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك والتدبير لله سبحانه وهو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي ولا شفيح كما يزعمون ذلك لا هتتم .

قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » تتم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه وهذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي .

والتدبير وضع الشيء في دابر الشيء والإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحداً بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء والأرض وقد قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، وقال : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ .

وقوله : « ثم يعرج إليه » بعد قوله : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » لا يخلو من إشعار بأن « يدبر » مضمّن معنى التنزيل والمعنى : يدبر الأمر منزلاً أو ينزله مدبراً - من السماء إلى الأرض ولعله الأمر الذي يشير إليه قوله : « فسوّاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ .

وفي قوله : « يعرج إليه » إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي إليه أزمة الامور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسافي فإن الأمر قد وصف قبل المروج بالنزول فظاهر المروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها ، ولم يذكر هناك إلا علو هو السماء ، وسفل هو الأرض ونزول وعروج فالنزول من السماء والمروج إلى الله يشر بأن السماء هو مقام الحضور الذي يصدر منه تدبير

الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو السماء والله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضي من هذا الموطن ، ولعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله : « وأوحى في كل سماء أمرها » .

وقوله : « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبقت على ما في الأرض من زمان الحوادث ومقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدره ما نعدّه من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي .

وإذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان إليه كان المراد أنه وعاء لو طبقت على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدون .

وأما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن « في يوم » قيد لقوله : « يعرج إليه » فقط كما وقع في قوله : « يعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المارح : ٤ .

ثم على تقدير كون الضرف قيدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة ، وأما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفاً كل موقف مقداره ألف سنة .

ثم المراد بقوله : « مقداره ألف سنة » هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله : « يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة » البقرة : ٩٦ ، أي يعمر عمراً طويلاً جداً وإن كان هذا الاحتمال بعيداً من السياق .

والآية - كما ترى - تحتمل الاحتمالات جميعاً ولكل منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون « في يوم » قيداً لقوله : « ثم يعرج إليه » وكون المراد بيوم عروج الأمر مشهداً من خمسين مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » تقدم تفسير مفردات الآية ، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة .

قوله تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » قال الراغب : الحسن عبارة عن كل مبهج - بصيغة الفاعل - مرغوب فيه وذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس . انتهى . وهذا تعريف له من جهة خاصته وانقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية .

وحقيقته ملائمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للفرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم وغيرها ، وحسن العدل ملائمة للفرض من الاجتماع المدني وهو نيل كل ذي حق حقه ، وهكذا .

والتدبر في خلقه الأشياء وكل منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهز بما يلائم كاله وسعادته تجهيزاً لا أتم ولا أكمل منه يعطي أن كلا منها حسن في نفسه حسناً لا أتم وأكمل منه بالنظر إلى نفسه .

وأما ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلأحد أمرين : إما لكون الشيء السيئ، ذا عنوان عديم يعود إليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم والزنا فإن الظلم ليس بسيئ، قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت والزنا ليس بسيئ، قبيح من جهة نفس الفعل الخارجي الذي هو سترك بين زبين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية .

أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة والقبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطيخ وقياس الشوك إلى الورد وقياس العقرب إلى الإنسان فإن المساءة إنما تطرأ هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثم قياسها إلى طبيعنا ، ويرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأول بالحقيقة .

وكيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة ويدل عليه الآية « الذي أحسن كل شيء خلقه » إذا انضم إلى قوله : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ فينتجان أولاً : أن الخلقة تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق .

وثانياً : أن كل سيئ وقبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالعاصي والسيئات من حيث هي معاصي وسيئات والأشياء السيئة من جهة القياس .

قوله تعالى : « وبدء خلق الإنسان من طين » المراد بالإنسان النوع فالبدو خلقه

من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من أب وأم كآدم وزوجه عليها السلام ، والدليل على ذلك قوله بعبده : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق وبين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين ، ولو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال : ثم جعله سلالة من ماء مهين فافهمه .

وقوله : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السلالة كما في الجمع الصفوة التي تنسل أي تنزع من غيرها ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه ، والمهين من الهون وهو للضعف والحقارة وثم للتراخي الزماني .

والمعنى : ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضيف أو حقير .

قوله تعالى : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » التسوية التصوير وتتمم العمل ، وفي قوله : « نفخ فيه من روحه » استمارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفس الذي يتنفس به ثم نفخه في قالب من سواه ، وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية ، والمعنى : ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين والمجول نسله من سلالة من ماء مهين ونفخ فيه من روح شريف منسوب إليه تعالى .

قوله تعالى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكرات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكلية العقلية .

وقوله : « قليلا ما تشكرون » أي تشكرون شكراً قليلا ، والجملة اعتراضية في محل التوبيخ وقيل : الجملة حالية ، والمعنى : جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم تشكرون قليلا ، والجملة على أي حال مسوقة للبث والشكوى والتوبيخ .

والالتفات في قوله : « وجعل لكم الخ » من الفية إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإنعام الإلهي الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون .

قوله تعالى : « وقالوا ، إذا ضلنا في الأرض ، إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كفرون » حجة من منكرو البعث مبنية على الاستبعاد . والضلال في الأرض قيل : هو الضيعة كما يقال : ضللت النعمة أي ضاعت ، وقيل : هو بمعنى الفية ، وكيف

كان لمرادهم به ، إنا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا يتميز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا نفع في خلق جديد ولخلق ثانياً خلقنا الأول ؟

والاستفهام للإنكار ، والخلق الجديد هو البعث .

وقوله : « بل هم بلغاء رجيم كافرون » إضراب عن فحوى قولهم : « إذا ضلنا في الأرض ، كأنه قيل : إنهم لا يرجعون إلينا ولعلنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا ولعلنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع .

قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » توفي الشيء أخذه تاماً كاملاً كتوفي الحق وتوفي الدين من المديون .

وقوله : « ملك الموت الذي وكل بكم » قيل : أي وكل بإماتتكم وقبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك .

وقد نسب التوفي في الآية إلى ملك الموت ، وفي قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ إليه تعالى ، وفي قوله : « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفيته رسلنا » الأنعام : ٦١ ، وقوله : « الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » النحل : ٢٨ ، إلى الرسل والملائكة نظراً إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب للملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الأمر بذلك الجبري لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى ومسبب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كتب واليد كاتبة والإنسان كتب .

وقوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » هو الرجوع الذي عبر عنه في الآية السابقة بالبعث وموطنه البعث المترتب على التوفي والمترابي عنه ، كما يدل عليه العطف بتم الدالة على التراخي .

والآية - على أي تقدير - جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث ومن المعلوم أن إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدلة والكلام

الإلهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المهاجة .

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجته المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلاناً لكم وضلالاً منكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعني بلفظة «كم» محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض وإنما يضل الأبدان وتتغير من حال إلى حال وقد كانت في معرض التغيير من أول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها .

وهذا يندفع حجته على نفي المعاد بضلالمه سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن ثلاثي البدن يبطل شخصية الإنسان فيندم ولا معنى لإعادة المعدوم فإن حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها بقوله «أنا» وهي غير البدن والبدن تابع لها في شخصيته وهي لا تتلاشى بالموت ولا تتقدم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب وأجزء، فيبعث على الشريعة التي ذكر الله سبحانه .

وظهر بما تقدم أولاً وجه اتصال قوله : «قل يتروك» الح بقوله : «إنه حسنا في الأرض» الخ وأنه جواب حاسم للإشكال قاضٍ للشبهة ، وقد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفي بطلاق الإماتة من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفي فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم .

وقائياً : أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن .

قوله تعالى : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون» نكس الرأس إطراقه وطأطأته ، والمراد بالمجرمين بقريظة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى المهدي أي هؤلاء الذين يحسدون المعاد ويقولون : «إذا ضلنا في الأرض» الخ .

وفي التعبير عن البعث بقوله : «عند ربهم» معاذة لما تقدم من قوله : «بل هم بقاء ربهم كفرون» أي واقفون موقفاً من اللقاء لا يسعهم إنكاره ، وقولهم : «أبصرنا

وسمعنا ، وسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينبغي لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقيني وبقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فيتم لهم سبب النجاة .

والمعنى : ولو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رؤسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الحزني والذل والندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملاً صالحاً إنا موقنون والمحصل أنك تراهم يحددون اللقاء ولو تراهم إذ أحاط بهم الحزني والذل فتكسوا رؤسهم واعترفوا بما ينكرونه اليوم وسألوا العود إلى ههنا ولن يعودوا .

قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » إلى آخر الآية أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة والكافرة الهدى الذي يختص بها ويناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر وإرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فنلبس بالهدى باختيار منه وإرادة من دون أن ينجر إلى الإلجاء والاضطرار فيبطل التكليف ويلغو الجزاء . .

وقوله : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » أي ولكن هناك قضاء سابق مني محتوم وهو إملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين وهو قوله لإبليس لما امتنع من سجدة آدم وقال : « فبمزتك لاغرنيهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » : « فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ ، ففضى أن يدخل متبعي إبليس العذاب المخلد .

ولازم ذلك أن لا يهديهم لهم ونسيتهم بحججهم من بني العبودية كما قال : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٨٠ ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « فذوقوا بما نسيتم أنفسكم هذا إنا نسيناكم » إلى آخر الآية ، تفريع على قوله : « ولكن حق القول مني » والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة ويكتسى به عن عدم الاعتناء بهم الشيء وهو المراد في الآية .

والمعنى : فإذا كان من القضاء إذافة العذاب لتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب

عدم اعتنائكم ببقاء هذا اليوم حتى جعدتموه ولم تعملوا صالحاً تثنون به فيه لأننا لم نعمن بما همكم في هذا اليوم من السعادة والنجاة ، وقوله : « وفوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » تأكيد وتوضيح لسابقه أي إن النوق الذي أمرنا به ذوق عذاب الخلد ونسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات « أفمن كان مؤمناً » إلى تمام الآيات الثلاث .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن علي قال : عزائم سجود القرآن ألم تنزيل السجدة ، وحمّ تنزيل السجدة ، والنجم ، وقرأ باسم ربك الذي خلق .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن العزائم أربع : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، والنجم ، وتنزيل السجدة ، وحمّ السجدة .

وفي الدر المنثور ! أخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبي ﷺ رجلاً قد أسبل إزاره فقال له : ارفع إزارك ، فقال : يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتي . قال : ارفع إزارك كل خلق الله حسن .

وفي الفقيه سنن الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وعن قول الله عز وجل : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » وعن قول الله عز وجل : « الذين يتوفاهم الملائكة طيبين » والذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، وعن قول الله عز وجل : « توفته رسلنا » وعن قوله عز وجل : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ، وقد يموت في الدنيا في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيها إلا الله عز وجل ، فكيف هذا ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى جعل ملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فيتوفاهم الملائكة ويتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ، ويتوفاهم الله تعالى من ملك الموت .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل من الأنصار يعودُه فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله ﷺ : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال : أبشر يا محمد فإنني بكل مؤمن رفيق .

واعلم يا محمد أنني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول : والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر وما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم وليلة خمس مرات حتى أني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد إنني لأقدر أن أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذي يأمر بقبضه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » قال : لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا .

أقول : العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية وما قدمناه في تفسير الآية .

(كلام في كينونة الانسان الاول)

تقدم في تفسير أول سورة النساء كلام في هذا المعنى وكلامنا هذا كالتكلم له . قدمنا هناك أن الآيات القرآنية ظاهرة ظهوراً قريباً من الصراحة في أن البشر الموجودين اليوم - ونحن منهم - ينتهون بالنسائل إلى زوج أي رجل وامرأة بعينها وقد سمى الرجل في القرآن بآدم وهما غير متكونين من أب وأم بل مخلوقان من تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تسميات القرآن .

فهذا هو الذي يفيدُه الآيات ظهوراً معتداً به وإن لم تكن نصة صريحة لا تقبل للتأويل ولا المسألة من ضروريات الدين نعم يمكن عدّ انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضرورياً من القرآن وأما أن آدم هذا هل أريد به آدم النوعي أعني الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأشخاص أو عدّة معدودة من الأفراد هم أصول النسب والآباء والامهات الأولية أو فرد إنساني واحد بالشخص ؟

وعلى هذا التقدير هل هو فرد من نوع الانسان تولد من نوع آخر كالفردة مثلا على طريق تطور الأنواع وظهور الأكل من الكامل والكامل من الناقص وهكذا أو هو فرد من الانسان كامل بالكامل الفكري تولد من زوج من الانسان غير المهتمز يجهز التعقل فكان مبدأ لظهور النوع الانساني المهتمز بالتعقل القابل للتكيف وانفصاله من النوع غير المهتمز بذلك فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الانسان ينتهي أفرادها إلى الانسان الأول الكامل الذي يسمى بآدم ، وينشعب هذا النوع الكامل بالتولد تطوراً من نوع آخر من الانسان ناقص فاقد للتعقل وهو يسير القهقرى في أنواع حيوانية مترتبة حتى ينتهي إلى أبسط الحيوان تجهيزاً وانفصلاً كمالاً وإن أخذنا من هناك سائرهم لم نزل ننقل من ناقص إلى كامل ومن كامل إلى أكمل حتى ننتهي إلى الانسان غير المهتمز بالتعقل ثم إلى الانسان الكامل كل ذلك في سلسلة نسبية متصلة مؤلفة من آباء وأعقاب .

أو أن سلسلة التوالد والتناسل تنقطع بالاتصال بآدم وزوجه وهما متكونان من الأرض من غير تولد من أب وأم فليس شيء من هذه الصور ضرورياً .

وكيف كان فظاهر الآيات القرآنية هو الصورة الأخيرة وهي انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه المتكونين من الأرض من غير أب وأم .

غير أن الآيات لم تبين كيفية خلق آدم من الأرض وأنه هل عملت في خلقه علل وعوامل خارقة للمادة ؟ وهل تمت خلقته بتكوين إلهي آفي من غير مهل فتبدل الجسد المصنوع من ضيق بدناً عادياً ذا روح إنساني أو أنه عاد إنساناً تاماً كاملاً في أزمنة معتد بها يتبين عليه فيها استعداد بعد استعداد وصورة وشكل بعد صورة وشكل حتى تم الاستعداد فنفخ فيه الروح وبالجملة اجتمعت عليه من العلل والشرائط نظير ما تجتمع على النطفة في الرحم .

ومن أوضح الدليل عليه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، فإن الآية نزلت جواباً عن احتجاج النصارى على نبوة عيسى بأنه ولد من غير أب بشري ولا ولد إلا بالولد فأبوه هو الله سبحانه ، فرد في الآية بها محصله أن صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من آدم

الأرض بغير والد يولده. فلم لا يقولون بأن آدم ابن الله ؟

ولو كانت المراد بخلق من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكونين من النطف إلى الأرض كان المعنى: أن صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلقته كسائر الناس إلى الأرض ، ومن المعلوم أن لا خصوصية لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ ويقاس اليه عيسى فيفسد معنى الآية في نفسه ومن حيث الاحتجاج به على النصارى .

وهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك ، على المطلوب صك قوله : « إني خالق بشرأ من طين » ص : ٧١ ، وقوله : « وبدأ خلق الإنسان من طين » الم السجدة : ٧ .

وأما قول من قال : إن المراد بآدم هو آدم النوعي دون الشخصى بمعنى الطبيعة الإنسانية الخارجية الفاشية في الأفراد، والمراد ببنوة الأفراد له تكثُر الأشخاص منه بانفهام القيود اليه وقصة دخوله الجنة وإخراجه منها لمصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تحييلي لمكاته في نفسه ووقوفه موقف القرب ثم كونه في معرض الهبوط باتباع الهوى وطاعة إبليس .

ففيه أنه مدفوع بالآية السابقة وظواهر كثير من الآيات كقوله : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء » النساء : ١ ، فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعي لم يبق لفرض الزوج لها محل ونظير الآية الآيات التي تفيد أن الله أدخله وزوجه الجنة وأنه وزوجه عصيا الله بالأكل من الشجرة .

على أن أصل القول بآدم النوعي مبني على قدم الأرض والأنواع المتأصلة ومنها الإنسان وأن أفراد غير متناهية من الجانبين والاصول العلمية تبطل ذلك بتاتا .

وأما القول بكون النسل منتهاً إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ببياض اللون وسواده وحرته وصفرته أو أزواج من الإنسان ناشين بعضهم بالدنيا القديمة وبعضهم بالدنيا الحديثة والأراضي المكشوفة أخيراً وفيها بشر قاطنون كأمریکا واستراليا .

فمدفوع بجميع الآيات الدالة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه فإن المراد بآدم فيها إما شخص واحد إنساني وإما الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأفراد وهو آدم

النوعي وأما الأفراد المدودون فلا يهتم لفظ الآيات ذلك البتة .

على أنه مبني على تباين الاصناف الاربعة من الانسان : البيض والسود والحمر والصفر وكون كل من هذه الاصناف نوعاً برأسه ينتهي إلى زوج غير ما ينتهي اليه الآخر أو كون قارات الارض منفصلاً بعضها عن بعض انفصلاً أبدياً غير مسبوق بالعدم ، وقد ظهر بطلان هذه الفرضيات اليوم بطلاناً كاد يلحقها بالدهيات .

وأما القول بانتهاء النسل إلى زوج من الانسان أو أزيد انفصلاً أو انفصلوا من نوع آخر هو أقرب الانواع اليه كالقرود مثلاً انفصال الأكل من الكامل تطوراً .

فيه أن الآيات السابقة الدالة على خلق الانسان الأول من تراب من غير أب وأم تدفعه .

على أن ما أقيم عليه من الحججة الطيبة قاصر عن إثباته كما سنشير اليه في الكلام على القول التالي .

وأما القول بانتهاء النسل إلى فردين من الانسان الكامل بالكمال الفكري من طريق التولد ثم انشائها وانفصالها بالتطور من نوع آخر من الانسان غير الكامل بالكمال الفكري ثم انفراض الأصل وبقاء الفرع المتولد منها على قاعدة تنازع البقاء وانتخاب الأصح .

فيدفعه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ، على التقريب المتقدم وما في معناه من الآيات .

على أن الحججة التي أقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته ، فإنها شواهد مأخوذة من التشريح التطبيقي وأجنحة الحيوان والآثار الحفرية الدالة على التغير التدريجي في صفات الانواع وأعضائها وظهور الحيوان تدريجياً أخذاً من الناقص إلى الكامل وخلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشد تركيباً .

وفيه أن ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيوية بعد الناقص زماناً لا يدل على أزيد من تدرج المادة في استكمالها لقبول الصور الحيوانية المختلفة فهي قد استعدت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة والشريفة بعد الخسيسة وأما كون الكامل من الحيوان منشعباً من الناقص بالتولد والاتصال النسبي فلا ولم يمتز هذا المفحص والبحث على غزارته وطول زمانه على فرد نوع كامل متولد من فرع نوع آخر على أن

يقف على نفس التولد دون الفرد والفرد .

وما وجد منها شاهداً على التغير التدريجي فإنما هو تغير في نوع واحد بالانتقال من صفة لها إلى صفة أخرى لا يخرج بذلك عن نوعيته والمدعى خلاف ذلك .

فالذي يتسلم أن نشأة الحياة ذات مراتب مختلفة بالكامل والنقص والشرف والحسة وأعلى مراتبها الحياة الإنسانية ثم ما يليها ثم الأمثل فالأمثل وأما أن ذلك من طريق تبدل كل نوع مما يحاوره من النوع الأكمل ، فلا يفيد هذا الدليل على سبيل الاستنتاج .

نعم يوجب حدساً ما غير يقيني بذلك فالقول بتبدل الأنواع بالتطور فرضية حدسية تثبتني عليها العلوم الطبيعية اليوم ومن الممكن أن يتغير يوماً إلى خلفها بتقدم العلوم وتوسع الأبحاث .

وربما استدل على هذا القول بقوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ ، بتقريب أن الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشيء . وإنما يصدق الانتخاب فيما إذا كان هناك جماعة يختار المصطفى من بينهم ويؤثر عليهم كما اصطفى كل من نوح وآل إبراهيم وآل عمران من بين قومهم ولازم ذلك أن يكون مع آدم قوم غيره فيصطفى من بينهم عليهم ، وليس إلا البشر الأولي غير المجهز يجهز العقل فاصطفى آدم من بينهم فجهز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعيتهم إلى مرتبة الإنسان المجهز بالعقل الكامل بالنسبة إليهم ثم نسل وكثر نسله وانقرض الإنسان الأولي الناقص .

وفيه أن « العالمين » في الآية جمع محلي باللام وهو يفيد العموم ويصدق على عامة البشر إلى يوم القيامة فهم مصطفون على جميع المعاصرين لهم والجانين بعدم كمثل قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فما المانع من كون آدم مصطفى مختاراً من بين أولاده ما خلا المذكورين منهم في الآية ؟

وعلى تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين وعليهم ما هو المانع من كونه مصطفى مختاراً من بين أولاده المعاصرين له ولا دلالة في الآية على كون اصطفائه أول خلقته قبل ولادة أولاده .

على أن اصطفاة آدم لو كان على الإنسان الأولي كما يذكره المستدل كان ذلك بما أنه مجهز بالعقل وكان ذلك مشتركاً بينه وبين بني آدم جميعاً على الإنسان الأولي فكان تخصيص آدم في الآية بالذكر تخصيصاً من غير مخصص .

وربما استدل بقوله : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الآية الأعراف : ١١ ، بناء على أن « ثم » تدل على التراخي الزماني فقد كان للنوع الإنساني وجود قبل خلق آدم وأمر الملائكة بالسجدة له .

وفيه أن « ثم » في الآية للترتيب الكلامي وهو كثير الورد في كلامه تعالى على أن هناك معنى آخر أشرنا إليه في تفسير الآية في الجزء الثامن من الكتاب .

وربما استدل بقوله : « وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه » الآيات وتقرئيه أن الآية الأولى المتعرضة لأول خلق الإنسان تذكر خلقته الأولية من تراب التي يشترك فيها جميع الأفراد ، والآية الثالثة تذكر تسويته ونفخ الروح فيه وبالجملة كاله الإنساني والعطف بـ « ثم » تدل على توسط زمان ممتد به بين أول خلقته من تراب وبين ظهوره بكاله .

وليس هذا الزمان المتوسط إلا زمان توسط الأنواع الأخرى التي تنتهي بتغيرها التدريجي إلى الإنسان الكامل وخاصة بالنظر إلى تنكر « سلالة » المفيد للعموم .

وفيه أن قوله : « ثم سواه » عطف على قوله « بدأ » والآيات في مقام بيان ظهور النوع الإنساني بالخلق وأن بدأ خلقه وهو خلق آدم كان من طين ثم بدّل سلالة من ماء في ظهور أولاده ، ثم تمت الحلقة سواء كان فيه أو في أولاده بالتسوية ونفخ الروح .

وهذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ ولا يلزم منه حمل قوله : « ثم جعل نسله من سلالة ماء مهين » على أنواع متوسطة بين الخلق من الطين وبين التسوية ونفخ الروح ، وكون « سلالة » نكرة لا يستلزم العموم فإن إفادة النكرة للعموم إنما هو فيما إذا وقعت في سياق النفي دون الإثبات .

وقد استدل بآيات أخرى مربوطة بخلق الإنسان وآدم بنحو مما مر يعلم الجواب عنها بما قدمناه فلا موجب لنقلها وإطالة الكلام بالجواب عنها .

* * *

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَمَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ - ١٥ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ - ١٦ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ١٧ . أَقْنَىٰ كَانِ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ - ١٨ . أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - ١٩ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ - ٢٠ . وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ - ٢١ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ - ٢٢ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ - ٢٣ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ - ٢٤ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ - ٢٥ . أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ - ٢٦ . أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ

إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ
 أَفَلَا يُبْصِرُونَ - ٢٧ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٢٨ .
 قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ - ٢٩ .
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ - ٣٠ .

(بيان)

الآيات تفرق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان وبين الفاسقين والظالمين وتذكر لكل ما يلزمه من الآثار والتبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا وتأمّر النبي ﷺ بانتظار الفتح وعند ذلك تختم السورة .

قوله تعالى : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » لما ذكر شطراً من الكلام في الكفار الذين يمحذون لقاءه ويستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق لما ذكروا ووعظوا .

فقوله : « إنما يؤمن بآياتنا » حصر للإيمان بحقيقة معناه فهم ومعناه أن علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي هو كذا وكذا .

وقوله : « الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً » ذكر سبحانه شيئاً من أوصافهم وشيئاً من أعمالهم ، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية وعدم استكبارهم عن الخضوع لله وتسبيحه وحده وهو قوله : « إذا ذكروا بآيات ربهم » أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته وما يلزمها من المعاد والدعوة النبوية إلى الإيمان والعمل الصالح « خروا سجداً » أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذلاً واستكانة وسبحوا بحمد ربهم ، أي زهوه مقارناً للثناء الجميل عليه . والسجدة والتسبيح والتحميد وإن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذلل والخضوع لمقام الربوبية والالوهية ، ولذا أردفها بصفة تلازمها فقال : « وهم لا يستكبرون » .

قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمئناً ومما رزقناهم ينفقون » هذا معرفتهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرفتهم من حيث أوصافهم .

فقوله : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » التجافي التنحي والجنوب جمع جنب وهو الشق ، والمضاجع جمع مضجع وهو الفراش وموضع النوم ، والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم .

وقوله : « يدعون ربهم خوفاً وطمئناً » حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تنام الميوت وتسكن الانفاس لا خوفاً من سخطة تعالى فقط حتى يفشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمئناً في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفاً وطمئناً فيلوثون في دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم اليه الهدى وهذا التجافي والدعاء ينطبق على النواقل اليلية .

وقوله : « وما رزقناهم ينفقون » حمل آخر لهم وهو الإنفاق لله وفي سبيله .

قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » تبريح لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعد الله لهم من الثواب .

ووقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وإضافة قرّة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فبا أخفي لهم قرّة عين كل ذي عين .

والمعنى : فلا تعلم نفس من النفوس - أي هو فوق علمهم وتصورهم - ما أخفاه الله لهم مما تقرّ به عين كل ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا .

قوله تعالى : « وأمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » الإيمان سكون علمي خاص من النفس بالشيء ، ولازمه الالتزام العملي بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها ومآل معناه الخروج عن زيّ العبودية .

والاستفهام في الآية للإنكار ، وقوله : « لا يستون » نفي لاستواء الفريقين تأكيداً لما يفيد الإنكار السابق .

قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا

يعملون ، المأوى المكان الذي يأوي اليه ويسكن فيه الانسان ، والنزل بضمين كل ما يمدت للنازل في بيت من الطعام والشراب ، ثم عمم كما قيل لكل عطية ، والباقي ظاهره .
قوله تعالى : « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » إلى آخر الآية ، كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقبه بقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » ، وقوله : « وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد وخطأهم وهم في النار بهذا الخطاب شامة بهم وكثيراً ما كانوا يشتمون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد .

قوله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » لما كان غاية إذاقته العذاب رجوعهم المرجو والرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله بالتوبة والإجابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال ودون العذاب الذي بعد الموت وحينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة .

والمعنى : أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل ونحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون لينبأ بالتوبة من شر كهم وجحودهم .

قيل : سمى عذاب الدنيا أدنى ولم يقل : الأصغر ، حتى يقابل الأكبر لأن المقام مقام الإنذار والتخويف ولا يناسبه عدّ العذاب أصغر ، وكذلك لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكرنا آيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » كأنه في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلمه بأنهم ظالمون أشد الظلم بالأعراض عن الآيات بعد التذكيرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم .

فقوله : « ومن أظلم » الخ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله : « إنا من المجرمين منتقمون » ، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منهم ، والله منتقم من المجرمين .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مريه من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل » المراد بالكتاب التوراة والمريه الشك والريب .

وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله : « من لقائه » ومعنى الكلمة فقيل : الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مريه من لقائك موسى وقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت للسورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبي ﷺ أنه سيراه .

وقيل : الضمير لموسى والمعنى : فلا تكن في مريه من لقائك موسى يوم القيامة .

وقيل : الضمير للكتاب والتقدير فلا تكن في مريه من لقاء موسى الكتاب .

وقيل : التقدير من لقائك الكتاب أو من لقاء الكتاب إياك .

وقيل : الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى : فلا تكن في مريه من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خبير بأن الطبع السليم لا يقبل شيئاً من هذه الوجوه - على أنها لا تعني لبيان وجه اتصال الآية بما قبلها .

ومن الممكن - والله أعلم - أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم ، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله : « بل هم بلقاء ربهم كافرين » ، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله : « ناكسوا رؤسهم عند ربهم » .

فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مريه من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه ﷺ بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن ، ويؤيده قوله بعد : « وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » الخ .

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحى القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات ، فيكون رجوعاً إلى ما في صدر السورة من قوله : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ، وذيل الآية أشد تأييداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم .

وقوله : « وجعلناه هدى لبني إسرائيل » أي هادياً فالمصدر بمعنى اسم الفاعل

أو بمعناه المصدرى مبالغة .

قوله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين وكنوا قبل ذلك موقنين بآياتنا .

وقد تقدم البحث عن معنى الامامة وهداية الامام بأمر الله في تفسير قوله : « قال إني جاعلك للناس إماماً » البقرة : ١٢٤ ، وقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، وغير ذلك من الموارد المناسبة .

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه هدى من اتبعه إلى الحق ، وأنها أنشأت في حجر تربيته أناساً اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها ومباركة بعد العمل .

قوله تعالى : « إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغيماً بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب - إلى أن قال - فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيماً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ . فالمراد بقوله : « يفصل بينهم » القضاء الفاصل بين الحق والباطل والحق والمبطل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أولم هد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم » الخ ، العطف على محذوف كأنه قيل : ألم يبين لهم كذا وكذا ، أولم هد لهم الخ ، والهداية بمعنى التبيين أو هو مضمّن معنى التبيين ولذا عدتني باللام .

وقوله : « كم أهلكتنا من قبلهم من القرون » مشير إلى الفاعل قائم مقامه ، والمعنى : أولم يبين لهم كثرة من أهلكتنا من القرون والحال أنهم يمشون في مساكنهم .

وقوله : « إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّي إلى طاعة الحق وقبوله .

قوله تعالى : « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » الخ ، قال في الجمع : السوق الحث على السير من ساقه يسوقه ،

وقال : الجزر الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها . انتهى .
والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع .

والآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء وخاصة ذوي الحياة منها كالأنعام والإنسان ، والمراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها ، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض وخروج الزرع واغتذاء الإنسان والأنعام التي يسخرها وربيتها لمقاصد حياته .

وقوله : « أفلا يبصرون » تنبيه وتوبيخ وتخصيص هذه الآية بالإبصار ، والآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاك الأمم الماضية إنما هو بالآخبار التي تنال من طريق السمع وأما العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجزر وإخراج الزرع واغتذاء الأنعام والإنسان فالطريق إليه حاسة البصر .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الفتح - إلى قوله - ولا هم ينظرون » قال الراغب : الفتح إزالة الإغلاق والإشكال - إلى أن قال - وفتح القضية فثاماً فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها ، قال : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . انتهى .

وقد تقدم في الآيات السابقة مما يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران : أحدهما فصل بينهم يوم القيامة ، والآخر إذاعة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا ولذا فسر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين هو معنى قولهم المحكي كراراً في كلامه تعالى : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

وفسره بعضهم بيوم بدر فإنه لم ينفع الذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل . وذكر بعضهم أن المراد به فتح مكة ولا يلائمه الجواب المذكور في قوله : « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون » إلا أن يقول قائل : إن إيمانهم يومئذ - وقد عاندوا الحق وقاتلوا النبي ﷺ سنين وجاهدوا في إطفاء نور الله - لم يكن إيماناً إلا نفاقاً من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم وقد أزموا بالإيمان ولم ينظروا .

ويمكن أن يكون المراد هو القضاء به النبي ﷺ وبين الأمة ويكون ذلك في

آخر الزمان كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله : « ولكل أمة رسول » الآية ،
يونس : ٤٧ .

وكيف كان فالمراد بالآيتين استمجال المشركين بالفتح والجواب أنه فتح لا ينفع
حال الذين كفروا بإيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفساً إيمانها ولا أن العذاب يمهلم وينظرم .

قوله تعالى : « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » أمر بالإعراض عنهم
وانتظار الفتح كما أنهم ينتظرون وإنما كانوا منتظرين موته أو قتله ﷺ وبالجملة
انقطاع دابر دعوته الحققة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل
والحق على المبطل .

ومن هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الديني .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « تتجافى
جنوبهم عن المضاجع » ، قال : هم الذين لا ينامون قبل المشاء فأنتى عليهم فلما
ذكر ذلك جعل الرجل يمتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير
ويكسل الكبير .

أقول : ورواها أيضاً فيه بطرق أخرى موصولة وموقوفة ، وروى صدر
الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق ﷺ في الآية ولفظه كانوا لا ينامون
حتى يصلوا العتمة .

وفي الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر ﷺ قال : ألا أخبرك
بالإسلام أصله وفرعه وذرورة سنامه ؟ قلت : بلى جعلت فداك . قال : أما أصله فالصلاة
وفرعه الزكاة وذرورة سنامه الجهاد .

ثم قال : إن شئت أخبرتك بأبواب الخير : قلت : نعم جعلت فداك . قال :
الصوم جنة والصدقة تذهب بالخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثم قرأ :
« تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

أقول : وروى هذا المعنى في المhasن بإسناده عن علي بن عبد العزيز عن الصادق عليه السلام وفي الجمع عن الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله ورواه في الدر المنثور عن الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن معاذ عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه فقال : تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والطبراني وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل ابن سعد قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصف الجنة حتى انتهى .

ثم قال : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآيتين .

وفي الجمع وروى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : ما من حسنة إلا لها ثواب مبين في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها قال : « فلا تعلم نفس » الآية .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمان بن أبي نجران عن عاصم بن حيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من عمل حسن يمله المعبود إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظم خطره عنده ، فقال جل ذكره : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون - إلى قوله - يعملون » .

ثم قال : إن الله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكاً معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة فيقول : استأذنا لي على فلان فيقال له هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه : أي شيء تريد من علي أحسن ؟ فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث اليك ربك فياتر بواحدة ويتعطف بالأخرى فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد .

فإذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فإذا نظروا إليه أي إلى رحمة خروا

سجداً فيقول : عبادي ارفعوا رؤسكم ليس هنا يوم سجود ولا عبادة قد رفعت عنكم المؤنة فيقولون : يا ربنا وأي شيء أفضل مما أعطيتنا ؟ أعطيتنا الجنة فيقول : لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة .

فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضمفاً مثل ما في يديه وهو قوله : «ولدينا مزيد» وهو يوم الجمعة إن ليلها ليلة غراء ويومها يوم أزهر فأكثرُوا من التسبيح والتهليل والتكبير والثناء على الله عز وجل والصلاة على رسول الله ﷺ .

قال : فيمرّ المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى أزواجه فيقلن : والذي أباحنا الجنة ، يا سيدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة . فيقول : إني نظرت إلى نور ربي - إلى أن قال - : قلت جعلت فداك زدني . فقال : إن الله تعالى خلق جنة بيده ولم يرها عين ولم يطلع عليها مخلوق يفتحها الرب كل صباح فيقول : ازاداي ربحاً ازاداي طيباً وهو قول الله : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

أقول : ذيل الرواية تفسير لصدرها وقوله : أي إلى رحمة ربه . من كلام الراوي . وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أطعم مؤمناً حتى يشبمه لم يدر أحد من خلق الله جل وعز ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » قال : إن علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا فقال الفاسق وليد بن عقبة : أنا والله أبسط منك لساناً وأحدك منك سناناً وأمثل منك جنواً في الكتبية . فقال علي عليه السلام : اسكت إنما أنت فاسق فأزول الله « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » .

أقول : ورواه في الجمع عن الواحدي عن ابن عباس وفي الدر المنثور عن كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والحطيب وابن عساكر عنه وأيضاً عن ابن اسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار وعن ابن أبي حاتم عن السدي عنه وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله .

وفي الاحتجاج عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يحاج فيه رجلا عند معاوية: وأما أنت يا وليد بن عتبة فوالله ما ألومك أن تبغض علياً وقد جلدك في الحجر ثمانين جلدة وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر أم كيف تسبه وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات تمن القرآن وسماك فاسقاً وهو قول الله عز وجل : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال : سألت عبادة ابن الصامت عن قول الله : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : هي المصائب والأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون العذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قال : زكاة وطهور .

وفي المجمع في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : أن العذاب الأدنى الدابة والدجال .

(سورة الأحزاب مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا - ١ . وَأَتَّبِعْ مَا
يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا - ٢ . وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا - ٣ . مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ
بِيَدَيْ السَّبِيلِ - ٤ . أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ
تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا - ٥ . النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا فِي أَوْلِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا - ٦ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ

نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا - ٧ .
لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا - ٨ .

(بيان)

تتضمن السورة تفاريق من المعارف والأحكام والقصص والعبر والمواعظ وفيها قصة غزوة الخندق وإشارة إلى قصة بني القريظة من اليهود ، وسياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً » أمر للنبي ﷺ بتقوى الله وفيه تهديد للنهي الذي بعده « ولا تطع الكافرين والمنافقين » .

وفي سياق النهي - وقد جمع فيه بين الكافرين والمنافقين ونهى عن إطاعتهم - كشف عن أن الكافرين كلوا يسألونه أمراً لا يرتضيه الله سبحانه وكان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم ويلبسون ، أمراً كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهي بخلافه ، أمراً خطيراً لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فعذر النبي ﷺ عن إجابتهم إلى ملتصمهم وأمر بتابعة ما أوحى الله إليه والتوكل عليه .

ويهدأ بتأييد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان من النبي ﷺ وسألوا النبي ﷺ أن يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإلهه فنزلت الآيات ولم يحسم النبي إلى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي .

وبما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله : « إن الله كان عليماً حكيماً » وكذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها .

قوله تعالى : « واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً »

الآية عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي ﷺ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون والمنافقون واتباعه إجراؤه عملاً بدليل قوله : « إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

قوله تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » الآية كآية السابقة في أنها عامة في حد نفسها ، لكنها لوقوعها في سياق النهي السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المحافة والإضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف .

قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » كناية عن امتناع الجمع بين المتناقضين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متناقضين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متناقضين فيها لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتناقضين ويصدق بالمتناقضين وقوله : « في جوفه » يفيد زيادة التقرير كقوله : « ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » الحج : ٤٦ .

قبل : الجملة توطئة وتمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار والتبني فإن في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم وفي التبني والدعاء جعل ولد الغير ولدًا لنفسه والجمع بين الزوجية والأمومة وكذا الجمع بين بنوة الغير وبنوة نفسه جمع بين المتناقضين ولا يحتمل إلا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ولا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق : « لا تطع الكافرين والمنافقين » « واتبع ما يرحى إليك من ربك » فإن طاعة الله وولايته وطاعة الكفار والمنافقين وولايتهم متناقضتان متباينتان كالتوحيد والشرك لا يحتمل في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

قوله تعالى : « وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم » كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجه أنت مني كظهر أمي أو ظهرك علي كظهر أمي فيشبه ظهرها بظهر أمه وكان يسمى ذلك ظهاراً وبعد طلاقها ، وقد ألغاه الإسلام .

فقد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن بقول ظهرك علي

كظهر أمي أمهات لكم وإذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجمل تشريحي .

قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، الأدياء جمع دعي وهو المتخذ ولدا المدعو ابناً وقد كان الدعاء والتبني دائراً بينهما في الجاهلية وكذا بين الامم للراقية يرمذ كالروم وفارس وكانوا يرتبون على الدعي أحكام الولد الصلي من التوارث وحرمة الازدواج وغيرها وقد ألغاه الإسلام .

فناد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصليين .

قوله تعالى : « ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » الإشارة بقوله : « ذلك » إلى ما تقدم من الظهار والدعاء أو إلى الدعاء فقط وهو الأظهر ويؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب .

وقوله : « قولكم بأفواهكم » أي إن نسبة الدعي إلى أنفسكم ليس إلا قولاً تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله : « كلا إنها كلمة هو قائلها » المؤمنون : ١٠٠ .

وقوله : « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » معنى كون قوله : هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقاً لما أخبر به وإن أنشأ حكماً ترتب عليه آثاره وطابقت المصلحة الواقعية .

ومعنى هدايته السبيل أنه يحمل من هدايه على سبيل الحق التي فيها الخير والسعادة وفي الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله .

قوله تعالى : « ادعوم لأبائهم هو أقسط عند الله » إلى آخر الآية . اللام في « لأبائهم » للاختصاص أي ادعوم وهم مخصوصون بأبائهم أي انسبوم إلى آبائهم وقوله : « هو أقسط عند الله » ، الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله : « ادعوم » نظير قوله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « أقسط » صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل .

والمنصي : انسبوم إلى آبائهم -- إذا دعوتهم -- لأن الدعاء لأبائهم أعدل عند الله .

وقوله : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » ، المراد بعدم

علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم ، والموالي هم الأولياء ، والمعنى : وإن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبواهم إلى غير آباءهم بل ادعواهم بالأخوة والولاية الدينية .

وقوله : « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتهم لغير آباءهم ولكن الذي تعمدت قلوبكم ذنب أو ولكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب .
وقوله : « وكان الله غفوراً رحيماً » راجع إلى ما أخطىء به .

قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » أنفس المؤمنين هم المؤمنون بمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم : ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالهصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمهبة والكرامة واستجابة الدعوة وإنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه .

فما إذا توجه شيء من المخاطر إلى نفس النبي فليقله المؤمن بنفسه ويفده نفسه وليكن النبي أحب إليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه ولو دعت نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي ﷺ وطاعته وتقديمه على نفسه .

وكذا النبي ﷺ أولى بهم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل : إن المراد أنه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه ويعصوا أنفسهم ، فتكون الآية في معنى قوله : « وأطيعوا الرسول » النساء : ٥٩ ، وقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ ، وما أشبه ذلك من الآيات وهو مدفوع بالإطلاق . وكذا ما قيل : إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله : « فسلموا على أنفسكم » النور : ٦١ ، ويؤول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » براءة : ٧١ . وفيه أن السياق لا يساعد عليه .

وقوله : « وأزواجه أمهاتهم » جعل تشريعي أي إنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح به في قوله : « ولأن تنكحوا أزواجهن بعده أبداً » .

فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الامومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالامهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم وكصيرورة آبائهن وأمهاتهم أجداداً وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالاً وخالات للمؤمنين .

قوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » الخ ، الأرحام جمع رحم وهي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنيناً فيتولد ، وإذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحد عبر عن القرابة بالرحم فسمى ذوو القرابة أولي الأرحام .

والمراد بكون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ، الأولوية في التوارث ، وقوله : « في كتاب الله » المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة ، وقوله : « من المؤمنين والمهاجرين » مفضل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم ، والمعنى : وذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالموأخاة الدينية ، وهذه الأولوية في كتاب الله وربما احتتم كون قوله : « من المؤمنين والمهاجرين » بياناً لقوله : « وأولوا الأرحام » .

والآية ناسخة لما كان في صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموأاة في الدين .

وقوله : « إلا تفعلوا إلى أوليائكم معروفاء » الاستثناء منقطع ، والمراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشيء من التركة ، وقد حذر شرعاً بثلاث المال فما دونه ، وقوله : « كان ذلك في الكتاب مسطوراً » أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة .

قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشد ذلك فالميثاق

المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيون وهو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير إليه في قوله: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، الأعراف : ١٧٢ .

وقد ذكر أخذ الميثاق من النبيين في موضع آخر وهو قوله : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ، أقررته وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا ، آل عمران : ٨١ .

والآية المبعوث عنها وإن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم وإن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنسوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه كما في قوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، الأنبياء : ٩٢ ، وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، الشورى : ١٣ .

وقد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمي خمسة منهم بأسمائهم بالمعطف عليهم فقال : « ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، ومعنى المعطف إخراجهم من بينهم وتخصيصهم بالذكر كأنه قيل : « وإذ أخذنا الميثاق منك أي الخمسة ومن باقي النبيين .

ولم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم وأصحاب شرائع وكتب وقد عدّهم على ترتيب زمانهم : نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليهم السلام ، لكن قدّم ذكر النبي ﷺ وهو آخرهم زماناً لفضله وشرفه وتقدمه على الجميع .

وقوله : « وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، تأكيد وتغليظ للميثاق نظير قوله : « فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، هود : ٥٨ .

قوله تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً ، اللام في « ليسأل ، للتعليل أو للغاية وهو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله : « وإذ أخذنا ، وقوله : « وأعدّ ، معطوف على ذلك المحذوف ، والتقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق

ليشهد له سؤال الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً .

ولم يقل : وليعدّ للكافرين عذاباً ، إشارة أن عذابهم ليس من العطل العائية لأخذ الميثاق وإنما النقص من ناحيتهم والخلف من قبلهم .

وأما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل : المراد بالصادقين الأنبياء وسؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم وكأنه مأخوذ من قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم » المائدة : ١٠٩ .

وقيل : المراد سؤال الصادقين في توحيد الله وعندله والشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه ، وقيل : المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم ، وقيل : المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره ؟ إلى غير ذلك من الوجود وهي كما ترى .

والتأمل فيما يفيد قوله : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » يرشد إلى خلاف ما ذكره ، ففرق بين قولنا : سألت الضي عن غناه وسألت العالم عن علمه ، وبين قولنا : سألت زيدا عن ماله أو عن علمه ، فالمتبادر من الأولين أي طالبتة أن يظهر غناه وأن يظهر علمه ، ومن الأخيرين أي طالبتة أن يخبرني هل له مال أو هل له علم ؟ أو يصف لي ما له من المال أو من العلم .

وعلى هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول والفعل وهو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم وهذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الدر « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » الآيات .

وبالجملة الآيتان من الآيات المنبثه عن عالم الدر المأخوذ فيه الميثاق وتذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام وترتب شأنهم وعلمهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه .

ولمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين

والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكانه قيل : أخذنا ميثاقاً غليظاً من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبتغونه ليسأل الصادقين ويطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد والعمل ففعلوا فقدّر لهم الثواب وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً .

ومن هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « ليسأل الصادقين » الخ ، وذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له وإن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله : « وأخذنا » « وأخذنا » فالمطالب لصدق الصادقين والمدّ للمذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله » الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل : إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك . فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ . فقال عمر بن الخطاب : أئذن لنا يا رسول الله في قتلهم ، فقال : إني أعطيتهم الأمان وأمر فآخروا من المدينة ونزلت الآية « ولا تطع الكافرين » من أهل مكة أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة « والمنافقين » ابن أبي وابن سعيد وطعمة .

أقول : وروي إجمال القصة في الدر المنثور عن جرير عن ابن عباس ، وروي أسباب آخر لتزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وما جعل أديعاهم أبناءكم » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج بجدية بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة ورأى زيدا يباع ورآه غلاماً كيتساً حصيناً فاشتراه فلما نبئ رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم وكان يدعى : . . . مولى محمد .

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة وكان رجلاً جليلاً فأتى أبا طالب فقال : يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي وبلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إما أن يبيعه وإما أن يفاديه وإما أن يمتهن .

فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله : هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له : يا بني الحق بشرفك وحسبك ، فقال زيد : لست أفارق رسول الله ، فقال له أبوه : فتدع حسبك ونسبك وتكون عبداً لقريش ؟ فقال زيد : لست أفارق رسول الله ما دمت حياً ، فغضب أبوه فقال : يا معشر قريش اشهدوا أنني قد برئت منه وليس هو ابني ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني . فكان زيد يدعى ابن محمد وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبه وسماه زيد الحب .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زوجته زينب بنت جحش وأبطأ عنه يوماً فأتى رسول الله منزله يسأل عنه فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستعق طيبها بفهر لها فدفع رسول الله الباب ونظر إليها وكانت جميلة حسنة فقال : سبحان الله رب النور وتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم رجع رسول الله إلى منزله ووقعت زينب في قلبه موقفاً عجيباً .

وجاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله فقال لها زيد : هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله ؟ فقالت : أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني رسول الله . فجاء زيد إلى رسول الله فقال : يا أبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرتني زينب بكذا وكذا فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها ؟ فقال له رسول الله : لا اذهب واتق الله وامسك عليك زوجك ، ثم حكى الله فقال : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتحفي في نفسك ما الله مبديه وتحشى الناس والله أحق أن تحشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها - إلى قوله - وكان امر الله مفعولاً ، فزوجه الله من فوق عرشه .

فقال المنافقون : يحرم علينا نساء أبنائنا ويتزوج امرأة ابنه زيد فأنزله الله في هذا « وما جعل أديعاهم أبناءكم - إلى قوله - هدي السبيل » .

أقول : وروى قريباً منه مع اختلاف مسأ في الدر المنثور عن ابن مردويه عن

ابن عباس .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ أنه كان يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأبما رجل مات وترك ديناً فإليّ ، ومن ترك مالاً فهو لورثته .

أقول : وفي معناه روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال : غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال : يا بريدة ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعلي مولاه .

وفي الاحتجاج عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه وعلي بين يديه في البيت .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن جعفر عنه ﷺ والأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء .

وفي الكافي بإسناده عن حنان قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أي شيء للموالي ؟ فقال : ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز وجل : « إلا أن تفضلوا إلي أوليائكم معروفاً » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قيل : يا رسول الله متى أخذ ميثاقك ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد .

أقول : وهو بلفظ مروى بطرق مختلفة عنه ﷺ ومعناه كون الميثاق مأخوذاً في نشأة غير هذه النشأة وقبلها .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا - ٩ . إِذْ جَاءَهُمْ مِنْ قَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
 الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا - ١٠ . هُنَالِكَ
 آتَيْنِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا - ١١ . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
 وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا - ١٢ .
 وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
 وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا بِحُورَةٍ وَمَا هِيَ بِحُورَةٍ
 إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا - ١٣ . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ
 سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا - ١٤ . وَلَقَدْ كَانُوا
 عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا - ١٥ .
 قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا
 قَلِيلًا - ١٦ . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا
 أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا - ١٧ .
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا
 يَأْتُونَ التَّبَاسِرَ إِلَّا قَلِيلًا - ١٨ . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
 رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
 فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ
 يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا - ١٩ .

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُون عَنْ أُنْبِيَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا — ٢٠. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا — ٢١. وَلَمَّا رَأَى
الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا — ٢٢. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا — ٢٣. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا — ٢٤.
وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا — ٢٥. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا — ٢٦. وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا
لَمْ تَطَّوَّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا — ٢٧.

(بيان)

قصة غزوة الخندق وما عقبها من أمر بني قريظة ووجه اتصالها بما قبلها ما فيها
من ذكر حفظ العهد ونقضه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود » الخ ، تذكر للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم وصرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنوداً مجندة من شعوب وقبائل شتى كغطفان وقريش والأحابيش وكنانة ويهود بني قريظة والنضير أحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح وأزل ملائكة يخذلونهم .

وهو قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ » ظرف للنعمة أو لثبوتها « جاءتكم جنود » من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان وقريش وغيرها « فأرسلنا » بيان للنعمة وهو الإرسال المنفرع على مجيئهم « عليهم ريحاً » وهي الصبا وكانت باردة في ليل شاتبة « وجنوداً لم تروها » وهي الملائكة لخدلان المشركين « وكان الله بما تعملون بصيراً » .

قوله تعالى : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم » الخ الجاؤون من فوقهم وهو الجانب الشرقي للمدينة غطفان ويهود بني قريظة وبني النضير والجاؤون من أسفل منهم وهو الجانب الغربي لها قريش ومن انضم إليهم من الأحابيش وكنانة فقوله : « إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم » عطف بيان لقوله : « إذ جاءتكم جنود » .

وقوله : « إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » ، عطف بيان آخر لقوله : « إذ جاءتكم » الخ ، وزينغ الأبصار ميلها والقلوب هي الأنفوس والحناجر جمع حنجر وهو جوف الحلقوم .

والوصفان أعني زينغ الأبصار وبلغت القلوب الحناجر كنايةتان عن كمال غشيان الحوف لهم حتى حوّلهم إلى حال المتحضر الذي يزينغ بصره وتبلغ روحه الحلقوم .

وقوله : « وتظنون بالله الظنون » أي يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول : إن الكفار سيفلبون ويستولون على المدينة ، وبعضهم يقول : إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع ، وبعضهم يقول : إن الجاهلية ستعود كما كانت ، وبعضهم يقول : إن الله غرّم ورسوله إلى غير ذلك من الظنون .

قوله تعالى : « هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً » هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان والمراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود وكان شديداً عليهم

لغاية بعيدة، والابتلاء الامتحان، والزلزلة والزلازل الاضطراب، والشدة القوة وتختلفان في أن الغائب على الشدة أن تكون محسوساً بخلاف القوة، قيل: ولذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد.

والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون واضطربوا خوفاً اضطراباً شديداً. قوله تعالى: « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين وهم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وإنما سمي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام. والغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته في صورة الخير والاعتقار احتمال له. قال الراغب: يقال: غررت فلاناً أصبت غرته ونلت منه ما أريد، والغرّة - بكسر الفين - غفلة في اليقظة. انتهى.

والوعد الذي يمدونه غروراً من الله ورسوله لهم بقربنة المقام هو وعد الفتح وظهور الإسلام على الدين كله وقد تكرر في كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر ونحن لا نؤمن أن نذهب إلى الحلاء.

قوله تعالى: « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، والمقام بضم الميم الإقامة، وقولهم: لا مقام لكم فارجعوا أي لا وجه لإقامتكم هنا قبيل جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفاً على قوله: قالت طائفة: « ويستأذن فريق منهم » أي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض « النبي » في الرجوع « يقولون » استئذاناً « إن بيوتنا عورة » أي فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق وزحف العدو « وما هي بعورة إن يريدون » أي ما يريدون بقولهم هذا « إلا فراراً ».

قوله تعالى: « ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً » ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب، والضمير في « دخلت » للبيوت ومعنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولاً عليهم، والأقطار جمع قطر وهو الجانب، والمراد بالفتنة بقربنة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها

طلبها منهم ، والتلبث التأخر .

والمعنى : ولو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها وهم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعظوم مسؤولهم وما تأخروا بالردة إلا يسيراً من الزمان بمقدار الطلب والسؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا .

قوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولثون الاديبار وكان عهد الله مسؤولاً ، اللام للقسم ، وقوله : « لا يولون الاديبار » أي لا يعرّون عن القتال وهو بيان للهدى ولعل المراد بعمدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسوله وما جاء به : الجهاد الذي يحرم الفرار فيه ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمتعون إلا قليلاً ، إذا لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئاً .

وقوله : « وإذا لا تتمتعون إلا قليلاً » أي وإن نفعكم الفرار فتمتعتم بتأخر الأجل فرضاً لا يكون ذلك التمتع إلا تبعاً قليلاً أو في زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة .

قوله تعالى : « قل من ذا الذي يمسك من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » كانت الآية السابقة تنبيهاً لهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف وفي هذه الآية تنبيه على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محضاً لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالجزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى والقرار على أمره بالتوكل عليه .

ولما كانت ألوهيهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي ﷺ بتكليمهم إني تكلمت نفسه فقال : « ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

قوله تعالى : « وقد يعلم الله الموقنين منكم - إلى قوله - يسيراً » التوقيت التشبیط والنصرف ، وهم اسم فعل بمعنى أقبل ، ولا يثنى ولا يجمع في لغة الحجاز ، والبأس الشدة والحرب ، وأشعة جمع شحيح بمعنى البخل ، والذي يفشى عليه هو الذي أخذته

الغشوة فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران، والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطمع.
ومعنى الآيتين : أن الله ليعلم الذين يشبّطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال
وهم المنافقون ويمسك الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفه الإيمان
تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلا قليلاً بخلاء عليكم بنفوسهم .

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظراً
لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشي عليه من الموت فإذا
ذهب الخوف ضربوك وطمعنوك بالسنة حداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير
الذي نلتموه .

أولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الإيمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله
أعمالهم وأحبطها وكان ذلك على الله يسيراً .

قوله تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » إلى آخر الآية ، أي يظنون من
شدة الخوف أن الأحزاب - وهم جنود المشركين المتحزبون على النبي ﷺ - لم
يذهبوا بعد « وإن يأت الأحزاب » مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة « ودوا »
ويحبوا « أنهم بادون » أي خارجون من المدينة إلى البدو « في الأعراب يسألون عن
أنبائكم » وأخباركم « ولو كانوا فيكم » ولم يخرجوا منها بادين « ما قاتلوا إلا قليلاً »
أي ولا كثير فائدة في لزومهم إياكم وكونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلاً لا يعتد به .

قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً » الأسوة القدوة وهي الاقتداء والاتباع ، وقوله : « في رسول
الله » أي في مورد رسول الله والأسوة التي في موردده هي تأسيهم به واتباعهم له
والتصبير بقوله : « لقد كان لكم » الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة
إلى كونه تكليفاً ثابتاً مستمراً .

والمعنى : ومن حكم رسالة الرسول وإيمانكم به أن تتأسوا به في قوله وفعله
وأنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله وحضوره في القتال وجهاده في الله حق جهاده :

وفي الكشاف : فإن قلت : فما حقيقة قوله : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة
حسنة » ؟ وقرئ أسوة بالضم . قلت : فيه وجهان : أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة

أي قدوة وهو الموتى أي المقتدى به كما تقول . في البيضة عشرون منا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد . والثاني : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتى بها وتتبع وهي المواسة بنفسه انتهى وأول الوجهين قريب مما قدمناه .

وقوله : « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » بدل من ضمير الخطاب في « لكم » للدلالة على أن التأمي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان ، وإنما يختص بها جمع ممن تلبس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فأمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحاً ومع ذلك ذكر الله كثيراً فكان لا يفغل عن ربه فتأسى بالنبي في أفعاله وأعماله .

وقيل : قوله : « لمن كان » الخ ، صلة لقوله : « حسنة » أو صفة له للنوع عن الإبدال من ضمير الخطاب ومآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد .

قوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » ، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب ونزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم وتبصرهم في الإيمان وتصديقهم لله ولرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الإرتياب وسيء القول ، وبذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله ورسوله .

وقوله : « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجرداً عن سائر الخصوصيات ، كما في قوله : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي » ، الأنعام : ٧٨ .

والوعد الذي أشاروا إليه قيل : هو ما كان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن الأحزاب سينظأهرون عليهم فلما شاهدوم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم .

وقيل : إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » البقرة : ٢١٤ فتحققوا

أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدة والهنة التي تزلزل القلوب وتدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود وأن الله سينصرهم على عدوهم .

والحق هو الجمع بين الوجهين نظراً إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله .

وقوله : « وصدق الله ورسوله » شهادة منهم على صدق الوعد ، وقوله : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » أي إيماناً بالله ورسوله وتسليماً لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله .

قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » ، قال الراغب : النحب النذر المحكوم بوجوبه ، يقال : قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى : « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » ، ويعبر بذلك عن مات كفولهم : قضى أجله واستوفى أكله وقضى من الدنيا حاجته . انتهى .

وقوله : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لاقوا العدو ، وبشهد على أن المراد بالصدد ذلك أن في الآية محاذاة لقوله السابق في المنافقين والضمفاء الإيذان : « ولقد كنوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار » كما أن في الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقاً من ارتياب القوم وعدم تسليمهم لأمر الله .

وقوله : « فمنهم من قضى نحبه » الخ ، أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله ومنهم من ينتظر ذلك وما بدلوا شيئاً مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلاً .

قوله تعالى : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً » اللام للغاية وما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين .

فقوله : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم » المراد بالصادقين المؤمنين وقد ذكر صدقهم قبل ، والباء في « بصدقهم » للسببية أي ليجزي المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم .

وقوله : « ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أي ويعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم وذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفوراً رحيماً .
وفي الآية من حيث كونها بيان غاية نكته لطيفة هي أن المعاصي ربما كانت مقدمة للسعادة والمغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة والشقوة إلى حيث تتوحش النفس وتتنبه فتتوب إلى ربها وتتزعج عن معاصيها وذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية .

قوله تعالى : «وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » الفيظ الغم والحنى والمراد بالخير ما كان يعدّه الكفار خيراً وهو الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين .

والمعنى : وردّ الله الذين كفروا مع غمهم وحنقهم والحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونوه وكفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا وكان الله قوياً على ما يريد عزيزاً لا يغلب .

قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيم - إلى قوله - قديراً » المظاهرة المعاونة ، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الذي يمتنع به ولعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها ومن أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها ومحاصريهم .

والمعنى : « وأنزل الذين ظاهروهم » أي عاونوا الشركين وهم بنو قريظة « من أهل الكتاب » وهم اليهود « من صياصيم » وحصونهم « وقذف » وألقى « في قلوبهم الرعب » والخوف « فريقاً تقتلون » وهم الرجال « وتأسرون فريقاً » وهم الذراري والنساء « وأورثكم » أي وملنكم بعمدهم « أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها » وهي أرض خيبر أو الأرض التي أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وأما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم وپارس فلا يلائمه سياق الآيتين « وكان الله على كل شيء قديراً » .

(بحث رواني)

في الجمع ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا : كان من

حديث الخندق أن نقرأ من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلهم رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم.

فقلت لهم قريش: يا مشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فدينا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم ءالم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً - إلى قوله - وكفى بجهنم سعيراً ء فسرت قريشاً ما قالوا ونشطوا لما دعواهم إليه فأجمعوا لذلك واتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون عليه وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم .

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عينة ابن حصين بن حذيفة بن بدر في فزاراة والحارث بن عوف في بني مرة ومسر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طليعة فيمن اتبعه من بني أسد وهما حليفان أسد وغطفان وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مدداً لقريش .

فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار إليه سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيك رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أحكوه .

فما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف: فكننت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن

وستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً ، فحفرتنا حتى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الحنندق صخرة بيضاء مدوّرة فكسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نجب أن نجاوز خطه ، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو مضروب عليه قبة فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء من الحنندق مدوّرة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحكّ فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الحنديق وأخذ المعول وضرب بها ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعني لآبتي المدينة حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح فكبّر المسلمون ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى .

فقال سلمان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ فقال : أما الأولى فإن الله عز وجل فتح عليّ بها اليمن وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق فاستبشر المسلمون بذلك وقالوا : الحمد لله موعد صادق .

قال : وطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يحدثكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الحنديق ولا تستطيعون أن تبرزوا (١) .

وما ظهر فيه أيضاً من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن الخزومي قال حدثني أيمن الخزومي قال : سمعت جابر بن عبد الله قال : كنا يوم الحنديق نحفر الحنديق فعرضت فيه كدية وهي الجبل فقلنا : يا رسول الله إن كدية عرضت فيه فقال رسول الله ﷺ رشوا عليها ماء ثم قام وأثامها ويطنه معصوب الحجر (٢) من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثاً ثم ضرب فعدت كثيراً (٣)

(١) أي تقضوا حاجتكم بالتخلي .

(٢) الحجر حرض الانسان وهو ما دون الابط الى الكشح .

(٣) أي تلا من الرمل .

أهيل فقلت : ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء ؟ فقالت : عندي صاع من شعير وعناق^(١) فطحنت الشعير فمعجنته وذبحت العناق وسلختها وخليت بين المرأة وبين ذلك .

ثم أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة ثم قلت : ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إن عندنا طبعاً لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال : وكم هو؟ فقلت : صاع من شعير وعناق فقال للمسلمين جميعاً : قوموا إلى جابر فقاموا فلقبت من الهياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت : جاء بالخلق إلى صاع شعير وعناق .

فدخلت على المرأة وقلت : قد افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم . فقالت : الله ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غماً شديداً .

فدخل رسول الله ﷺ فقال : خذي ودعيني من اللحم فجعل رسول الله ﷺ يترد ويفرق اللحم ثم يحم هذا ويحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ويعود التنور والقدر أملاً ما كانا .

ثم قال رسول الله ﷺ : كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع أوردته البخاري في الصحيح .

قالوا : ولما فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف^(٢) والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع^(٣) في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام^(٤) .

(١) الاتى من أولاد المز .

(٢) مكان خارج المدينة .

(٣) جبل بالمدينة .

(٤) حصون لأهل المدينة .

وخرج عدو الله حبي بن أخطاب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطاب أغلق دونه حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال : ويحك يا حبي إنك رجل مثوم ، إني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقاً . قال : ويحك افتح لي حتى أكلك . قال : ما أنا بفاعل . قال : إن أغلقت دوني إلا على جشيئة تكره أن آكل منها معك .

فاحفظ^(١) الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب جنتك بعز الدهر وبيع طام^(٢) جنتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يتأصلوا محمداً ومن معه . فقال كعب : جنتي والله بذلت الدهر يجهام^(٣) قد اهراق ماءه برعد ويبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء .

فلم يزل حبي بكعب يقتل منه في الذرورة^(٤) والغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده وبريء مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس أحد بني عبد الأشهل وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة ابن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعها عبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن

(١) أحفظ الرجل : أغضبه .

(٢) الطام : البحر العظيم .

(٣) السحاب الذي لا ماء فيه .

(٤) الذرورة والغارب أصل الشيء وأصله مثل ما أخذ من قتل ذرورة البعير المصعب وغاربه لوضع

الحطام في أنفه .

كان حقاً فالحنوا لنا لحننا نعرفه ولا تفتنوا أعضاء الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

وخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبت بما بلتهم عنهم . قالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد ، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتوه ، وقال سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمهم فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاقمة .

ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : عضل والقارة - لعذر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ خبيب بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع - فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأقام عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن وظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر ابن لوي وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيؤوا للحرب يا بني كنانة فستعملون اليوم من الفرسان ؟

ثم أقبلوا تمنق^(١) بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيولهم فاقتمعوا فجمالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا وأقبلت الفرسان نحوهم .

وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث وأثبتته الجراح ولم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده ، وكان يمدد بالرف فارس وكان يسمى فارس بليل لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا ببليل - وهو واد قريب من بدر - عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه : امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منهم أن يصلوا إليه فمُرف بذلك .

(١) اعتق به فرسه : سار به سراً واسماً فسبحاً مسطراً ممتداً .

وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقبل في ذلك :

عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المذاد وكان فارس يليل

وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود كان ينادي : من يبارز ؟ فقام علي وهو مقنّع في الحديد فقال : أنا له يا نبي الله ، فقال : إنه عمرو اجلس . ونادى عمرو : ألا رجل ؟ وهو يؤنسبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ فقام علي فقال : أنا له يا رسول الله . ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بجمحت عن النداء	يجمعكم هل من مبارز ؟
ووقفت إذ جبن المشجع	موقف البطل المناجز
إن الساحة والشجاعة في	الفتى خير الفرائز

فقام علي فقال : يا رسول الله أنا له ، فقال : إنه عمرو ، فقال : وإن كان عمرواً فاستأذن رسول الله ﷺ فأذن له .

قال ابن إسحاق : فمشى إليه وهو يقول :

لا تعجلنّ فقد أنا	ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة	والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيم	عليك ناحية الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى	ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . فقال : غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإني أكره أن أهريق دمك . فقال علي : لكنني والله ما أكره أن أهريق دمك . ففضب عمرو ونزل وسل سيفه كأنه شعله نار ثم أقبل نحو علي مفضباً فاتقبه علي بدرقته ^(١) فضربه عمرو بالدرقة ففقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشبّه ، وضربه علي على - ا. العاتق فسقط .

وفي رواية حذيفة: وتسيّف عليّ رجله بالسيف من أسفل فوق عليّ ففاه وثارَتْ
بينها عجاجة فسمع عليّ يكبّر فقال رسول الله ﷺ: قتله والذي نفسي بيده فكان
أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله قتله فجزّ عليّ رأسه وأقبل
نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل .

قال حذيفة: فقال النبي ﷺ: أبسرا يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة
محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن
بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو .

وعن الحاكم أبي القاسم أيضاً بالإسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة
عن عبد الله بن مسعود قال: كان يقرأ « وكفى الله المؤمنين القتال بعلي » .

وخرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق وتبادر المسلمون فوجدوا
نوفل بن عبد العزيز جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجهل من
هذه ينزل بعضكم اقاتله فقتله الزبير بن العوام، وذكر ابن إسحاق: أن علياً طعنه في
ترقوه حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق .

وبعث المشركون إلى النبي ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي:
هو لكم لا تأكل من الموتى، وذكر عليّ أبياتاً منها:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	ونصرت رب محمد بصواب
فضربتة وتركته متجداً	كالجذع بين دكادك ورواب
وعففت عن أنوبه لو أنني	كنت المقطر بزني أنوابي

قال ابن اسحق: وزمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم وقال:
خذها وأنا ابن العرفة فقطع أكحلها فقال سعد: عرف الله وجهك في النار اللهم إن
كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنها لا قوم أحب إليّ أن اجاهد من
قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم
فاجعله لي شهادة ولا تمنني حتى تقرّ عيني من بني قريظة .

قال: وجاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد
أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك فقال له النبي ﷺ: إنما أنت فينا

رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فلما الحرب خدعة .

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم : إني لكم صديق ، والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة إن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاؤا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهبوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا الى بلادهم وخلتوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناً من أشراقهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمداً . فقالوا له : قد أشرت برأيي .

ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراق قريش فقال : يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً ودينه وإني قد جشتمك بنصيحة فاكنموا علي . فقالوا : نفعنا ما أنت عندنا بمتهم . قال : تملون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد فبعثوا اليه أنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهناً من أشراقهم وندفعهم اليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك . فقال : بلى فإن بعثوا اليك يسألونكم نفرأ من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا .

ثم جاء غطفان وقال : يا معشر غطفان إني رجل منكم ، ثم قال لهم ما قال لقريش .

فما أصبح أبو سفيان وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث اليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش أن أبا سفيان يقول لكم : يا معشر اليهود إن الكراع والحف قد هلكا وإنما لنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه . فبعثوا اليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمداً .

فقال أبو سفيان : والله لقد حذرنا هذا نعيم فبعث اليهم أبو سفيان : إنا لا نمطيك رجلاً واحداً فإن شتمت أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شتمت فاقعدوا ، فقالت اليهود : هذا والله الذي قال لنا نعيم . فبعثوا اليهم إنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهناً ، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليل شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين .

قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليان: والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله وقام رسول الله ﷺ يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال: ألا رجل يأتينا بنجر القوم يجعله الله رفيقاً في الجنة. قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع، فلما لم يبق أحد دعاني فلم أجد بداً من إجابته. قلت: لبيك قال: اذهب فجيء بنجر القوم ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع.

قال: وأتيت القوم فإذا يريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر فأبني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جلسه؟ قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان.

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثم عجلت فركب راحلته وإنها لمعقولة ما حل عقابها إلا بعد ما ركبها.

قال: قلت في نفسي: لو رميت عدو الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن شيئاً حتى ترجع. قال فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله وهو يصلي فلما سمع حسي فرج بين رجليه فدخلت تحته، وأرسل على طائفة من مرطه^(١) فركع وسجد ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته.

وعن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب: الآن نفزوهم ولا يفزوننا فكان كما قال، فلم يفزهم قريش بعد ذلك وكان هو يفزوهم حتى فتح الله عليهم مكة.

أقول: هذا ما أورده الطبرسي في جمع البيان من القصة أوردها ملخصاً وروى القمي في تفسيره قريباً منه وأورده في الدر المنثور في روايات متفرقة. وفي الجمع أيضاً روى الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال:

لما انصرف النبي ﷺ عن الحندق ووضع عنه الأمانة واغتسل واستعم تبدى له جبريل فقال : عذرك من محارب ألا أراك أن قد وضعت عنك الأمانة وما وضعناها بعد .

فوثب رسول الله ﷺ فزعاً فزعهم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم : إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة فإنما نحن في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، وصلى طائفة من الناس احتساباً وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها حين جاؤا بني قريظة احتساباً فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين .

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب على المقدّم ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله ﷺ على آثارهم فرمى على مجلس من الأنصار في بني غم ينتظرون رسول الله ﷺ فزعوا أنه قال : مرّ بكم الفارس آنفاً فقالوا : مرّ بنا دحية الكلبي على بغلة شبيهة تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك بدحية ولكنه جبرائيل أرسل إلى بني قريظة ليزلزمهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

قالوا : وسار علي حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : أظنك سمعتهم ، أي منهم أذى ؟ فقال : نعم يا رسول الله فقال : لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : يا إخوة القردة والخنازير ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟ فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان حبي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا أيها شتم . قالوا : ما هن ؟

قال: نبايع هذا الرجل ونصدقّه فواؤه لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونّه في كتابكم فتأمّنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم . قالوا : لا تفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عليّ هذا فهلتموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجلاً مصليين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً همنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا همنا وإن نظهر لنجدن للنساء والأبناء . فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير في العيش بدمهم .

قال : فإن أبيتم عليّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها فانزلوا فملئنا نصيب منهم غرفة . فقالوا : فقد سبتنا ؟ ونحدث فيه ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ ؟ فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته امه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

قال الزهري : وقال رسول الله ﷺ حين سأله أن يحكم فيهم رجلاً : اختاروا من شئت من أصحابي ، فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك للنبي ﷺ فزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ﷺ بسلامتهم فجعل في قبته وأمر بهم فكفّفوا واثقوا وجعلوا في دار اسامة ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم ونساءهم وتغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار : إنكم ذو عقار وليس للمهاجرين عقار ، فكبر رسول الله ﷺ وقال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل ، وفي بعض الروايات : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة - وأرقعة جمع رقيع اسم السماء الدنيا .

فقتل رسول الله ﷺ مقاتليهم ، وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل ، وقيل : قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلاً وسبى سبعمائة وخمسين ، وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ إرسالاً : يا كعب ما ترى يصنع بنا ؟ فقال كعب : أفي كل موطن تقولون ؟ ألا ترون أنّ الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل .

وأُتي بحبيّ بن أخطب عدو الله عليه حلة فاخيتية قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة لتلايلها بمجموعة يداه إلى عنقه بمجبل ، فلما بصر برسول الله ﷺ فقال : أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم قال : يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه .

ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأمواهم على المسلمين وبمات بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً ، قالوا : فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد .

وروي عن جابر بن عبد الله قال : جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ قد قبض .

أقول : وروى القصة القمي في تفسيره مفصلة وفيه : فأخرج كعب بن اسيد مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له : يا كعب أما نفمك وصية ابن الحواس الحبر الذي قدم عليك من الله ؟ فقال : تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبي يبعث مخرجه بمكة ومهاجرته في هذه البحيرة يحترق بالكسيرات والتميرات ، ويركب الحمار العربي ، في عينيه حمره ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يضع سيفه على عاتقه ، لا يبالي من لاقى منكم ، يبلغ سلطانه منقطع الحف والحافر فقال قد كان ذلك يا محمد ولولا أن اليهود يعبروني أي جزعت عند القتل لأمنت بك وصدقتك ، ولكنني على دين اليهود عليه أحياء وعليه أموت . فقال رسول الله ﷺ : قدّموه واضربوا عنقه فضربت .

وفيه أيضاً : فقتلهم رسول الله ﷺ في البردين بالفداء والعشي في ثلاثة أيام وكان يقول : اسقوهم العذب وأطعموهم الطيب وأحسنوا أسرارهم حتى قتلهم كلهم فأنزله عز وجل فيهم : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم - إلى قوله - وكان الله على كل شيء قديراً » .

وفي الجمع : روى أبو القاسم الحسكاني عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي بن الحسين قال : فينا نزلت « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فإنا والله المنتظر ما بدلت تبديلا .

* * *

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرُحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — ٢٨ . وَإِنْ كُنْتُنَّ
تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ
أَجْرًا عَظِيمًا — ٢٩ . يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ
يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا — ٣٠ . وَمَنْ
يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا
لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا — ٣١ . يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا — ٣٢ . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا — ٣٣ . وَأَذْكُرَنَّ
مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا — ٣٤ . إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَاتِلِينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً - ٣٥ .

(بيان)

آيات راجعة إلى أزواج النبي ﷺ تأمره أولاً : أن ينبتن أن ليس هن من الدنيا وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي ﷺ ، ثم تحاطبن ثانياً : أنهن واقفات في موقف صعب على ما فيه من الملوّ والشرف فإن اتقن الله يؤتبن أجرهن مرتين وإن أتبن بفاحشة مبيّنة يضاعف هن العذاب ضعفين ويأمرهن بالمغفرة ولزوم بيوتهن من غير تبرُّج والصلاة والزكاة وذكر ما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعداً بالمغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى تمام الآيتين ، سياق الآيتين يلوّح أن أزواج النبي أو بعضهن كانت لا ترتضي ما في عيشتهن في بيت النبي ﷺ من الضيق والظنك فاشتكت إليه ذلك وافترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها .

فأمر الله سبحانه نبيه أن يختبرهن بين أن يفارقهن وهن ما يردن وبين أن يبقين عنده وهن ما هن عليه من الوضع الموجود .

وقد ردّد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، وهذا الترديد يدل أولاً : أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والمعيشة في بيته مما لا يجتمعان .

وثانياً : أن كلا من طرفي التريد مقبّد بما يقابل الآخر ، والمراد بإعادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد ، والمراد بإعادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك .

ثم الجزء أعني نتيجة اختيارهن كلا من طرفي التريد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي ﷺ أن يطلقهن ويمتنعن جماء من مال الدنيا ، وعلى تقدير بقائهن على زوجية النبي ﷺ واختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان والعمل الصالح .

ويقين بذلك أن ليس لزوجية النبي ﷺ من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه وإنما الكرامة لزوجيته المتسارئة للإحسان والتقوى ولذلك لما ذكره نبياً علواً منزلتهن قيده أيضاً بالتقوى فقال : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » وهذا كقوله في النبي وأصحابه : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ترام ركعاً سجداً - إلى أن قال - وعند الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أجراً عظيماً » حيث مدحهم عامة بظواهر أعمالهم أولاً ثم قيّد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح .

وبالجملة فإطلاق قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٠ على حاله غير منتقص بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك .

فقوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك » أمر النبي ﷺ أن يبلغ الآيتين أزواجه ولازمه أن يطلقهن ويمتنعن إن اخترن الشق الأول ويبقيهن على زوجيته إن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

وقوله : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » إرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها وتعلق القلب بتمتعها والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة .

وقوله : « فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً » قال في الكشف : أصل تعال أن يقول من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت في

استعماله الأمكنة ، ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكين واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقولون : أقبلن يخاصمني وذهب بكلمتي وقام يهددني . انتهى .

والتمتع إعطاؤهن عند التطبيق مالا يتمتعن به والتسريح هو التطبيق والسراح الجليل هو الإطلاق من غير خصومة ومشاجرة بين الزوجين .

وفي الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون والحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي ﷺ ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره وتفصيل القول في الفقه .

وقوله : « وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة » فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة وبين قوله : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » الخ ، تقيد كلا منها بخلاف الأخرى وعدمها ، فمعنى الجملة : « وإن كنتن تردن وتحترقن طاعة الله ورسوله وسعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش والحرمات من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش وإلا لم يصح اشتراط الإحسان في الأجر الموعود وهو ظاهر .

فالمنى : « وإن كنتن تردن وتحترقن البقاء على زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش فإن الله هباً لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكن محسنات في أعمالكن » مضافاً إلى إرادتكين الله ورسوله والدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » الخ ، عدل عن غطاطة النبي ﷺ فهن إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف وزيادة التوكيد ، والآية والتي بعدها تقرير وتوضيح بنحو لما استفاد من قوله : « فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » إثباتاً ونقياً .

فقوله : « من يأت منكن بفاحشة مبينة » للفاحشة المفصلة بالصفة في الشناعة والمقبح وهي الكبيرة كإيذاء النبي ﷺ والافتراء والفتنة وغير ذلك ، والمبينة هي الظاهرة .

وقوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » أي حال كونه ضعفين والضعفان المثلان

ويؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد : « نؤتها أجرها مرتين » فلا يعاب بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفاء صار المجموع ثلاثة أمثاله .

وختم الآية بقوله : « وكان ذلك على الله يسيراً » للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية ونحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى وزوجية النبي ﷺ إنما تؤثر الأثر الجليل إذا قارن التقوى وأما مع المعصية فلا تزيد إلا بعداً ووبالاً .

قوله تعالى : « ومن يقنت منكن الله ورسوله ويعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين » الخ ، القنوت الخضوع ، وقيل : الطاعة وقيل : لزوم الطاعة مع الخضوع ، والإعتدال التهيئة ، والرزق الكريم مصداقه الجنة .

والمعنى : ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع ويعمل عملاً صالحاً نعطيها أجرها مرتين أي ضعفين وهياً لها رزقاً كريماً وهي الجنة .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله : « نؤتها » و « أعتدنا » للإيدان بالقرب والكرامة ، خلاف البعد والحزني المفهوم من قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » .

قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » الخ ، الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقيتن وترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي والأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله : فلا تخضعن بالقول وقرن ولا تبرجن الخ ، وهي خصال مشتركة بين نساء النبي ﷺ وسائر النساء .

فصدير الكلام بقوله : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه ، يفيد تأكيد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل : لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في أمثال هذه التكاليف وتحظن في دين الله أكثر من سائر النساء .

وتؤيد بل تدل على تأكيد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيراً وشرأ كما دللت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكيد التكليف .

وقوله : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » بعد ما بينت علوة

منزلتهن ورفعته قدرهن لمكانهن من النبي ﷺ وشرط في ذلك التقوى فيبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي ﷺ نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترفيق الكلام وتلينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة وتثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض وهو فقدان قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء .

وقوله : « وقلن قولاً معروفاً » أي كلاماً معمولاً مستقيماً يعرفه انشراح والعرف الإسلامي وهو القول الذي لا يشير ببعنه إلى مزيد من مدلوله معرّى عن الإيحاء إلى فساد وريبة .

قوله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » - إلى قوله - وأطعن الله ورسوله « قرن » من قرّ يقر إذا ثبت وأصله اقرن حذفته إحدى الراءين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن ولزومهن لها ، والتبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظرها . والجاهلية الأولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة ، وقول بعضهم : إن المراد به زمان ما بين آدم ونوح عليها السلام ثمان مائة سنة ، وقول آخرين إنها ما بين إدريس ونوح ، وقول آخرين زمان داود وسليمان وقول آخرين أنه زمان ولادة إبراهيم ، وقول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ أقوال لا دليل يدل عليها .

وقوله : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » أمر بامتنال الأوامر الدينية وقد أفرد الصلاة والزكاة بالذكر من بينها لكونها ركبتين في العبادات والمعاملات ثم جمع الجميع في قوله : « وأطعن الله ورسوله » .

وطاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعية وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المحمولة له من عند الله كما قال : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » كلمة « إنما » تدل على حصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وكلمة أهل البيت سواء كان مجرد الاختصاص أو مدحاً أو نداءً يدل على اختصاص إذهاب الرجس والتطهير بالمخاطبين بقوله : « عنكم » ، ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وقصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت .

وليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عنكم» ولم يقل: «عنكن» فإما أن يكون الخطاب لمن ولغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام وهم المتقون لقوله تعالى: «إن أوليائوه إلا المتقون» أو أهل مسجد رسول الله ﷺ أو أهل بيت النبي ﷺ وهم الذين يصدق عليهم عرفاً أهل بيته من أزواجه وأقربائه وهم آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي أو النبي ﷺ وأزواجه، ولعل هذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة وعروة إنها في أزواج النبي ﷺ خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبي من آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي.

وعلى أي حال فالمراد بإذهاب الرجس والتطهير مجرد التقوى الديني بالاجتناب عن النواهي وامتنال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف اليكم وإنما يريد إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم على حد قوله: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم» المائدة: ٦، وهذا المعنى لا يلائم شيئاً من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البينة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

وإن كان المراد بإذهاب الرجس والتطهير التقوى الشديد البالغ ويكون المعنى: أن هذا التشديد في التكاليف المتوجهة اليكن أزواج النبي وتضعيف الثواب والعقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس ويطهركم ويكون من تعميم الخطاب لمن ولغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن وهو ظاهر ولا عموم الخطاب لمن ولغيرهن فإن الغير لا يشاركهن في تشديد التكليف وتضعيف الثواب والعقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجهاً إليهن مع النبي ﷺ وتكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه ﷺ مؤيد بمصمة من الله وهي موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف وتضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقدمة أو سبباً لحصول

التقوى الشديد له امتناناً عليه على ما يعطيه سياق الآية ولذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجهاً اليهن مع النبي ﷺ فقط أحد من المفسرين وإنما احتملناه لتصحيح قول من قال : إن الآية خاصة بأزواج النبي ﷺ .

وإن كان المراد إذهاب الرجس والتطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقاً لا بتوجيه مطلق التكليف ولا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافياً لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة التشريعية أو التكوينية .

وهذا الذي تقدم يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم .

وهي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثاً يروى ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ورائلة بن الأسقع وأبي الهراء وابن عباس وثوبان مولى النبي وعبد الله بن جعفر وعلي والحسن بن علي عليهما السلام في قريب من أربعين طريقاً .

وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وأم سلمة وأبي ذر وأبي ليلي وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً .

فإن قيل : إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ولا يتنافى ذلك شمولها لأزواج النبي ﷺ كما يفيدته وقوع الآية في سياق خطابين . قلنا : إن كثيراً من هذه الروايات وخاصة ما رويت عن أم سلمة - وفي بينها نزلت الآية - تصرح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي وسيجيء الروايات وفيها الصحاح .

فإن قيل : هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لمن كوقوع الآية في سياق خطابين . قلنا : إنما الشأن كل الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة في نزول الآية وحدها ، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي ولا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج

النبي كما ينسب إلى عكرمة وعروة ، فالآية لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي ولا متصلة بها وإنما وضعت بينها إما بأمر من النبي ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة ، ويؤيده أن آية « وقرن في بيوتكن » على انسجامها واتصالها لو قدر ارتفاع آية التطهير من بين جملة ، فموقع آية التطهير من آية « وقرن في بيوتكن » كموقع آية « اليوم يشس الذين كفروا » من آية محرقات الأكل من سورة المائدة ، وقد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب .

وبالبناء على ما تقدم تصير لفظة أهل البيت اسماً خاصاً - في عرف القرآن - بهؤلاء الخمسة وهم النبي وعلي وفاطمة والحسنان عليهم الصلاة والسلام لا يطلق على غيرهم ، ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم .

والرجس - بالكسر فالسكون - صفة من الرجاسة وهي القذارة ، والقذارة هيئة في الشيء توجب التجنب والتنفر منها ، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير ، قال تعالى : « أو لحم الخنزير فإنه رجس » ، الأنعام : ١٤٥ ، وبحسب باطنه - وهو الرجاسة والقذارة المعنوية - كالشرك والكفر وأثر العمل السيء ، قال تعالى : « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » التوبة : ١٢٥ ، وقال : « ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

وأياً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيء وإذهاب الرجس - واللام فيه للجنس - إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطيء حق الاعتقاد والعمل فتنتطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيء العمل .

على أنك عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد في التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت ، وعرفت أيضاً أن إرادة ذلك لا تناسب مقام النبي ﷺ من العصمة .

فمن المتمعن حل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بالتطهير في قوله : « ويطهركم تطهيراً » - وقد أكد بالصدر - إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله

بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فنتطهرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضاً غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلاً .

والمعنى : أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل وأثر العمل السيئ عنكم أهل البيت وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم وهي العصمة .

قوله تعالى : « واذكرونا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامثال ما وجهه إليهن من التكليف ، وفي قوله : « في بيوتكن » تأكيد آخر .

والمعنى : واحفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وليكن منكن في بال حتى لا تغفلن ولا تتخطين مما خط لكم من المسير .

وأما قول بعضهم : إن المراد واشكرونا الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن والسنة فبعيد من السياق وخاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية : « إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، الخ ، الإسلام لا يفرق بين الرجال والنساء في التلبس بكرامة الدين وقد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالاً في مثل قوله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ ، ثم صرح به في مثل قوله : « أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى » آل عمران : ١٩٥ ، ثم صرح به تفصيلاً في هذه الآية .

فقوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغابرتها نوعاً من المغابرة والذي يستفاد منه نحو مغابرتها قوله تعالى : « قالت الأعراب آمننا قلوباً لم تؤمنوا ولكن : لو أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم

— إلى أن قال — إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، الحجرات : ١٥ ، يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي . وثانياً : أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح .

فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكاليف والمسلمون والمسلمات هم المسلمون لذلك والإيمان هو عقد القلب على الدين ، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح والمؤمنون والمؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم ولا عكس .

وقوله : « والثابتين والقانتات » القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله : « والصادقين والصادقات » الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره ، للواقع . فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدم .

وقوله : « والصابرين والصابرات » فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة والنائبة وبالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، وقوله : « والخاشعين والخاشعات » الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهري بالجوارح .

وقوله : « والمتصدقين والمتصدقات » والصدقة إنفاق المال في سبيل الله ومنه الزكاة الواجبة ، وقوله : « والصابغين والصابغات » بالصوم الواجب والندوب ، وقوله : « والحافظين فروجهم والحافظات » أي لفروجهن وذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم ، وقوله : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » أي الله كثيراً حذف لظهوره وهم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم وحنانهم ويشمل الصلاة والحج .
وقوله : « أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً » التنكير للتعظيم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك » كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قتل أزواجه أعطنا ما أصبت فقال لمن رسول الله ﷺ قسمت بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل

ففضبن من ذلك ، وقلن : لملك ترى أنك إن طلقتنا أن لا نجد الأكلاء من قومنا يتزوّجوناً ؟ .

فأنف الله عز وجل لرسوله فأمره أن يمزهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله عز وجل هذه الآية وهي آية التخيير فقال : « يا أيها النبي قل لأزواجك - إلى قوله - أجراً عظيماً ، فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت : قد اخترت الله ورسوله فقمين كلهن فمأقنه وقلن مثل ذلك الحديث .

أقول : وروى ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة وفيها أن أول من اختارت الله ورسوله منهن عائشة .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه السلام أن زينب بنت جحش قالت : برى رسول الله ﷺ إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجاً غيره وقد كان اعتزل نساء تسعة وعشرين ليلة فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرائيل إلى محمد ﷺ فقال : « قل لأزواجك » الآيتين كليهما فقلن : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألت عن رجل خسر امرأته فاخترت نفسها بانت ؟ قال : لا . إنما هذا شيء كان لرسول الله ﷺ خاصة أمر . ذلك ففعل ، ولو اخترن أنفسهن لطلقهن وهو قول الله عز وجل : « قل لأزواجك إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتمكن وأسرحكن سراحاً جميلاً » .

وفي المجمع روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها : هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً ؟ قالت : نعم .

فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليها قال لها : تكلمي ، فقالت : يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها .

فقال له النبي ﷺ : كف فقال عمر : يا عدوة الله النبي لا يقول إلا حقاً والذي بعثه بالحق ، لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى توفي فقام النبي ﷺ فصعد

إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتعدى ويتمشى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

وفي الحصال عن الصادق عليه السلام قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشر امرأة ممنهن ، وقبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بها فعمرة وسنا . وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين ، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رمة بنت أبي سفيان ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويرة بنت الحارث ثم صفية بنت حيي بن أخطب والتي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمى .

وكان له سرتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وريحانة الخندفية .

والتسع اللاتي قبض عنهن عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث وأم حبيب بنت أبي سفيان وجويرة وسودة وصفية . وأفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة .

وفي الجمع في قوله : « يا نساء النبي من يأت منكن » الآيتين روى محمد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم . قال : ففضب وقال : نحن أحرى أن يمحري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى الحسنات ضعفين من الأجر ولسينتنا ضعفين من العذاب .

وفي تفسير القمي مسنداً عن أبي عبد الله عن أبيه عليها السلام في هذه الآية « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » قال : أي ستكون جاهلية أخرى .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة : اثبتني بزوجك وابنيه فجات بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد - وفي لفظ آل محمد - فاجمل صلاتك

وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قالت ام سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجنبه من يدي وقال : إنك على خير .

أقول : ورواه في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن ام سلمة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ام سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ، وفي البيت سبعة جبريل وميكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنا على باب البيت . قلت : يا رسول الله أأنت من أهل البيت ؟ قال : إنك على خير إنك من أزواج النبي .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة زوج النبي أن رسول الله ﷺ كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيري فجاءت فاطمة ببئرمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ : ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فينأمن يا كلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

فأخذ النبي ﷺ بفضله إزاره ففشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وأوما بها إلى السماء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالها ثلاث مرات .

قالت ام سلمة : فأدخلت رأسي في الستر فقلت : يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال : إنك إلى خير مرتين .

أقول : وروى الحديث في غاية المرام عن عبدالله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن ام سلمة وكذا عن تفسير الثعلبي .

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : كان يوم ام سلمة ام المؤمنين فنزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بهذه الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » قال : فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب ، والحجاب على ام سلمة مضروب ، ثم

قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالت ام سلمة : فأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وإنك على خير .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

أقول : ورواه أيضاً في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره .

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت : في بيتي نزلت : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وفي غاية المرام عن الحميدي قال : الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري ومسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت : خرج للنبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فبجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

أقول : والحديث مروى عنها بطرق مختلفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما دخل علي وفاطمة جاء للنبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمك الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

أقول : ورواه أيضاً عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه رأيت رسول الله ﷺ

يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول : « إنما يريد الله ، الآية ، وأيضاً عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الهراء ولفظه حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج الى صلاة الغداة إلا أتى الى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب ، الآية .

ورواه أيضاً عن ابن أبي شيبه وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ولفظه أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

أقول : والروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنة كثيرة وكذا من طرق الشيعة ، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحراني والمبقات .

وفي غاية المرام عن الحموي بإسناده عن يزيد بن حيان قال : دخلنا على زيد بن أرقم فقال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ألا إني تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عز وجل من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة ، ثم أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات .

قلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقة بعده آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل .

وفيه أيضاً عن مسلم في صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : إني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة ، قلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فارجع إلى أهلها وقومها . أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

أقول : فسر البيت بالنسب كما يطلق عرفاً على هذا المعنى ، يقال : بيوتات العرب بمعنى الأنساب ، لكن الروايات السابقة عن أم سلمة وغيرها تدفع هذا المعنى وتفسر أهل البيت بعلي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام .

وفي الجمع قال مقاتل بن حيان : لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع

زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قلن : لا .

فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار ، فقال ﷺ : ومم ذلك ؟ قالت : لأنهن لا يذكرن بخبر كما يذكر الرجال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية « إن المسلمين والمسلمات ، الخ .
أقول : وفي روايات أخر أن القائلة هي أم سلمة .

* * *

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا — ٣٦ . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا — ٣٧ . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا — ٣٨ . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا — ٣٩ . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا — ٤٠ .

(بيان)

الآيات أعني قوله: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه - إلى قوله - وكان الله بكل شيء علياً» في قصة تزوج رسول الله ﷺ بزوج مولاه زيد الذي كان قد اتخذ ابناً ، ولا يبعد أن تكون الآية الأولى أعني قوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » الآية ، مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها .

قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الخ ، يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شؤونهم بواسطة رسول من رسله ، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شؤون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

فقضاؤه ﷺ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره ، ويشهد سياق قوله : « إذا قضى الله ورسوله أمراً » حيث جعل الأمر الواحد متعلقاً لقضاء الله ورسوله معاً ، على أن المراد بالقضاء التصرف في شؤون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله .

وقوله : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاؤا وقوله: « إذا قضى الله ورسوله أمراً » ظرف لنفي الاختيار .

وضميراً الجمع في قوله : « لهم الخيرة من أمرهم » للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعها في حيز النفي ووضع الظاهر موضع المضمرة حيث قيل : « من أمرهم » ولم يقل : أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشاؤه توهم الخيرة وهو انتساب الأمر إليهم .

والمنى : ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في

أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه اليهم وكونه أمراً من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله .

والآية عامة لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » الآية ، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي ﷺ بزوج زيد وتمييره بأنها كانت زوج ابنة المدعو له بالتبني وسيجيء في البحث الروائي بمض ما يتعلق بالمقام .

قوله تعالى : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله » إلى آخر الآية المراد بهذا الذي أنعم الله عليه وأنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبداً للنبي ﷺ ثم حرره واتخذه ابناً له وكان تحت زينب بنت جحش بنت عم النبي ﷺ أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبي ﷺ عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي ﷺ ونزلت الآيات .

فقوله : « أنعم الله عليه » أي بالهداية إلى الإيمان وتجييبه إلى النبي ﷺ وقوله : « وأنمت عليه » أي بالإحسان إليه وتحريره وتخصيصه بنفسك ، وقوله : « أمسك عليك زوجك واتق الله » كناية عن الكف عن تطليقها ، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها .

وقوله : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » أي مظهره « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ذيل الآيات أعني قوله : « الذين يلبسون رسالات الله ولا يخشون أحداً إلا الله » دليل على أن خشية النبي ﷺ للناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استعماراً منه أنه لو أظهره عابه الناس وطمعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثراً سيئاً في إيمان العامة ، وهذا الخوف - كما ترى - ليس خوفاً مذموماً بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه .

فقوله : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله وهي خشية عن طريق الناس وهداية إلى نوع آخر من خشية تعالى وأنه كان من الحرى أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه وهذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبناه

ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأدعياء وهو ﷺ كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى : « يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله بمصمك من الناس » الآية .

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » مسوق لانتصاره وتأييد أمره قبال طعن الطاعنين من في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا يرمع الكاذبين » التوبة : ٣ . ومن الدليل على أنه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله بعد : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ﷺ واختياره ثم قوله : « وكان أمر الله مفعولاً » .

فقوله : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها » متفرع على ما تقدم من قوله : وتغفي في نفسك ما الله مبديه وقضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتع ، وقوله : « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم لما قضوا منهن وطراً » تعليل للتزويج ومصلحة للحكم ، وقوله : « وكان أمر الله مفعولاً » مشير إلى تحقق الوقوع وتأكيده للحكم . ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي ﷺ يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها وحبه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين واعتدروا عنه بأنها حالة جبلية ، يكاد يسلم منها البشر ، فإن فيه أولاً : منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية ، وثانياً : أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانها وإخفائه في نفسه فلا يجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبيب بهن .

قوله تعالى : « ما كانت على النبي من حرج فيما فرض الله له » الخ ، الفرض هو التعمين والإسهام يقال : فرض له كذا أي عينه له وأسهمه به ، وقيل : هو في المقام بمعنى الإباحة والتجويز ، والحرج الكلفة والضيق ، والمراد بنفي الحرج نفي سببه وهو المنع عما فرض له .

والمعنى : ما كان على النبي من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك .

وقوله : « سنة الله في الذين خلوا من قبل » اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولاً مطلقاً والتقدير سن الله ذلك سنة ، والمراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء والرسل الماضون بقريظة قوله بعد : « الذين يبلغون رسالات الله » الخ .

وقوله : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » أي يقدر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله ويناسبها ، والأنبياء لم يمنعوا مما قدره الله وأباحه لغيرهم حتى يمنح النبي ﷺ من بعض ما قدر وأبج .

قوله تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » الخ ، الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله : « الذين خلوا من قبل » .

والخشية هي تأثر خاص للقلب عن المكروه وربما ينسب إلى السبب الذي يتوقع منه المكروه ، يقال : خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلاناً أن يفعل بي كذا ، والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم إلا الله .

وهذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملاً سواء كان معه تأثر قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « ففررت منكم لما خفتكم » الشعراء : ٢١ ، وقوله في النبي ﷺ : « وإما تخافن من قوم خيانة » الأنفال : ٥٨ ، وهذا هو الأصل في معنى الخوف والخشية وربما استعملا كالمترادفين .

وبما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وإن كان سياق قوله : « يبلغون رسالات الله ويخشونه » الخ ، يلوّح إلى أن المنفي هو الخشية في تبليغ الرسالة . على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم .

وقوله : « وكفى بالله حسيباً » أي محاسباً يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يخشى ولا يخشى غيره .

قوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الخ ، لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي ﷺ بأنه تزوج زوج ابنة ومحصل الدفع أنه ليس أباً زيدا ولا أباً أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون

تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجا بزواج ابنه فالخطاب في قوله : « من رجالكم » للناس الموجودين في زمن نزول الآية ، والمراد بالرجال ما يقابل النساء والولدان ونفي الابوة نفي تكويني لا تشريعي ولا تتضمن الجملة شيئاً من التشريع .

والمعنى : ليس محمد ﷺ أباً أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجاً منه بزواج ابنه وزيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطبيقه ليس تزوجاً بزواج الابن حقيقة وأما تبيينه زيداً فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوة والبنوة وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

وأما القاسم والطيب والطاهر^(١) وإبراهيم فإنهم أبناءؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالاً حتى ينتقض الآية وكذا الحسن والحسين وهما ابنا رسول الله فإن النبي ﷺ قبض قبل أن يبلغا حد الرجال .

ومما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفي أبوته ﷺ للقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذا للحسين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية .

وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ﷺ فلا نبي بعده .

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب ، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة .

ومن هنا يظهر أن كونه ﷺ خاتم النبيين يستلزم كونه خاتماً للرسل . وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه ﷺ وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه .

وقوله : « وكان الله بكل شيء عليمًا » أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه .

(١) هذا على ما هو المعروف وقال بعضهم : ان الطيب والطاهر لقبان للقاسم .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله: وما كان يؤمن ولا مؤمنة، الآية كلها.

أقول: وفي معناها روايات أخر.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجهها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: والروايتان أشبه بالتطبيق منها بسبب النزول.

وفي العميون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء:

قال: وأما محمد ﷺ وقول الله عز وجل: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» فإن الله عز وجل عرف نبيه ﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين وأحد من سمى له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى ﷺ اسمها في نفسه ولم يده لكبلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في امرأة في بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين وخشي قول المنافقين.

قال الله عز وجل: «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» يعني في نفسك الحديث.

أقول: وروى ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

وفي الجمع في قوله تعالى: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» قيل: إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال له: أريد أن أطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك، فقال

سبعانه : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟
وروي ذلك عن علي بن الحسين عليهما السلام .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبغاري والترمذي وابن المنذر
والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قاك : جاء زيد بن حارثة يشكو
زينب الى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول : اتق الله وامسك عليك
زوجك فنزلت : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » .

قال أنس : فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكم هذه الآية ، فتزوجها
رسول الله ﷺ الحديث .

أقول : والروايات كثيرة في المقام وإن كان كثير منها لا يخلو من شيء وفي
الروايات : ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبيح شاة
وأطعم الناس الخبز واللحم ، وفي الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبي بثلاث
أن جدها وجدّ النبي ﷺ واحد فإنها كانت بنت أميمة بنت عبد المطلب عمه النبي
ﷺ وأن الذي زوجها منه هو الله سبحانه وأن السفير جبريل .

وفي الجمع في قوله تعالى : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » : وصح الحديث
عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً
فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها ونظر إليها فقال : ما أحسنها إلا
موضع هذه اللبنة . قال ﷺ : فإنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء ، أورده البغاري
ومسلم في صحيحهما .

أقول : وروي هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن
غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأباري في المصاحف عن أبي عبد الرحمن السلمي
قال : كنت أقرئ الحسن والحسين فرأيت علي بن أبي طالب وأنا أقرئها فقال لي :
أقرئها وخاتم النبيين بفتح التاء .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا — ٤١ . وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا — ٤٢ . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا — ٤٣ . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ
سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا — ٤٤ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا — ٤٥ . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا
مُنِيرًا — ٤٦ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ
وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَاؤُهُمْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا — ٤٨ .

(بيان)

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر والتسبيح وتبشروهم وتعددهم الوعد الجميل وتخطاب
النبي ﷺ بصفاته الكريمة وتأمره أن يبشر المؤمنين ولا يطيع الكافرين والمنافقين،
ويمكن أن يكون اللقبيلان مختلفين في النزول زماناً .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » الذكر ما يقابل
النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكور وأما التلطف بما يدل عليه من أسمائه وصفاته
فهو بعض مصاديق الذكر .

قوله تعالى : « وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر
لا يتوقف على اللفظ وإن كان لللفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح .
والبكرة أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكرة والأصيل

لما فيها من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معاً كناية عن الدوام كالليل والنهار في قوله: « يسبحون له بالليل والنهار » حمّ السجدة : ٣٨ .

قوله تعالى : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب اليه ولذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي ترتب عليها سعادة العقبى والفلاح المؤبد ولذلك علّل تصلبته عليهم بقوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً » .

وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال: « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، وقال : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ وتصلبته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً صلى عليهم كثيراً وغشيم بالنور وأبعدهم من الظلمات .

ومن هنا يظهر أن قوله: « هو الذي يصلي عليكم » الخ، في مقام التعليل لقوله: « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » وتفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيراً ذكركم برحمته كثيراً وبالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر .

وقوله : « وكان بالمؤمنين رحيماً » وضع الظاهر موضع المضمّر ، أعني قوله : « بالمؤمنين » ولم يقل : وكان بكم رحيماً ، ليدل به على سبب الرحمة وهو وصف الإيمان . قوله تعالى : « تحتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً » ظاهر السياق أن « تحتهم » مصدر مضاف إلى المفعول أي إنهم يحيتون - بالنساء للمفعول - يوم يلقون ربه من عند ربه ومن ملائكته بالسلام أي إنهم يوم اللقاء في أمن وسلام لا يصيبهم مكروه ولا يمسهم عذاب .

وقوله : « وأعدّ لهم أجراً كريماً » أي وهباً الله لهم ثواباً جزيلاً .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » شهادته ﷺ

على الأعمال أن يتحملها في هذه النشأة ويؤديها يوم القيامة ، وقد تقدم في قوله : « ولتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١١٢ ، وغيره من آيات الشهادة أنه ﷺ شهيد الشهداء .

وكونه مبشراً ونذيراً تبشيره المؤمنين المطيعين لله ورسوله بثواب الله والجنة وإنذاره الكافرين والمعاصين بعذاب الله والنار .

قوله تعالى : « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » دعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده ، ولازمه الإيمان بدين الله وتقيد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة .

وكونه ﷺ سراجاً منيراً هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الإستعارة ، وقول بعضهم : إن المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب .

قوله تعالى : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » ، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق بمن يأخذه وقد وصف الله عطاءه فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ ، وقال : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، فبين أنه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة .

قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم تركل على الله » الخ ، تقدم معنى طاعة الكافرين والمنافقين في أول السورة .

وقوله : « ودع أذاهم » أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه وعدم الإشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله : « وتركل على الله » أي لا تستقل بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلاً في ذلك وكفى بالله وكيلاً .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من شيء إلا

وله حد ينتهي اليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي اليه فرض الله عز وجل الفرائض فمن أدّاهن فهو حدهن وشهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج فمن حج فهو حده إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي اليه ثم تلى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ، فقال : لم يجعل الله له حداً ينتهي اليه .

قال : وكان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لساناً لازقاً بحنكته يقول : لا إله إلا الله .

وكان يجههنا فبأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس وبأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر ، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه يكثر بركته ويحضره الملائكة ويحجروه الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله يقلّ بركته ويحجروه الملائكة ويحضره الشياطين .

وقال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليكم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلهم ويقتلوكم ؟ فقالوا : بلى . قال : ذكر الله عز وجل كثيراً .

ثم قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : من خير أهل المسجد ؟ فقال : أكثرهم لله ذكراً .

وقال رسول الله ﷺ : من أعطي لساناً ذا كراً فلقد أعطي خيراً الدنيا والآخرة .

وقال في قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » قال : لا تستكثر ما عملت من خير الله .

وفيه بإسناده عن أبي المعز رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيراً إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السرّ فقال الله عز وجل : « براؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

وفي الحاصل عن زيد الشحام قال : قال أمّ عبد الله عليها السلام : ما ابتلي المؤمن

بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يجرمها. قيل: وما هي؟ قال: المواسة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيراً. أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه ولكن ذكر الله عندما أحل له وذكر الله عندما حرم عليه.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً. قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويحتضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه.

وفي العلل بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن حده الحسن بن علي بن الحسين: قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأي شيء سميت عمداً وأحمد وأبا القاسم وبشيراً ونذيراً وداعياً؟ فقال ﷺ: أما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي عز وجل، وأما النذير فإني أنذر بالناس من عصاني، وأما البشير فإني أبشر بالجنة من أطاعني. الحديث.

وفي تفسير القمي في قوله: يا أيها النبي إنا أرسلناك - إلى قوله - ودع أدام وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فُتَعَوَّهِنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا - ٤٩ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِيَّاتِ آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِيَّاتِ هَاجِرُونَ مَعَكَ وَأَمْرًاؤَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ
 وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا - ٥٠ . تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ
 أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ آغِيثَهُنَّ وَلَا
 يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
 عَلِيمًا حَلِيمًا - ٥١ . لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ
 مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا - ٥٢ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
 النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
 فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ
 يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ
 مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا
 كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
 أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا - ٥٣ . إِنْ تَبَدُّوا شَيْنًا أَوْ تَخَفُوهُ
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا - ٥٤ . لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ
 وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا
 نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ شَهِدًا - ٥٥ . إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا - ٥٦ . إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا - ٥٧ .
 وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا
 بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا - ٥٨ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ
 الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَسَلَى
 يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا - ٥٩ . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ
 فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا - ٦٠ . مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا
 قَتِيلًا - ٦١ . سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
 تَبْدِيلًا - ٦٢ .

(بيان)

تتضمن الآيات أحكاماً متفرقة بعضها خاصة بالنبي ﷺ وأزواجه وبعضها عامة .
 قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن
 تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتموهن وسررهن سراهاً حيلة ، المراد
 بنكاحهن المقدم عليهن بالنكاح ، وبالمس الدخول ، وبالتمتيع إعطاؤهن شيئاً من المال
 يناسب شأنهن وحالهن والتسريح بالجميل لإطلاقهن من غير خصومة وخشونة .
 والمعنى : إذا طلقتم النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب

تتبعن بشيء من المال والسراح الجميل .

والآية مطلقة تشمل ما إذا فرهن من فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيدها قوله :
« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم » البقرة :
٢٣٧ ، وتبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » إلى آخر الآية ، يذكر سبحانه لنبيه ﷺ بالإحلال سبعة أصناف من النساء : الصنف الأول ما في قوله : « أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » والمراد بالاجور المهور ، والثاني ما في قوله : « وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك » أي من يملكه من الإمام الراجعة اليه من الغنائم والأنفال ، وتقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله : « اللاتي آتيت أجورهن » للتوضيح لا للاحتراز .

والثالث والرابع ما في قوله : « وبنات عمك وبنات عماتك » قيل : يعني نساء قريش ، والخامس والسادس ما في قوله : « وبنات خالك وبنات خالاتك » قيل : يعني نساء بني زهرة ، وقوله : « اللاتي هاجرن معك » قال في الجمع : هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل .

والسابع ما في قوله : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير مصداق ومهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها ، وقوله : « خالصة لك من دون المؤمنين » إيدان بأن هذا الحكم - أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس - من خصائصه لا يجري في المؤمنين ، وقوله بعده : « قد علنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم » تقرير لحكم الاختصاص .

وقوله : « لكيلا يكون عليك حرج » تمليل نقوله في صدر الآية : « إنا أحلنا لك » أو لما في ذهابها من حكم الاختصاص والأول أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة .
قوله تعالى : « ترجي من تشاء منهن وتؤي اليك من تشاء » الخ ، الإرجاء التأخير والتبديد ، وهو كناية عن الرد ، والإيواء : الإسكان في المكان وهو كناية عن القبول والضم اليه .

والسياق يدل على أن المراد به أنه ﷺ على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو رده .

وقوله : « ومن ابتغيت من عزلت فلا جناح عليك » ، الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لوم أي يجوز لك أن تضم اليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد .

ويمكن أن يكون إشارة إلى أن له ﷺ أن يقسم بين نسائه وأن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن ويقدم من يشاء ويمزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده : « ومن ابتغيت من عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى - أي أقرب - أن تقر أعينهن - أي يسرن - ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم » وذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له ورجاء المتأخرة أن تقدم بعد .

وقوله : « إن الله كان عليماً حليماً » أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة . وفي الآية أقوال مختلفة أخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما سيجيء .

قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعده » ولا يحل لك النساء من بعده ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، الخ ، ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له ﷺ إلا من خيبرهن فاخترن الله ونفي جواز التبديل بهن يؤيد ذلك .

لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله : « إنا أحلنا لك » الخ ، كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت .

وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالآية محرّمات النساء المعدودة في قوله : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » الآية النساء : ٢٣ .

فقوله : « لا يحل لك النساء من بعد » أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عدتهن في قولنا : « إنا أحلنا لك » على المعنى الثاني أو من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث .

وقوله : « ولا أن تبدل بهن من أزواج » أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها

من غيرهن، وقوله : « إلا ما ملكت يمينك » يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية « لا يحل لك النساء » .

وقوله : « وكان الله على كل شيء رقيباً » معناه ضاهر وفيه تحذير عن المخالفة .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم - إلى قوله - من الحق » بيان لأدب الدخول في بيوت النبي ﷺ ، وقوله : « إلا أن يؤذن لكم » استثناء من النهي ، وقوله : « إلى طعام » متعلق بالإذن ، وقوله : « غير ناظرين إناه » أي غير منتظرين لورود إناه الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام وبيئته قوله : « ولكن إذا دعيت فادخلوا وإذا طعمتم - أي أكلتم - فانتشروا » ، وقوله : « ولا مستأنسين لحديث » عطف على قوله : « غير ناظرين إناه » وهو حال بعدد حال ، أي غير ما كئين في حال انتظار الإناه قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام .

وقوله : « إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم » تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم الخروج وقوله : « والله لا يستحيي من الحق » أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تأذيه والتأديب بالأدب اللائق .

قوله تعالى : « وإذا سألتموهن متاعاً فأسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » ، ضمير « هن » لأزواج النبي ﷺ وسؤالهن متاعاً كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مست الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبي ﷺ فكلموهن من وراء حجاب ، وقوله : « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » بيان لمصلحة الحكم .

قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » النخ ، أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم في نسائه وفي غير ذلك وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيماً ، وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي .

قوله تعالى : « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً » معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي ﷺ أو يذكر نكاح أزواجه من بعدد .

قوله تعالى : « لا جناح عليهن في آباتهن » إلى آخر الآية ضمير « عليهن » لنساء النبي ﷺ ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم ، قيل : ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهن لأبنائهم .

واستثنى أيضاً نساء من وإضافة النساء إلى ضميرهن يلوّح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مرّ في قوله تعالى : « أو نسائهن » النور : ٣١ ، واستثنى أيضاً ما ملكت أيمانهن من العبيد والإماء .

وقوله : « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً » فيه تأكيد الحكم وخاصة من جهة الالتفات من القيبة إلى الخطاب في « اتقين الله » .

قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً لم يقيد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتركية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة .

وفي ذكر صلته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن في صلاة المؤمنين له اتباعاً لله سبحانه وملائكته وتأكيداً للنهي الآتي .

وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله .

قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً » من المعلوم أن الله سبحانه منزّه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان فذكره مع الرسول وتشريكه في إيدائه تشريف للرسول وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضاً بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه .

وقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان ، ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاءً لعمه فيرجع إلى طبع القلوب كما قال : « لئلاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » المائدة : ١٣ ، وقال : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ، النساء : ٤٦ ، وقال : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » سورة محمد : ٢٣ .

وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها وقد قال تعالى : « ولا إنهم عن ربهم يومئذ مهجورون » المطففين : ١٥ .

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم - أي في الآخرة - عذاباً مهيناً ووصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله فقولوا في الآخرة بعذاب يهينهم . قوله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذائهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحد والتعزير لا إثم فيه .

وأما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعده سبحانه احتمالاً للبهتان والإثم المبين ، والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به ، ووجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذي إنما يؤذيه لسبب عنده يعده جرماً له يقول : لم قال كذا ؟ لم فعل كذا ؟ وليس يجرم فيمته عند الإيذاء بنسبة الجرم اليه مواجهة وليس يجرم . وكونه إثماً مبيناً لأن الافتراء والبهتان مما يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجة إلى ورود النهي عنها شرعاً .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » الخ ، الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتتل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الحمار الذي تغطي به رأسها ووجهها .

وقوله : « يدنين عليهن من جلابيبهن » أي يتسترن بهن فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين .

وقوله : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن

يعرفن أنهم أهل السر والصلاح فلا يؤذبن أي لا يؤذبن أهل الفسق بالتعرض لهم .
وقيل : المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهم مسلمات حرائر فلا يتعرض لهم بحسبان
أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن والأول أقرب .

قوله تعالى : « ولئن لم ينهه المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة
لنفرينتك بهم » الخ ، الانتهاه عن الشيء الامتناع والكف عنه ، والإرجاف إشاعة
الباطل للاعتماد به وإلقاء الاضطراب بسببه ، والإغراء بالفعل التحريض عليه .

والمعنى : أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد
والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنعرضنك
عليهم ثم لا يحاورونك في المدينة بسبب نفيمم عنها إلا زماناً قليلاً وهو ما بين صدور
الأمر وفعلية إجرائه .

قوله تعالى : « ملمونين أينما تقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » الثقف إدراك الشيء
والظفر به ، والجملة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حال كونهم ملمونين أينما
وجدوا أخذوا وبلغ في قتلهم فعمتهم القتل .

قوله تعالى : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » السنة
هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبيعتها غالباً أو دائماً .

يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين ومن يحذو حذوهم من النفي
والقتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلمنا بالغ قوم في الإفساد وإلقاء
الاضطراب بين الناس وتمادوا وطفوا في ذلك أخذناهم كذلك ولن تجد لسنة الله تبديلاً
فتجري فيكم كما جرت في الامم من قبلكم .

(بحث روائي)

في الفقيه روى عمرو بن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل :
« ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فإلكن عليهن من عدة تمتدونها فتسوهن
ومرتحوهن سراخاً جميلاً » قال : متسوهن أي أجملوهن بما قدرتم عليه من معروف

فإنهن يرجعن بكأبة ووحشة وهم عظيم وشماتة من أعدائهن فإن الله كريم يستحيي ويحب أهل الحياء إن أكرمكم أشدكم إكراماً لحلائلهم .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها . قال : عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً وإن لم يكن فرض لها فليمتها على نحو ما يمتع به مثلها من النساء .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة وهي مبنية على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدم في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال : جاء رجل إلى علي بن الحسين فسأله عن رجل قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق قال : ليس بشيء بده الله بالنكاح قبل الطلاق فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » .

أقول : ورواه في الجمع عن حبيب بن ثابت عنه عليه السلام .

وفيه أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن المسور بن مخرمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك .

أقول : وروى مثله عن جابر وعائشة عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام وبإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك » كم أحل له من النساء ؟ قال : ما شاء من شيء .

وفيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » ؟ فقال : لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينكح ما شاء من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته وأزواجه اللاتي هاجرن معه .

وأحل له أن ينكح من عرض المؤمنين بغير مهر وهي الهبة ولا تحل الهبة إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأما لغير رسول الله فلا يصلح نكاح إلا بهر وذلك معنى قوله تعالى : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن أبي شعبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين في قوله : « وامرأة مؤمنة » هي أم شريك الأردية التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : وروي أنها خولة بنت الحكيم وأنها ليلى بنت الحطيم وأنها ميمونة ،
والظاهر أن الواهة نفسها عدة من النساء .

وفي الكافي مسنداً عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاءت امرأة من
الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله إن المرأة لا تحضب الزوج وأنا
امرأة أيتّم لا زوج لي منذ دهر ولا ولد فهل لك من حاجة ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي
لك إن قبلتني . فقال لها رسول الله خيراً ودعا لها .

ثم قال : يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً فقد نصرني رجالكم
ورغبت في نساؤكم . فقالت لها حفصة : ما أقل حياءك وأجراك وأنتك للرجال .
فقال رسول الله : كفي عنها يا حفصة فإنها خير منك رغبت في زسول الله ولتها وعبتها .
ثم قال للمرأة : انصري في رحك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في وتمرضك
لمحبتي وسروري وسبأتك أمري إن شاء الله ، فأنزل الله عز وجل : « وامرأة مؤمنة
إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » قال :
فأحل الله عز وجل هبة المرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وآله ولا يحل ذلك لغيره .

وفي الجمع وقيل : إنها لما وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله قالت عائشة : ما بال النساء
يبدلن أنفسهن بلا مهر ؟ فنزلت الآية ، فقالت عائشة : ما أرى الله إلا يسارع في هواك ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فإنك إن أطعت الله سارع في هواك .

وفي الجمع في قوله تعالى : « ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء » قال
أبو جعفر وأبو عبد الله عليها السلام : من أرجى لم ينكح ومن آوى فقد نكح .
وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل :
« لا يحل لك النساء من بعد » فقال : إنما عنى به لا يحل لك النساء التي حرم الله عليك
في هذه الآية « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ،
إلى آخرها .

ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحل لكم ما لم يحل له لأن أحدكم يستبدل كما
أراد ولكن الأمر ليس كما يقولون إن الله عز وجل أحل لنبيه صلى الله عليه وآله أن ينكح من
النساء ما أراد إلا ما حرم في هذه الآية في سورة النساء .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ابن زيد عن الحسن في قوله: «ولا أن تبدل بهن من أزواج»، قال: قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن.

قال علي فأخبرت علي بن الحسين فقال: لو شاء تزوج غيرهن. ولفظ عبد بن حميد فقال: بل كان له أيضاً أن يتزوج غيرهن.

وفي تفسير القمي: وأما قوله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم»، فإنه لما أن تزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جعش وكان يجبها فأولم ودعا أصحابه فكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدثوا عند رسول الله ﷺ، وكان يجب أن يخلو مع زينب فأنزل الله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم»، وذلك أنهم كانوا يدخلون بلا إذن فقال عز وجل: «إلا أن يؤذن لكم» - إلى قوله - من وراء حجاب.

أقول: وروي تفصيل القصة عن أنس بطرق مختلفة.

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال: نزل حجاب رسول الله على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

أقول: ورواها أيضاً ابن سعد عن أنس وفيه أن السنة كانت مبيتى رسول الله ﷺ بزَيْنَب.

وفيه في قوله تعالى: «وما كان لكم أن تؤذوا» الآية، أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحببنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت الآية.

أقول: وقد وردت بذلك عدة من الروايات وفي بعضها أنه كان يريد عائشة وأم سلمة.

وفي ثواب الأعمال عن أبي المعز عن أبي الحسن عليه السلام في حديث قال: قلت: ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن؟ قال: صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له.

وفي الحصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعانة قال: صلوا على محمد

وآل محمد فإن الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد ودعاءكم وحفظكم إياه إذا قرأتم « إن الله وملائكته يصلون على النبي » فصلوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه عن كعب ابن عجرة قال : قال رجل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أقول: وقد أورد ثمانى عشرة حديثاً غير هذه الرواية تدل على تشريك آل النبي معه في الصلاة روتها أصحاب السنن والجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس وطلحة وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وأبو مسعود الأنصارى وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وعلي بن الحسين وأما روايات الشيعة فهي فوق حد الإحصاء .

وفيه أخرج أحمد والترمذي عن الحسن بن علي أن رسول الله ﷺ قال : البغيل من ذكرت عنده فلم يصل على .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » فإنه كان سبب زوالها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلين خلف رسول الله ﷺ فإذا كان الليل وخرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة يقعد الشباب هن في طريقهن فيؤذونهن ويتعرضون لهن فأزل الله : « يا أيها النبي » الآية .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كان على رؤسهن الثياب من أكسية سود يلبسها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون » نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله ﷺ إذا خرج في بعض غزواته يقولون : قتل وأسر فيغتم المسلمون لذلك ويشكون إلى رسول الله ﷺ فأزل الله عز وجل في ذلك « لئن لم ينته - إلى قوله - إلا قليلا » أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلا قليلا .

« ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ملعونين » فوجبت عليهم اللعنة بعد اللعنة بقول الله .

* * *

يَسْتَلْكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا — ٦٣ . إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا — ٦٤ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا — ٦٥ .
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
الرَّسُولَ — ٦٦ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا
السَّبِيلَ — ٦٧ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا — ٦٨ .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ لِمَا
قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا — ٦٩ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا — ٧٠ . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا — ٧١ . إِنَّا
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا — ٧٢ . لِيُعَذِّبَ
اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا — ٧٣ .

(بيات)

آيات تذكر شأن الساعة وبعض ما يجري على الكفار من عذابها وتأمر المؤمنين بالقول السديد وتمنعهم عليه وعمداً جميلاً ثم تختتم السورة بذكر الأمانة .

قوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل إنما عفاها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة وإنما كانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها وأنها قريبة أو بعيدة كما يوهي إليه التعبير عنها بالساعة فاهم أن يحبسهم بقصر العلم بها في الله سبحانه وعلى ذلك جرت الخيال كلما ذكرت في القرآن

وقوله : « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » زيادة في الإبهام وليطعوا أن النبي ﷺ مثل غيره في عدم العلم بها وليس من السر الذي أسرته اليه وستره من الناس.

قوله تعالى : « إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً » لعن الكفار إبعادهم من الرحمة ، والإعداد التهيئة ، والسعير النار التي أشعلت فالتهمت ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « خائفين فيها أبداً لا يحسون ولئلاً لا نصبراً » الفرق بين الوني والنصير أن الوني يلي بنفسه تمام الأمر والوئي عليه بهزل ، والنصير يعين المنصور على بعض الأمر وهو إتمامه فالوئي يتولى الأمر كله والنصير يتصدى بعضه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أضعنا الله وأطعنا الرسول » تقلب وجوههم في النار تحوفاً لحال بعد حال فتصفر وتسود وتكون كالحة أو انتفاهاً من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مس العذاب كما يفعل باللحم المشوي .

وقولهم : « يا ليتنا أضعنا الله وأطعنا الرسول » كلام منهم على وجه التعسر والتمني .

قوله تعالى : « وقالوا ربنا إنا أضعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً » السادة جمع سيد وهو - على ما في الجمع - المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم وهو الجمع الأكثر ، والكبراء جمع كبير ولعل المراد به الكبير سناً فالعامة تطيع وتقلد أحد رحلين إما سيد القوم وإما أسنهم .

قوله تعالى : « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » الضعفان المثلان

وإنما سألوهم ضعفي العذاب لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ولذلك أيضاً سألوهم لهم اللعن الكبير .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء وليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منهيًا عنه بل قوله : « فبرأه الله » يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء المھوج في رفعه إلى التبرئة والتنزيه .

ولعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث به قالوا : ايسر لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم وسيوفيت .

وأوجه ما قيل في إيذائهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه إشارة إلى قصة زيد وزينب ، وإن يكن كذلك فمن إيذائه صلى الله عليه وسلم ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه .

وقوله : « وكان عند الله وجيهاً » أي ذحاه رمزوة واجتبا مصداقاً لشيء على التبرئة إجمالاً تعلق تبرئته تعالى له وللآية وما بعدها نوع اتصال بالآية السابقة عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » السديد من السداد وهو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مضابطة لواقع وعدم كونه لغواً أو ذا فائدة غير مشروعة كالنسيمة وغير ذلك فعلى المؤمن أن يحتار صدق ما يتكلم به وأن لا يكون لغواً أو يفسده إصلاح .

قوله تعالى : « يصلح نكم أعمالكم ويفقر لكم دونكم » يصلح الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ، رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول ولغو الحديث والكلام الذي يترتب عليه فساد ، وبرسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل وعند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتأ في من ذلك وكفى بالندم توبة .

ويحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئاً من صفات الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء : ٣١ ، فللزما القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بإذن الله .

وقوله : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله .

وبذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة ، من واجبات ومحرمات والآيات التاليتان كلمتم لمعنى هذه الآية .

قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً - إلى قوله - غفوراً رحيماً الأمانة - أياً ما كانت - شيء يودع عند الغير ليحفظ عليه ثم يرده إلى من أودعه ، فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته واستقامته ثم يرده إليه سبحانه كما أودعه .

ويستفاد من قوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والخ ، أنه أمر بترتب على حملة النفاق والشرك والإيمان ، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم إلى منافق ومشرك ومؤمن .

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتبليس به وعدم التبليس به النفاق والشرك والإيمان .

فهل هو الاعتقاد الحق والشهادة على توحده تعالى ، أو مجموع الاعتقاد والعمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الفرض عن العمل به ، أو التبليس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التبليس بواحد من هذه الأمور .

وليست هي الأول أعني التوحيد فإن السموات والأرض وغيرهما من شيء توحده تعالى وتستبح بحمده ، وقد قال تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ ، والآية تصرح بإبائها عنه .

وليست هي الثاني أعني الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الانسان كأننا من كان من مؤمن وغيره له ومن البين أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله ولا علم له به ، وبهذا يظهر أنها ليست بالثالث وهو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلاً .
وليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات والأرض وغيرها ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به .

وليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق والعلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق والعلم بالتكاليف الدينية نفاق ولا شرك ولا إيمان ولا يستعقب سعادة ولا شقاء وإنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق والتلبس بالعمل .

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح وسلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره وهو الولاية الإلهية .

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية وبمرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها والمراد بحملها والإياء عنه وجود استعدادها وصلاحيه التلبس بها وعدمه، وهذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة والشدة والقوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها وهو المراد بإبائهن عن حملها وإشفاقهن منها .

لكن الانسان الظلوم الجهول لم ياب ولم يشفق من ثقلها وعظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل وعظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة وعدمه بالحيانة إلى منافق ومشرك ومؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلا مؤمن مصيب .

فان قلت : ما بال الحكيم العليم حمل على هذا الخلق الظلوم الجهول حملاً لا يتحمه لثقله وعظم خطره السماوات والأرض والجبال على عظمتها وشدتها وقوتها وهو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله وإنما حمله على قبولها ظلمه وجهله وأجرأه عليه غروره وغفلته عن عواقب الامور فما تحميلة الأمانة باستدعائه لها ظلماً وجهلاً إلا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها العقلاء ويشفقون منها يستدعيها الجنون لفساد عقله وعدم استقامة فكره .

قلت : الظلم والجهل في الإنسان وإن كانا بوجه ملك اللوم والعتاب فهما بعينها مصحح حبه لأمانة والولاية الإلهية فإن الظلم والجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الانتساب بالعمل والنعمة فأجبان مثلاً لا تتصف بالنعم والجهل فلا يقدل : جبين طاعة أو جاحش لعمه صفة تتصفه بالعدل والنعمة وكذلك السموات والأرض لا يحسن عليها الظلم وأنجل لعدم صفة اتصافها بالعدل والنعمة بخلاف الإنسان .

والأمانة المذكورة في الآية وهي الولاية إلهية وكمال صفة العبودية إنما تتحصل بالعلم بالله والعمل الصالح الذي هو العدل وإنما يتصف بهذين الوصفين أعني العلم والعدل الموضوع القابل للجهل والظلم فكون الإنسان في حد نفسه وبحسب طبعه ظنوماً جهولاً هو المصحح لحل الأمانة الإلهية فافهم ذلك .

فمعنى الآيتين^(١) يناظر بوجه معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، الذين : ٦ .

فقوله تعالى : « إننا عرضنا الأمانة » أي الولاية الإلهية والإستكمال بمقتضى الدين الحق علماً وعملاً وعرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء .

وقوله : « على السموات والأرض وجمال » أي هذه المخلوقات العظيمة التي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ . وقوله : « فأبين أن نجعلها وأشفقن منها » أي هذه عن حملها وإشفاقها منها عند التمسك بصلاحية التمسك وتجديده عن قبولها ، وفي تعبير بعض علماء إلى أنها تسمية تشكك في شتم السموات والأرض والجبان .

وقوله : « وحملها الإنسان » أي اشتمل على صلاحيتها وانتهى للنسب بها على ضعفه وصغر حجمه ، إنه كان ظلوماً جهولاً أي ظاناً لنفسه جاهلاً بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والمهلك الدائم

وبمعنى أدق لكون الإنسان حالياً بحسب نفسه عن العدل والعمق قابلاً للنسب بما

(١) الآية الأولى تعادي ، الأولى والثانية تعادي الثانية والثالثة .

يفاض عليه من ذلك والارتقاء من حضيض الظلم والجهل إلى أوج العدل والعلم .
والظلم والجهول وصفان من الظلم والجهل معناها من كان من شأنه الظلم والجهل
نظير قولنا : فرس شمس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازي
أو معناها المبالغة في الظلم والجهل كما ذكر غيره ، والمعنى مستقيم كيفما كانا .

وقوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » اللام للغاية
أي كانت عاقبة هذا العمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات
وذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليل ما
يتظاهر بالحيانة لها ولعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في
الآية على المشركين والمشركات .

وقوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً » عطف
على « يعذب » أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، والتوبة من
الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولى
أمره وهو ولي المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل
الصالح لأنه غفور رحيم .

فإن قلت : ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف وهو الدين الحق وكون
العمل بمعنى الاستعداد والصلاحية والإباء هو ثنائه والعرض هو اعتبار القياس فيجري
فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية .

قلت . نعم لكن التكليف إنما هو مضروب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية
وتحقق صفة انعبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة والمطلوبة لنفسها .

والالفتات في قوله : « ليعذب الله » من التكلم إلى الغيبة والإتيان باسم الجلالة
للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله .

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات »
للاشعار بكمال العناية في حقهم والاهتمام بأمرهم .

ولهم في تفسير الأمانة المذكورة في الآية أقوال مختلفة :

فقيل : المراد بها التكاليف الموجبة طاعتها دخول الجنة ومعصيتها دخول النار
والمراد بعرضها على السماوات والأرض والجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها وإبائها

عن حملها وإشفاقهن منها عدم استعدادهن لها ، وحمل الإنسان لها استعداده ، والكلام جار مجرى التمثيل .

وقيل : المراد بها العقل الذي هو ملاك التكليف ومناطق الثواب والتعاقب .

وقيل : هي قول لا إله إلا الله .

وقيل : هي الأعضاء قائلين أمانة من الله يجب حفظها وعدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى ، وكذلك السمع واليد والرجل والفرج واللسان .

وقيل : المراد بها أمانات الناس والوفاء بالعهود .

وقيل : المراد بها معرفة الله بما فيها وهذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريبهما إلى ما قدمنا .

وكذلك اختلف في معنى عرض الأمانة عليها على أقوال :

منها : أن العرض بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالسماوات والأرض والجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة وبين لهم أن في خيانتها الإنم العظيم فأبوها وخافوا حملها وعرض على الإنسان فلم يمتنع .

ومنها : أنه بمعناه الحقيقي وذلك أن الله لما خلق هذا الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها ونارا لمن عصاني فيها فقلن: نحن مسعرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً ولا عقاباً ولما خلق آدم عرض عليه ذلك فاحتمله وكان ظلوماً لنفسه جهولاً بوخامة عاقبته .

ومنها : أن المراد بالعرض انمعارضة والمقابلة ، ومحصل الكلام أن قابلنا بهذه الأمانة السماوات والأرض والجبال فكانت هذه أرجح وأثقل منها .

ومنها أن الكلام جار مجرى الفرض والتقدير والمعنى: أنا لو قدرنا أن السماوات والأرض والجبال فهماً ، وعرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها وأشفقن منها لكن الإنسان تحملها .

وبالمراجعة إلى ما قدمناه يظهر ما في كل من هذه الأقوال من جهات الضعف والوهن فلا تغفل .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ولا يلعن الله مؤمناً قال الله عز وجل : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يحدون ولياً ولا نصيراً » .

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أن بني إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، وكان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب الى موضع لا يراه فيه أحد فكان يوماً يقتسل على شط نهر وقد وضع ثيابه على صخرة فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل اليه فعملوا أن ليس كما قالوا فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى » الآية .

وفي الجمع : واختلفوا فيما أودى به موسى على أقوال :

أحدها: أن موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون فقاتل بنو إسرائيل: أنت قتلته فأمر الله الملائكة فحملته حتى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قد مات وبرأه الله من ذلك عن علي وابن عباس .

وثانيها : أن موسى كان حياً ستيراً يقتسل وحده فقالوا: ما يستتر منا إلا لعب في جلده إما برص وإما أدرة فذهب مرة يقتسل فوضع ثوبه على حجر فمر الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل غريباً كأحسن الرجال خلقاً فبرأه الله مما قالوا . رواه أبو هريرة مرفوعاً .

أقول : وروى الرواية الأولى في الدر المنثور أيضاً عن ابن مسعود والثانية أيضاً عن أنس وابن عباس .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : ما جلس رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا التبر قط إلا تلى هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً » .

أقول : وروى ما يقرب منه أيضاً عن عائشة وأبي موسى الأشعري وعروة .

وفي نهج البلاغة : ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنها عرضت على السماوات المبنية والأرض المدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها ولو امتنع شيء بطون أو عرض أو قوة أو عز لامتنع ولكن أشفقن من العقوبة ، وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : هـ إنا عرضنا الأمانة ، الآية ، قال : هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : المراد بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ما كان هو أول فاتح لبابه من هذه الأمة وهو كون الإنسان ، بحيث يتولى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص الصورية له دون الولاية بمعنى المحبة أو بمعنى الإمامة وإن كان ظاهر بعض الروايات ذلك بنوع من الجري والانطباق .

(سورة سبأ مكية ، وهي أربع وخمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ — ١ .
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ — ٢ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ — ٣ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ — ٤ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٌ — ٥ . وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ — ٦ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ
إِذَا مَرَقْتُمْ كُلُّ مِرْقٍ إِنَّمَا لَكُمْ لَهْفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ — ٧ . أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ - ٨ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ تَخْفِيفِ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ - ٩ .

(بيان)

تتكلم السورة حول الاصول الثلاثة أعني الوجدانية والنبوة والبعث فتذكرها وتذكر ما لمنكرها من الاعتراض فيها والشبه التي ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة وتهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثم تعود اليه عودة بعد عودة إلى محتتمه .
وهي مكية بشهادة مقاصد آياتها على ذلك .

قوله تعالى : « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض » الخ ، المطلوب بيان البعث والجزاء بياناً لا يمتريه شك بالإشارة إلى الحجة التي ينقطع بها الخصم والأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكة تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالإعادة وجزاء ، وثانيها كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علماً لا يطرأ عليه عزوب وزوال حتى بعيد كل من أراد ويمجزبه على ما علم من أعماله خيراً أو شراً .

وقد أشير إلى أول الأمرين في الآية الأولى التي نحن فيها وإلى الثانية في الآية الثانية وبذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة والرابعة .

فقوله : « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض » ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء وأراد .

وقوله : « وله الحمد في الآخرة » تخصيص الحمد بالآخرة لما أتت الجملة الأولى تتضمن الحمد في الدنيا فإن النظام المشهود في السموات والأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ابراهيم : ٤٨ .

وقوله : « وهو الحكيم الخبير » ختم الآية بالإسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكته عقب الدنيا بالآخرة وإلا لفت الحلقة وبطلت ولم يتميز المحسن من المسيء كما قال : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا - إلى أن قال - أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالفاسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، ونجبرته يحشرهم ولا يفادر منهم أحداً ويحزي كل نفس بما كسبت .

والخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخص من العلم .

قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » اللوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكان العلم فالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك وفعله واختتام الآية بقوله : « وهو الرحيم الغفور » كأن فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة ومغفرة ستصيب قوماً بإيمانهم .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب » الخ ، يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكل شيء ولا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبي ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله : « قل بلى وربي لتأتينكم » أي الساعة .

ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء ومنها أبدان الأموات بعضها ببعض وتبدل صورها تبديلاً بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله : « عالم الغيب لا يعزب » أي لا يفوت « عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » .

وقوله : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » تعني لعلمه لكل شيء وفيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتاً في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل وإن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام وغيرها .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » اللام في « ليجزي » للتعليل وهو متملق بقوله : « لتأتينكم » وفي قوله : « لهم مغفرة ورزق كريم » نوع محاذاة لقوله السابق : « وهو الرحيم الغفور » .

وفي الآية بيان أحد السببين لتيام الساعة وهو أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها والسبب الاخير ما يشير اليه قوله : « والذين سوا في آياتنا معاجزين » الخ .

قوله تعالى : « والذين سوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » السعي الجهد في المشي والمماجزة المبالغة في الإعجاز وقيل : المسابقة والكلام مبني على الاستعارة بالكناية كأن الآيات مسافة يسرون فيها سيراً حثيثاً ليعجزوا الله ويسبقوه والرجز كالرجس القدر ولعل المراد به العمل السيئ فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذاباً أليماً عليهم أو سبباً لمذاهبهم ، وقيل : الرجز هو سيء العذاب .

وفي الآية تعرض للكفار الذين يصرون على إنكار البعث .

قوله تعالى : « ويرى الذين أتوا العلم انذني أنزل اليك من ربك هو الحق » الموصول الأول فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأول والحق مفعوله الثاني والمراد بالذين أتوا العلم العلماء بالله وآياته ، وبانذني أنزل اليه القرآن النازل اليه بالحق .

وجملة « ويرى » الخ ، استئناف متعرض لقوله السابق : « وقال الذين كفروا ، أو حال من فاعل كفروا ، والمعنى : أولئك يقولون : لا تأتينا الساعة وينكرونها جهلاً ، والعلماء بالله وآياته يرون أن هذا القرآن النازل اليك المنهجر بأن الساعة آتية هو الحق .

وقوله : « ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » معطوف على الحق أي ويرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يشئ على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجليل وهو الله سبحانه ، وفي التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله : « الذين سوا في آياتنا معاجزين » .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل

ممزق إنكم لفي خلق جديد ، كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرفون فيه النبي ﷺ بعضهم لبعض بالقول بالمعاد .

والتمزيق التقطيع والتفريق ، وكونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانياً بعد عدمهم ، وقوله : « إذا مزقتم » ظرف لقوله : « إنكم لفي خلق جديد » .

والمعنى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي ﷺ لإنذاره إياهم بالبعث والجزاء : هل ندلكم على رجل وإنزاد به النبي ﷺ ينسبكم ويخبركم أنكم تستقرون في خلق جديد ويتجدد لكم الوجود إذا فرقت أبدانكم كل التفريق وقطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء .

قوله تعالى : « أفترى على الله كذباً أم به جنة » الخ ، الاستهزاء للتعجب فإن القول ببعث الأجساد بعد فناءها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا لتلبس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلا فكيف يلبس فيه الأمر على عاقل ، وهذا ردودوا الأمر بين الافتراء والجنة في الاستهزاء والمعنى : « هو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدأه من غير فكر مستقيم .

وقوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » رد لقولهم وإضراب عن التردد الذي أتوا به مستهينين ، ومحصله أن ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون في عذاب سيظهر لهم وقد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا في ضلال بعيد لا يسهم مع ذلك أن يعقنوا الحق ويدعوا به .

ووضع الموصول موضع الضمير في قوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة » للدلالة على أن علة وقوعهم فيها وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة .

قوله تعالى : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء » الخ ، وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترأوا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله : « ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم ومن خلفهم فأبنا نظروا وجدوا سماء تظلمهم وأرضاً تقلبهم لا مفر لهم منها .

وقوله : « إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » أي إذ أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبرتان بتدبيرنا متقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فلهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل ؟

وقوله : « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » ، أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونها مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب ، راجع إلى ربه بالطاعة ، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الامور ولا يحرثون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربهم ورجوعاً إلى طاعته .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ
 الْحَدِيدَ - ١٠ . أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ - ١١ . وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرٌ وَّرَوَّاحَهَا شَهْرٌ
 وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن
 يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ - ١٢ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا
 يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا
 آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ - ١٣ . فَلَمَّا قَضَيْنَا
 عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا
 خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ

الْمُهَيَّبِينَ - ١٤ . لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
 كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ - ١٥ .
 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي
 أُكُلٍ خَطْبٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ - ١٦ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا
 كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ - ١٧ . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى
 الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْرًا فِيهَا لَيْلِي
 وَأَيَّامًا آمِنِينَ - ١٨ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
 صَبَّارٍ شَكُورٍ - ١٩ . وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
 فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - ٢٠ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
 مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 حَفِيظٌ - ٢١ .

(بيان)

تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود وسليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على
 داود بتسخير الجبال والطيور معه وتلين الحديد له ، وسخر لسليمان الريح غدوتها شهر
 ورواحها شهر وسخر الجن يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتماثيلٍ وغيرها وأمرها
 بالعمل الصالح شكراً وكانا عبدين شكورين .

ثم إلى قصة سبأ حيث أنعم عليهم في عن اليمن والشمال ليعيشوا فيها عيشاً

رغداً فكفروا بالنعمة وأعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم وبدل جنتهم جنتين دون ذلك وقد كان عمر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث وعزفهم كل ممزق، كل ذلك لكفرهم النعمة وإعراضهم عن الشكر ولا يجازي إلا الكفور .

وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث أن الله هو المدبّر لأمور عباده وهم مغمورون في أنواع نعمه وللنعم على المغم على الشكر على نعمته وعليه ان يميز بين الشاكر لنعمته والكافر بها وإذ لا يميز في هذه النشأة فهناك نشأة أخرى يتميز فيها الفريقان فالبعث لا مفر عنه .

قوله تعالى : « ولقد آتينا درة مننا فضلاً يا جبال أوبي معه والظير وألنآ له الحديد ، الفضل العظيمة والتأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر : « إننا سخرنآ الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والظير محشورة كل له أبواب ، ص : ١٩ . والظير معطوف على محل الجبال ومنه يظهر فساد قول بعضهم : أن الأوب بمعنى السبح وأن الجبال كانت تسبح معه حيثما سار .

وقوله : « يا جبال أوبي معه والظير » بيان للفضل الذي آتينا به الجبال الذي هو الخطاب الذي خاطبت به الجبال والظير فسخرت به موضع نفس التسخير الذي هو العظيمة وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والمعنى : سخرنآ الجبال له تؤوب معه والظير ، وهذا هو المتحصل من تسخير الجبال والظير له كما يشير إليه قوله : « إننا سخرنآ الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والظير محشورة كل له أبواب ، ص : ١٩ . وقوله : « وألنآ له الحديد » أي وجعلناه ليناً له على ما به من الصلابة .

قوله تعالى : « أن أعمل سبغات وقدر في السرد ، الخ » السبغات جمع سبغة وهي الدرع الواسعة ، والسرد نسج الدرع ، وتقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلته أي أعمل دروعاً واسعة واجعلها متناسبة الخلق ، وجملة « أن أعمل » الخ ، نوع تفسير لإلانة الحديد له .

وقوله : « واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير » معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل وعدة النعم فقيده معنى الأمر بالشكر كأنه قيل :

وقلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح .

قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، الخ ، أي وسخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح - وهو أول النهار إلى الظهر - مسير شهر ورواح تلك الريح - وهو من الظهر إلى آخر النهار - مسير شهر أي إنها تسير في يوم مسير شهرين .

وقوله : « وأسلنا له عين القطر » الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان والقطر النحاس أي وأذبتنا له انقطر فسالت كالعين الجارية .

قوله : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، أي وجمع من الجن - بدليل قوله بعد : « يعملون له » - يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له « ومن يزغ » أي ينحرف « عن أمرنا » ولم يطع سليمان « نذقه من عذاب السعير » ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة ، وفي لفظ الآية دلالة على أن انسخر له كان بعض الجن لا جميعهم .

قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » الخ ، المحاريب جمع محراب وهو مكان إقامة الصلاة والعبادة ، والتماثيل جمع تمثال وهي انصورة الجسمة من الشيء والجفان جمع جفنة وهي صحفة الطعام ، والجواني جمع جابية الخوض الذي يجسب أي يجمع فيه الماء ، والقدر جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام ، والراسيات الثابتات والمراد بكون القدر راسيات كونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها لعظمتها .

وقوله : « اعملوا آل داود شكراً ، خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن يعملوا ويعبدوا الله شكراً له ، وقوله : « وقليل من عبادي الشكور » أي الشاكر لله شكراً بعد شكر والجملة إما في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا المقام قليلون وهم الأرحديون من الناس ، وإما في مقام التعليل كأنه قيل : إنهم قليل فكثروا عدتهم .

قوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » المراد بدابة الأرض الأرضة على ما . ت به الروايات والمنسأة المصا وقوله :

« فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ، الخروار السقوط على الأرض .

ويستفاد من السياق أنه **يَعْبُدُونَ** لما قبض كان متكئاً على عصاه فبقي على تلك الحال قائماً متكئاً على عصاه زماناً لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عز وجل أرضه فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعملوا عند ذلك بموته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان - وهو من حين قبضه الى خروره - في العذاب المهين المذل لهم .

قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، الخ ، سبأ العرب العاربة باليمن سموا - كما قيل - باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقوله : « عن يمين وشمال ، أي عن يمين مسكنهم وشماله .

وقوله : « كلوا من رزق ربكم » أمر بالأكل من جنتين وهو كناية عن رزقهم منها ، ثم بالشكر له على نعمته ورزقه ، وقوله : « بلدة طيبة ورب غفور ، أي بلدة ملائمة صالحة للمقام ورب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم .

قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حط وأثل وشيء من سدر قليل ، العرم المسناة التي تحبس الماء ، وقيل : المطر الشديد وقيل غير ذلك ، والأكل بضمين كل ثمرة مأكولة ، والحط - على ما قيل - كل نبت أخذ طعماً من المرارة ، والأثل للطرفاء وقيل : شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له ، والسدر معروف ، والأثل وشيء معطوفان على « أكل ، لا على حط . والمعنى : فأعرضوا أي قوم سبأ عن الشكر الذي أمروا به فجازيناهم وأرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنتيهم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ثمرة مرة وذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر .

قوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ، « ذلك » إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل وتبديل الجنتين وعمله النصب مفعولاً ثانياً لجزيناهم والفرق بين الجزاء والمجازاة - كما قيل - أن المجازاة لا تستعمل إلا في الشر والجزاء أعم .

والمعنى : جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر - أو في مقابلة ذلك - ولا نجازي بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله .

قوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، الخ ، ضمير « بينهم » لسبأ والكلام مسوق لبيان تمة قصتهم المطلوب ذكرها وهو عطف على قوله : « كان لسبأ » والمراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية ، والمراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض .

وقوله : « وقدّرنا فيها السير » أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليها كالنسبة بين ما يليها وما يليه ، وقوله : « سبوا فيها ليالي وأياماً آمنين » على تقدير القول أي وقتنا : سبوا في هذه القرى علماً . أمن إن شئت ليالي وإن شئت أياماً ، والمراد قررتنا فيها الأمن يسرون فيها متى ما ساءوا من غير خوف وقلق .

قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الخ ، أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق وسهولة السير ورغد العيش فعملوا ذلك وسئموه وقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرماح ونقطع المفاوز والبوادي وهذا بغى منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى .

وبالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر ، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم وفرّق جمعهم وشتت شملهم .

فقوله : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » اقتراح ضمني لتخريب بلادهم ، وقوله : « وظلموا أنفسهم » أي بالمعاصي .

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » أي أزلنا أعيانهم وآثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا في وهم المتوهم وخيال التخيل وفرّقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن

مجتمعان إلا فرقنا بينها فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوة وشوكة حتى ضرب بهم المثل « تفرقوا أيادي سبأ » .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أي في هذا الذي ذكر من قصتهم آيات لكل من كثر صبره في جنب الله وكثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه وأن وراه يوماً يبعث فيه ويحزى بعمله .

قوله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه : « لاغوينهم ولاضلتهم » « ولا تجد أكثرهم شاكرين » ، وقوله : « فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » بيان لتصديقه ظنه .

ومنه يظهر أن ضمير الجمع في « عليهم » هنا وكذا في الآية التالية لعامة الناس لا لسبباً خاصة وإن كانت الآية منطبقة عليهم .

قوله تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونوا معدورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه ، قال تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، وقال حاكياً عن إبليس يوم القيامة : « وما كان بي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ .

ومناً اتباعهم له ريب وشك في قلوبهم من الآخرة يضرهم يظهر أثره الذي هو الاتباع لإبليس ، فإذا نه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدر من التسلسل ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيثار به ولا يرفع ذلك مسؤوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم .

فقوله : « وما كان له عليهم من سلطان » نفي لكل سلطان ، وقوله : « إلا لنعلم » أي لنميز « من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » استثناء لسلطانه عليهم من طريق

اتباعهم له عن اختيار منهم ، وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتساع الاختياري .

وتقييد الإيمان والشك بالآخرة في نلآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية والداعي إلى الضاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى : « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ . وقوله : « وربك على كل شيء حفيظ » أي عالم علماً لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر والمعصية .

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام قال : إنه خرج يقرء الزبور وكان إذا قرء الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه .

وفي تفسير القمي قوله عز وجل : « أن تعمل سابقات » قال : الدروع « وقدّر في السرد » قال : المسامير التي في الحلقة ، وقوله عز وجل : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » قال : كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر .

وفي تنكافي بإسناده عن داود بن الحصين وعن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العباس قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : « يعملون له ما يشاء من محارِب وتماثيل وجفان كالجواب ، قال : ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنها تماثيل الشجر وشبهه .

وفيه عن بعض أصحابنا مرفوعاً عن هشام بن الحكم قال : قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام ثم مدح الله القلة فقال : « وقليل من عبادي الشكور » .

أقول : وقد وقع هذا المعنى في عدة روايات وهو ينطبق على أحد المعنيين المتقدمين في ذيل الآية .

وفي الملل بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمر سليمان بن داود الجن فصنعوا له قبة من قوارير فبينما هو متكئ على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف ينظرون

إليه إذ حانت منه التفاتة فإذا رجل معه في القبة قال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت . فقبضه وهو قائم متكئ على عصاه في القبة والجن ينظرون إليه .

قال : فمكثوا سنة يدأبون له حتى بعث الله عز وجل الأروسة فأكلت منسأته وهي العصا ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين الحديث .

أقول : وبقاؤه عنه على حال القيام متكئاً على عصاه سنة وارد في عدة من روايات الشيعة وأهل السنة .

وفي المجمع في الحديث عن فروة بن مسيك قال : سألت رسول الله ﷺ عن سبأ أرجل هو أم امرأة ؟ فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاؤم أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأغار وحير فقال رجل من القوم : ما أغار ؟ قال : الذين منهم خشم ويحيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولحم وغسان .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع والسنن عنه عليه السلام والمراد بالتيامن والتشاؤم السكونة باليمن والشام .

وفي الكافي بإسناده عن سدير قال : سألت رجل أباً عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « قالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الآية فقال : هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا نعم الله عز وجل وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمه والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرق قراهم وخرّب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنانهم جنتين ذواتي أكل حنظل وأثل وشيء من سدر قليل ثم قال : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » .

أقول : وورد في عدة من الروايات أن القرى التي بارك الله فيها هم أهل بيت النبي ﷺ والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم وغيرهم ، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء .

* * *

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
 السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ
 ظَهِيرٍ - ٢٢ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا
 فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
 الْكَبِيرُ - ٢٣ . قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا
 أَوْ إِبْرَاهِيمَ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - ٢٤ . قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا
 أُجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ - ٢٥ . قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ
 بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ - ٢٦ . قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ
 شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ - ٢٧ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
 كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - ٢٨ .
 وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٢٩ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ
 يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ - ٣٠ .

(بيان)

آيات مقررّة للتوحيد واحتجاجات حوله .

قوله تعالى : « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » الى

آخر الآية، أمر النبي ﷺ أن يحتج على إبطال ألوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء، فقله: «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله، أي ادعوا الذين زعمتمهم آلهة من دون الله - ففعلوا «زعمتم» محذوفان لدلالة السياق عليهما - ودعاؤهم هو: مسألتهم شيئاً من الحوائج .

وقوله: «لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض» واقع موقع الجواب كأنه قيل: فإذا يكون إذا دعوهم؟ فقيل: لا يستجيبون لهم بشي لأنهم «لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض» ولو ملكوا لاستجابوا، ولا تتم الربوبية والالوهية إلا بأن يملك الرب والإله شيئاً مما يحتاج إليه الانسان فيملكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكراً له فيعبد، أما إذا لم يملك شيئاً فلا يكون رباً ولا إلهاً .

وقوله: «وما لهم فيها من شرك» كان الملك المنفي في الجملة السابقة «لا يملكون» الخ، الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعاً أو مفروزاً، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعاً بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلق أو بعض منها، وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة .

وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلق وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وألوهيتهم .

وقوله: «وما له منهم من ظهير» أي ليس لله سبحانه منهم كلا أو بعضاً من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة إليه وإذ ليس قليس .

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات وما في الأرض مطلقاً وملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيراً لله سبحانه .

قوله تعالى: «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاها الله سبحانه عنهم بقوله: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» يونس: ١٨،

وليس مرادهم بالشفاعة شفاعاة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعاة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم وإصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم .

وإذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون للشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك وهو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه .

وقوله : « إلا لمن أذن له » ، يحتمل أن يكون اللام في « لمن » لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة ، والمعنى : لا تنفع الشفاعاة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له ، والمعنى : لا تنفع الشفاعاة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم ، قال في الكشف : وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه . انتهى .

وهو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي وإجرائه ، قال تعالى : « لا يسقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ ، وقال : « جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة » فاطر : ١ ، والوساطة المذكورة من الشفاعاة كما تقدم في مباحث الشفاعاة في الجزء الأول من الكتاب .

فالملائكة جميعاً شفعاء لكن لا في كل أمر ولكل أحد بل في أمر أذن الله فيه ولن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء ، فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ ، لا في معنى قوله : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

قوله تعالى : « حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » التوزيع إزالة الفرع وكشفه وضمائر الجمع - على ما يطيه السياق - للشفعاء وهم الملائكة .

ولازم قوله : « حتى إذا فرغ عن قلوبهم » - وهو غاية - أن يكون هناك أمر مقبى بها وهو كون قلوبهم في فرغ تمتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه ، فالآية في معنى قوله تعالى : « والله يسجد - إلى أن قال - والملائكة وهم

لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ، النحل : ٥٠ ، فالفرع هو التأثر والإنقباض من الخوف وهو المراد بسجدهم تذللًا من خوف ربهم من فوقهم .

وبذلك يظهر أن المراد بفرعهم حتى يفرع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث أنهم أسباب وشغماء في نفوذ الأوامر الإلهية ووقوعه على ما صدر وكما أريد ، وكشف هذا التذلل هو تلقئهم الأمر الإلهي واشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم وطاعتهم لله فيما أمرهم به وأنه لا واسطة بين الله سبحانه وبين الفعل إلا أمره فافهم ذلك .

وإنما نسب الفرع والتفريع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم وعن كل شيء إلا ربهم وهم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفرع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل ولا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع ، قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، فالمستفاد من الآية نظراً إلى هذا المعنى أنهم في فرع حتى إذا أزيل فرعهم بصدور الأمر الإلهي .

وقوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » يدل على أنهم طوائف كثيرين يسأل بعضهم بعضاً عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفرع عن قلوب السائلين .
ويتبين منه أن كشف الفرع ونزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسؤل عالماً بما سئل عنه قبل السائل .

فلم مراتب مختلفة ومقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالية من غير تخلف ولا مهلة وهو طاعة الداني منهم للعالِي ، كما يستفاد ذلك أيضاً بالتدبر في قوله تعالى : « وما منّا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ ، وقوله في وصف الروح الأمين : « ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين » التكويد : ٢١ .

فبينهم مطاع ومطيع ولا طاعة مع ذلك إلا الله سبحانه لأن المطاع منهم لا شأن له إلا بإصالح ما وصل إليه من الأمر الإلهي إلى مطيعه الذي دونه ، ويمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق في قوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » أي قال

القول الثابت الذي لا سبيل للبطلان والتبدل اليه .

وما أَلطف ختم الآية بقوله تعالى : « وهو العلي الكبير » أي هو العلي الذي دونه كل شيء ، والكبير الذي يصغر عنده كل شيء ، فليس للملائكة المكرمين إلا تاتسي قوله الحق وامثالها وطاعته كما يريد .

فقد تحصل من الآية الكريمة أن الملائكة فزعون في أنفسهم متذللون في نواتهم ذاهلون عن كل شيء ، إلا عن ربهم محذقون إلى ساحة العظمة والكبرياء في انتظار صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع ، بصدور الأمر ونزوله وهم مع ذلك طوائف مختلفة ذوا مقامات متفاوتة علواً ودنواً يتوسط كل عال في إيصال الأمر النازل إلى من هو دونه .

فهم مع كونهم شغفاء وأسباباً متوسطة لا يشفعون ولا يتوسطون في حدوث حادث من حوادث الخلق والتدبير إلا بإذن خاص من ربهم في حدوثه فيتعلمون الأمر النازل إليهم حتى يحققوه في الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم في شيء أو يستبدوا برأي ، ومن كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون رباً مستقلاً في أمره مفوضاً إليه التدبير يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ؟

وفي الآية أقوال مختلفة أخر :

منها : أن ضمير « قلوبهم » و « قالوا » الثاني للمشركين دون الملائكة وضمير « قالوا » الأول للملائكة والمعنى : حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم : ماذا قال ربكم ؟ قالت المشركون لهم : الحق فيعترفون بما أنكروه في الدنيا .

ومنها : أن ضمير « قلوبهم » للملائكة والمراد أن الملائكة الموكلين بالأعمال إذا صدعوا بأعمال العباد إلى السماء وهم زجل وصوت عظيم خشيت الملائكة أنها الساعة فيفزعون ويخرون سجداً لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع وعطوا أنه ليس الأمر كذلك فسألوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق .

ومنها : أن الله لما بعث النبي ﷺ بعد فترة بينه وبين عيسى عليها السلام لم ينزل فيها شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلما نزل ظنت الملائكة أنه

نزل بشيء من أمر الساعة فصنعوا لذلك فجعل جبريل يمر بكل سماء ويكشف الفزع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رؤسهم وقال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق أي الوحي .

ومنها: أن الضمير للملائكة والمراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي ويصعقون ويخرون سجداً للآية العظيمة فإذا فزع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحى إليه ماذا قال ربك؟ أو سأل بعضهم بعضاً ماذا قال ربكم؟ فيعلمون أن الأمر في غيرهم .

وأنت بعد التدبر في الآية الكريمة والتأمل فيما قدمناه تعلم وجه الضعف في هذه الأقوال وأن شيئاً منها على تقدير صحته في نفسه لا يصلح تفسيراً لها .

قوله تعالى: « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » الخ ، احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملك العمد في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها تزويهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك .

فأمر النبي ﷺ أن يسألهم من يرزقهم من السموات والأرض؟ والجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه ولا خالق - حتى عند المشركين - إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بالسنتهم وإن أذعنت به قلوبهم ولذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال: « قل الله » .

وقوله: « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، تمة قول النبي ﷺ وهذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة ووضوح الحق في مسألة الألوهية مبني على سلوك طريق الإنصاف، ومفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفيًا وإثباتًا ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإما أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى ما ألقى إليكم من الحجة وميزوا المهدي من الضال والحق من المبطل .

واختلاف التعبير في قوله: « على هدى » و « في ضلال » بلفظة على وفي - كما قيل - للإشارة إلى أن المهدي كأنه مستعمل على منار يتطلع على السبيل وغايتها التي فيها سعادته ، والضال منغم في ظلمة لا يدري أين يضع قدمه وإلى أين يسير

وماذا يراد به ؟

قوله تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » أي إن العمل وخاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله ولا يلحق وباله إلا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسؤولون عنه ولا نسأل عما تعملون بل أنتم المسؤولون .

وهذا تهديد لما في الآية التالية من حديث الجمع والفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيراً وشرأ كان من الواجب أن يفتح بينها ويتميز كل من الأخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادة أو شقاء والذي يفتح ويميز هو الرب تعالى . وفي التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام وفي ناحية الشركين بقوله : « تعملون » ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة .

قوله تعالى : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم » لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التمييز بينها بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر وهو الرب أمر نبيه ﷺ أن يذكرهم أن الذي يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله ، فهو رب هؤلاء وأولئك فإنه هو الفتح العليم يفتح بين كل شيتين بالخلق والتدبير فيتميز بذلك الشيء من الشيء كما قال : « أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففقتناهما » الأنبياء : ٣٠ ، وهو العليم بكل شيء .

فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أولاً ثم انحصار التمييز والجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه ويبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب .

والفتح من أسماء الله الحسنى والفتح إيماد الفصل بين شيتين لغائده تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيماد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيتين لتمييز كل منها عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله .

قوله تعالى : « قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء كلاب هو الله العزيز الحكيم » أمر آخر للنبي ﷺ أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يحتج بهم هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ؟ وهذا معنى قوله : « أروني الذين ألحقتهم به شركاء » أي ألحقتهم به شركاء له .

ثم ردع بنفسه وقال : كلاً لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة والعلم والقدرة وإما أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم وهم وإن لم يخلوا عن حياة وعلم وقدرة إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض إليهم ؟ فالوجود الواجب بكاله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كاله .

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ما له من الشؤون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية وهذا ينافي حكمته تعالى .

وقد أشير إلى هذه الحجة بقوله : « بل هو الله العزيز الحكيم » فإن عزته تعالى - وهو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كاله عاد لكونه لا يحد بمحد - تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كاله كالربوبية والالوهية المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت للشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك .

وقد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها .

قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » قال الراغب في المفردات : الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفه ، وكففته أصبه بالكف ودفعته بها وتعرف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره ، وقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي والهياه فيه للمبالغة كقولهم : راوية وعلامة ونسابة . انتهى .

ويؤيد هذا المعنى توصيفه بشيراً ونذيراً بالبشير والنذير ، فقوله : « بشيراً ونذيراً » حالان يبينان صفته لقوله : « كافة للناس » .

وربما قيل : إن التقدير وما أرسلناك إلا رسالة كافة للناس ولا يخلو من تكلف وبعد .

وأما كون كافة بمعنى جميعاً وحالاً من الناس، والمعنى : وما أرسلناك إلا للناس جميعاً فهم ينعون عن تقدم الحال على صاحبه الجهور .

واعلم أن منطوق الآية وإن كان راجعاً إلى النبوة وفيها انتقال من الكلام في التوحيد إلى الكلام في النبوة على حد الآيات التالية ، لكن في مدلولها حجة أخرى على التوحيد وذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم إلى غايات وجودهم فمعموم رسالته ﷺ وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاءهم رسوله ولم يعم رسالة النبي ﷺ أو عتمتهم واحتاجوا معه إلى غيره ، وهذا معنى قول علي بن أبي طالب - علي ما روي - لو كان لربك شريك لأتتك رسله .

ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه أمست يجهل الناس من كونه ﷺ رسولا كافاً لهم عن المعاصي بشيراً ونذيراً .

فمفاد الآية على هذا : لا يمكنهم أن يروك شريكاً له والحال أنا لم نرسلك إلا كافاً لجميع الناس بشيراً ونذيراً ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم وهم عباد إله آخر والله أعلم .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » سؤال عن وقت الجمع والفتح وهو البعث فالآية متصلة بقوله السابق : « قل يجمع بيننا ربنا » الآية ، وهذا أيضاً من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله : « وما أرسلناك إلا كافة » وإلا كانت هذه الآية والتي بعدها متخللتين بين قوله : « وما أرسلناك » الآية ، والآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة .

قوله تعالى : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضي محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعاً ولا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعد به وعداً لا يختلف إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه .

وما قيل : إن المراد به يوم الموت غير شديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده وهو يوم الجمع والفتح والجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » وذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحياً فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد عليه السلام ، فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد سمع أهل السماوات صوت وحى القرآن كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات .

فلما فرغ عن الوحي انحدر جبرئيل كلما مرّ بأهل سماء فزع عن قلوبهم يقول : كشف عن قلوبهم ، فقال بعض لبعض : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير . أقول : وروى مثله من طرق أهل السنة موصولاً وموقوفاً عن النبي عليه السلام ومدلول الرواية على أي حال مصداق من مصاديق الآية ولا تصلح لتفسيرها البتة .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس وفي الجمع عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أعطيت خمساً لم يعطين نبي قبلي : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود وإنما كان النبي يبعث إلى قومه ، ونصرت بالرعب يرعب مني عدوي على مسيرة شهر ، وأطعمت المنعم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فآخرتني لأمتي إلى يوم القيامة وهي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئاً .

أقول : وروى أيضاً هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه عليه السلام .

والرواية معارضة لما ورد مستفيضاً أن نوحاً كان مبعوثاً إلى الناس كافة وذكر في بعضها إبراهيم عليه السلام وفي بعضها أن أولي العزم كلهم مبعوثون إلى الدنيا كافة ، وتختلف أيضاً عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات وقد قال تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » الزخرف : ١٦ ، وقد شهد القرآن بأن المسيح عليه السلام من الشهداء قال تعالى : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » النساء : ١٥٩ .

والروايات من طرق للعامة والخاصة كثيرة في عموم رسالته للناس كافة وظاهر كثير منها أخذ «كافة» في قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» حالاً من «للناس» قدم عليه ويمنعه البصريون من النحاة ويجوزة الكوفيون.

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ - ٣١. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ - ٣٢. وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ
نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسْرُوا السَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَبُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ - ٣٣. وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ - ٣٤. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ - ٣٥. قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - ٣٦. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ بِالْأَيْ تَهْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ۗ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ

لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ — ٣٧. وَالَّذِينَ
يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ — ٣٨. قُلْ
إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ — ٣٩. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً
ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ — ٤٠. قَالُوا
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ
مُؤْمِنُونَ — ٤١. فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً
وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ — ٤٢.
وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ
يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ — ٤٣. وَمَا
آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَذْرُؤُنَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ — ٤٤.
وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ — ٤٥. قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ
مَشْيًى وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ — ٤٦. قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ
لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ — ٤٧. قُلْ إِنْ

رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ - ٤٨ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ
 الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ - ٤٩ . قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ
 اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ - ٥٠ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ
 فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ - ٥١ . وَقَالُوا آمَنَّا
 بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ - ٥٢ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
 مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ - ٥٣ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
 وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ
 مُرِيبٍ - ٥٤ .

(بيان)

فصل آخر من آيات السورة تتكلم في أمر النبوة وما يرجع اليها وما يقول
 المشركون فيها وتتخلص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة ، وقد
 اتصلت بقوله في الفصل السابق : « وما أرسلناك إلا كافة للناس ، الآية » ، وقد عرفت
 أن الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة وتجعلها دليلاً على التوحيد .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه »
 المراد بالذين كفروا المشركون والمراد بالذي بين يديه الكتب السماوية من التوراة والإنجيل
 وذلك أن المشركين وهم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة ويتبعها الكتاب السماوي .

وقول بعضهم : إن المراد بالذي بين يديه هو أمر الآخرة مما لا دليل يساعده ،
 وقد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة والإنجيل بالذي بين يديه ، ومن الخطأ
 قول بعضهم : إن المراد بالذين كفروا هم اليهود .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، الخ ، الظاهر أن اللام في « الظالمون » للعهد ، وهذه الآية والآيات بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر - وأساسه ضلال أئمة الكفر وإضلالهم تابعيهم - سيلحق بهم وسيندمون عليه ولن ينفهم الندم .

فقوله : « ولو ترى » خطاب للنبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب « إذ الظالمون » وهم الكافرون بكتب الله ورسوله ، الذين ظلوا أنفسهم بالكفر « موقوفون عند ربهم » للحساب والجزاء يوم القيامة « يرجع بعضهم إلى بعض القول ، أي يتجاوزون ويتراجعون في الكلام متخاصمين » يقول الذين استضعفوا « بيأت لرجوع بعضهم إلى بعض في القول والمستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون » الذين استكبروا « وهم الأئمة القادة « لولا أنتم لكانا مؤمنين » يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلمت بيننا وبين الإيمان .

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ، جواباً عن قولهم ورداً لما اتهموهم به من الإكراه والإجبار « أنحن صددناكم » الاستفهام للانكار أي أنحن صرفناكم « عن الهدى بعد إذ جاءكم » قبلوغه اليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أننا لم نحل بينه وبينكم وكنتم مختارين في الإيمان به والكفر « بل كنتم مجرمين ، متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم ونحن برءاء منه .

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا » ردّاً لقولهم ودعواهم البراءة « بل مكر الليل والنهار ، أي مكرهم بالليل والنهار حملنا على الكفر « إذ كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأمثالاً من الآلهة أي إنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل والنهار وتخطون الخطط لتستضعفونا وتتأمرروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون ، فلم نشعر إلا ونحن مضطرون على الانتثار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر والشرك .

« وأسروا » وأخفوا « الندامة لما رأوا العذاب » وشاهدوا أن لا مناص ، وإخفاؤهم الندامة يوم القيامة - وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء - نظير كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور

ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامة في الدنيا خوفاً من شامة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم .

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: « وجعلنا الأغلال » السلاسل « في أعناق الذين كفروا هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون » فصارت أعمالهم أغلالاً في أعناقهم تحبسهم في العذاب .

قوله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التتميم ، وفيه إشعار بأن الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحق كما تفيد الآية اللاحقة .

قوله تعالى : « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ضمير الجمع للمترفين ، ومن شأن الإتراف والترفة والتقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة وينسى ما وراءه .

ولذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » فلا سعادة إلا فيها ولا شقوة معها « وما نحن بمعذبين » في آخرة ، ولم ينفوا العذاب إلا للطفة والانصراف عما وراء كثرة الأموال والأولاد . فإذا كنت هي السعادة والفلاح فحسب فالعذاب في فقدها ولا عذاب معها .

وما هنا وجه آخر وهو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال والولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليهم ما داموا ، والمعنى : أننا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب .

فتكون الآية في معنى قوله : « ولن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى : « قل إن يبيسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس

لا يعلمون « الآية وما يتلونها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: « نحن أكثر أموالاً » الخ ، وقد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقاً بيد الله على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة وهياً من الأسباب لا بشية الإنسان ولا لكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كفر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل ، وربما بسط على واحد ثم قدر له . فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة .

وهذا معنى قوله : « قل إن ربي » نسبة إلى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله رباً لأنفسهم والرزق من شؤون الربوبية « يبسط » أي يوسع « الرزق لمن يشاء » من عباده بحسب الحكمة والمصلحة « ويقدر » أي يضيق « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » فينسبونه ما لم يؤتوه انى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أتوه نسبوه الى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلاً على الحق .

قوله تعالى : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى » الى آخر الآيتين هذا هو الجواب الثاني عن قولهم: « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ومحصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قرباً وزلفى من الله حتى ينتفي معها العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع السبب .

وهذا معنى قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم » التي تعتمدون عليها في السعادة وانتفاء عذاب الله « بالتي » أي بالجماعة التي « تقربكم عندنا زلفى » أي تقريباً .

« إلا من آمن وعمل صالحاً » في ماله وولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبث الإيمان والعمل الصالح في أولاده بتربية دينية « فاولئك لهم جزاء الضعف » لعله من إضافة الموصوف الى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا وهدوا وأيضاً من جهة تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها وزيادة « في الغرفات » أي في القباب العالية « آمنون » من العذاب فها هم بمعذبين .

« والذين يسعون في آياتنا معاجزين » أي يحذرون في آياتنا وهم يريدون أن يعجزوا - أو ان يسبقونا - أولئك في العذاب محضرون وإن كثرت أموالهم وأولادهم .

وفي قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم ، النخ ، انتقال الى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيها وإلا فلا يزيدان إلا وبالآ .

قوله تعالى : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » قال في جمع البيان : يقال : أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه . انتهى .

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البر والمراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله .

فقوله في صدر الآية : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » للإشارة إلى أن أمر الرزق في سمته وضيقة إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال : « وما أنفقتم من شيء » قليلاً كان أو كثيراً وأياً ما كان من المال « فهو يخلفه » ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة « وهو خير الرازقين » فإنه يرزق جوداً ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة ، ولأنه الرازق في الحقيقة وغيره ممن يسمى رازقاً واسطة لوصول الرزق .

قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » المراد بهم جميعاً بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعاً .

وقوله : « ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم ولو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوا في الدنيا وقد أنكروها كما في الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى ابن مريم : « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

والغرض من السؤال تبكيت المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوا في الدنيا لذلك .

قوله تعالى : « قالوا سبحانه أنت وليتنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى يجوامع الأدب فزهوه سبحانه أولاً تزيهاً مطلقاً فيه تزييه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضام بمعبادة الشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالمعبادة ولا بالنفوة بمبادتهم صوتاً لساحة المخاطبة عما يفرح السمع بذلك ، ولو تصوراً لا تصديقاً بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بمبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بمبادتهم لازمه الموالاتة بينهم ، والموالاتة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاتة وإذا لم تكن موالاتة لم يكن رضا .

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه : « بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدون الوثنيون وهم الملائكة والجن والقديسون من البشر ، والأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الأولى والثانية ملحقة بها بعد الكمال وإن كانوا أفضل منها .

والإضراب في قولهم : « بل كانوا يعبدون الجن » يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم .

وهؤلاء من الجن هم الذين يمدح الوثنيون مبادئ الشرور في العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعاً في خيراتهم لما أنهم مباد للخيرات لا كما قيل : إن المراد بالجن إبليس وذريته وقبيله ومعنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعواهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي ، ويرده ما وقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولا ما قيل : إنهم كانوا يتمثلون لهم ويحيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ولا ما قيل : إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها .

ولعل الوجه في نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم ، ومبادئ الشر عندهم مطلقاً الجن لا كما قيل : إن المراد بالأكثر الكل ، وهو مبني على تفسير العبادة بمعنى الطاعة وقد عرفت ما فيه .

قوله تعالى : « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا

ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ، نوع تفریح علی تجري الملائكة منهم وقد بین تجري عامة المتبوعين من اٰلبيهم والتابعين من متبوعيم في مواضع كقوله تعالى : «يوم القيامة يكفرون بشرككم ، فاطر : ١٤ ، وقوله : «ثم يوم القيامة يكفر بمضك ببعض ويلعن بعضك ببعض ، العنكبوت : ٢٥ . ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، الخ ، خطايهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم علی الجد في التمسك بدين آباؤهم ومحريض لهم عليه ~~بغيرهم~~ ، وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل : إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بينة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدهوا لعامتهم الى اتباعها حشروم علی الإصرار علی تقليد آباؤهم وحرصوم عليه - وفي إضافة الآيات الى ضمير «كم» مبالغة في التحريض والإهارة .

وقوله : «وقالوا ما هذا إلا إفاك مفترى ، مطوف علی «قولا» أي وقالوا مشيراً إلى الآيات البينات إشارة تحقير : ليس هذا الا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذبوا به علی الله ، بدلاً من أن يقولوا : إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى - وقد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلالة علی أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شيء ما لا يزيد من ذلك .

ثم غير سبحانه السياق وقال : «وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ، ومجيبه الحق لهم بلوغه وظهوره لهم ، والأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعطيل والمعنى : والذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الفني بلفظهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحرته وبطلانه .

وأكد إصرارهم علی دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله : «وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير ، والجملة حالية أي وعدة الذين كفروا - أي كفار قريش - الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً والحال ان لم تعطهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل ولم نرسل اليهم قبلك من رسول ينفرهم ويبين لهم ذلك فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول التذير : إنه حق أو باطل .

قوله تعالى : « وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير » ضميراً للجمع الأول والثاني لكفار قريش ومن يتلوهم والثالث والرابع للذين من قبلهم ، والمعشار العشر والتكبير الإنكار ، والمراد به في الآية لازمه وهو الأخذ بالعذاب .

والمعنى : وكذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الأمم الماضية ولم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب وما أهون أمر قريش . والالتفات في الآية إلى التكلم لاستعظام الجرم وتهويل الملاحظة .

قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة » المراد بالموعظة الرصية كناية أو تضييماً ، وقوله : « أن تقوموا لله » أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم ، وقوله : « مثنى وفرادى » أي اثنين اثنين وواحداً واحداً كناية عن التفرق وتجنب التجمع والغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها ولا فكر وكثيراً ما تمت الحق وتحيي الباطل .

وقوله : « ما بصاحبكم من جنة » استئناف « ما » نافية ويشهد بذلك قوله بعد : « إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ويمكن أن يكون « ما » استفهامية أو موصولة « من جنة » بياناً له .

والمراد بصاحبكم النبي ﷺ نفسه والوجه في التعبير به تذكيرهم بصحبته الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلافاً في فكر أو خفة في رأي أو أي شيء يوهم أن به جنوناً .

والمعنى : قل لهم : إنما أوصيكم بالمعظة أن تنهضوا وتنصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين وواحداً واحداً وتتفكروا في أمري فقد صاحبكم طول عمري على سداد من الرأي وصدق وأمانة ليس في من جنة . ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن .

قوله تعالى : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » الخ ، كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا رهبهم كل ما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسؤل

ولازمه أن لا يسألهم وهذا تطيب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه .

ثم تم القول بقوله : « إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد » لئلا يردّ عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملاً بغير غاية فدفعه بأن لعملي أجرأ لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد .

قوله تعالى : « قل إن ربي يقذف بالحق علامّ الضيوب » القذف الرمي ، وقوله : « علامّ الضيوب » خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع اليه تعالى .

ومقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل اليه بالوحي من عنده تعالى الذي هو قول فصل يحق الحق ويبطل الباطل فهو الحق المقذوف اليه ﷺ من عند علامّ الضيوب فيدمغ الباطل ويزهقه ، قال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » الأنبياء : ١٨ ، وقال : « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أسرى : ٨١ .

قوله تعالى : « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يميد » المراد بمجيء الحق على ما تهدي اليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة لكل باطل من أصله .

وقوله : « وما يبدىء الباطل وما يميد » أي ما يظهر أمراً ابتدائياً جديداً بعد مجيء الحق وما يميد أمراً كان قد أظهره من قبل إظهاراً ثانياً بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذي هو القرآن .

قوله تعالى : « قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب » بيان لأثر الحق الذي هو الوحي فإنه عرفه حقاً مطلقاً فالحق إذا كان حقاً من كل جهة لم يخطئ في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلا كان باطلاً من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطئ البتة .

ولذا قال تأكيداً لما تقدم : « قل إن ضللت » وفرض مني ضلال « فإنما أضل » مستقراً ذلك الضلال « على نفسي » فإن للإنسان من نفسه أن يضل « وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي » فوحيه حق لا يحتمل ضلالاً ولا يؤثر إلا الهدى .

وقد علل للكلام بقوله : « إنه جميع قريب » للدلالة على أنه يسمع الدعوة ولا يحجب عنها حاجب البعد وقد مهد له قبلاً وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخجل بأمره ويمنع نفوذ مشيئته هداية للناس بالوحي قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدواً » الجن : ٢٨ .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل » أن الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش ومن يلحق بهم حال الموت . فقوله : « ولو ترى إذ فزعوا » أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت « فلا فوت » أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أي حائل آخر .

وقوله : « وأخذوا من مكان قريب » كناية عن عدم فصل بينهم وبين ما يأخذهم وقد عبر بقوله : « أخذوا » مبنياً للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه ، وقد وصف نفسه بأنه قريب ، وكشف عن معنى قربه بقوله : « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » الواقعة : ٨٥ ، وأزيد منه في قوله : « من جبل الوريد » ق : ١٦ ، وأزيد منه في قوله : « إن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال : ٢٤ ، فيبين أنه أقرب إلى الإنسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله : « إن ربك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ ، فكيف يتصور فوت الإنسان منه وهو أقرب إليه من نفسه ؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر من تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم . فقوله : « وأخذوا من مكان قريب » نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأنسنا بالأمور المادية وإلا فالأمر أعظم من ذلك .

قوله تعالى : « وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد » التناوش التناول وخمير « به » للقرآن على ما يعطيه السياق .

والمراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعين الجزاء وهي

أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدل الغيب شهادة لهم والشهادة غيباً كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » حال من الضمير في « وأنتى لهم التنارش » والمراد بقوله : « ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » رميهم عالم الآخرة وهم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به وكونه غائباً عن حواسهم إذ كانوا يقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار ، وقيل : المراد به رميهم النبي ﷺ بالسحر والكذب والإفراء والشمر .

والعناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيرة إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا وقد تقدمت الإشارة إليه .

ومعنى الآيتين : وقال المشركون حينما أخذوا آمننا بالحق الذي هو القرآن وأنتى لهم تناول الإيمان به - إيماناً يفيد النجاة - من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم ينفون أمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهو الدنيا .

قوله تعالى : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل إنهم كلوا في شك مريب » ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم وبينها بالموت ، والمراد بأشباعهم من قبل أشباعهم من الامم الماضية أو موافقهم في المذهب ، وقوله : « إنهم كلوا في شك مريب » تعليل لقوله : « كما فعل » الخ .

والمعنى : ووقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين وبين ما يشتهون من ملاذ الدنيا كما فعل ذلك بأشباعهم من مشركي الامم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب .

واعلم أن ما قدمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفيناني بالبيداء ، وهو من علائم ظهور المهدي عليه السلام المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » قال : يسرون الندامة في النار إذا رأوا وليّ الله فقيل : يا ابن رسول الله وما يعنيهم إصرارهم الندامة وهم في العذاب ؟ قال : يكرهون شتمة الأعداء .

أقول : ورواه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه وذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال أبو عبد الله عليه السلام : اسكت فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمه باراً بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يقول فيه : حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم ثم أعطاهم بكل واحد عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز وجل : « جزاء من ربك عطاء حساباً » وقال : « أولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » .

وفي الكافي بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من صدق بالخلف جاد بالمطية .

وفيه بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إن لكل يوم نحساً فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ، ثم قال : اقرؤوا مواضع الخلف فإني سمعت الله يقول : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » إذا لم ينفقوا كيف يخلف ؟

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله سأل قومه أن يودّوا أقاربه ولا يؤذوه . وأما قوله : « فهو لكم » يقول : ثوابه لكم .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا ، الآية » ، أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يخرج رجل يقال له السفياي في عمق دمشق وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة ويخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفياي فيبعت إليه جنداً من جنده فيهزمهم فيسير إليه السفياي بمن معه حتى إذا صار بيدها من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا الخبث منهم .

أقول : والرواية مستفيضة من طرق أهل السنة مختصرة أو مفصلة وقد رووها من طرق مختلفة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وجدّة عمرو بن شعيب وأم سلمة وصفيّة وعائشة وحفصة أزواج النبي ﷺ ونفيرة امرأة القعقاع وعن سعيد ابن جبير موقوفاً .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال : قال أبو جعفر عليه السلام : والله لكأنني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول : يا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولى بالله . أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم . أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح . أيها الناس من يحاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم . أيها الناس من يحاجني بموسى فأنا أولى بموسى . أيها الناس من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى . أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد . أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله .

ثم ينتهي إلى المقام فيصلي زكمتين وينشد الله حقه . ثم قال أبو جعفر عليه السلام : هو والله المضطر في كتاب الله في قوله : « أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويمعلمكم خلفاء الأرض » .

فيكون أول من يبايحه جبرئيل ثم الثلاثمائة والثلاثون عشر فمن كان ابتلي بالمسير وافى ومن لم يتل بالمسير فقد عنق فرائه وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام : هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله : « فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم جميعاً » قال : الخيرات الولاية ، وقال في موضع آخر : « ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة »

وهم أصحاب القائم عليه السلام يجمعون والله اليه في ساعة واحدة .

فإذا جاء إلى البيداء يخرج اليه جيش السفيناني فيأمر الله عز وجل الأرض فيأخذ بأقدامهم وهو قوله عز وجل : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكات قريب وقالوا آمنا به » يعني بالقائم من آل محمد عليه السلام « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون » يعني أن لا يمدبوا « كما فعل بأشياعهم » يعني من كان قبلهم من المكذبين هلكوا « من قبل إنهم كانوا في شك مرعب » .

- تم والحمد لله -

بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

رقم الصحيفة	نوع البحث	موضوع البحث	رقم الآيات
٤٠	قرآني وتاريخي	كلام حول قصص موسى وهارون عليها السلام في فصول :	سورة القصص ٢٩ - ٤٢
٤٠		١ - منزلة موسى عند الله وموقفه المبودي	
٤١		٢ - قصص موسى في القرآن	
٤٤		٣ - منزلة هارون عند الله وموقفه المبودي	
٤٤		٤ - قصة موسى في التوراة الحاضرة	
١٨٩		كلام في معنى كون الدين فطرياً في أربعة فصول	سورة الروم ٢٧ - ٣٩
٢٢١	قرآني وروائي	كلام في قصة لقمان ونبذ من حكه في فصلين	سورة لقمان ١٢ - ١٩
٢٥٥	مختلط	كلام في كينونة الإنسان الأولى	سورة السجدة ١ - ١٤

عبدالمبارك

بيروت - تلفون : ٢٨٦٨٢٢